

شريف حتاتة

رواية

نبض الأشياء الضائعة

دار الآداب

نبض الأشياء الضائعة

د. شريف حتاتة

نبض الأشياء الضائعة

رواية

دار الآداب

نبض الأشياء الضائعة

د. شريف حتاتة/مؤلِّف مصريّ

الطبعة الأولى عام ٢٠٠١م

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

الجزء الأول

(١)

اسمي «إبراهيم مصطفى سالم»، كنت صبيًا صغيرًا يوم أن تركنا أبي وسافر، أتذكّر قامته الطويلة رأيتها من الخلف وهو يبتعد عنّا حاملاً في يده حقيبة من القماش داكنة اللون. جاء الليل ورقدت في السرير. كانت عيناي مفتوحتين عندما رقدت أمّي إلى جواري، سألتها: «أين ذهب أبي؟» قالت: «إلى الحرب».

لم أكن أعرف ما هي الحرب. تصوّرت أنّها مكان بعيد رحل إليه. خطر في بالي أن أسألها، ولكنّي خفت أن تنهرني. وبعد قليل سقطت في النوم. وفي الصباح عندما استيقظنا طلبت منّي أمّي أن أبحث معها عن كيسها الذي تضع فيه النقود، ووعدتني بقرش أشتري به «كراميلا» إن اهتديت إليه، فانشغلت بالبحث عنه إلى أن وجدته ساقطًا على الأرض خلف الكنبة التي تجلس عليها. وبعد ذلك ذهبت أمّي إلى الغيط، وانطلقت لأشتري «الكراميلا» تاركًا خالتي «فاطمة» جالسة في البيت.

كانت خالتي «فاطمة» أكبر منّي بخمس سنوات. أحضرتها أمّي إلى بيتنا في يوم هبّت عاصفة رمليّة فاصفرّت الدنيا كلّها أمام عينيّ. ومنذ ذلك اليوم بقيت معنا. قالت إنّ أباها ترك أمّها وتزوّج عليها، وإنّ الأمّ ماتت بعد ثلاث سنوات فأصبحت وحيدة. كانت أمّي تعاملها برقّة على غير عادتها مع الآخرين. وبعد أن سافر أبي إلى الحرب اصطحبتها إلى السوق، وابتاعت لها جلبابًا جميلاً أخضر اللون، وبلغة

لها كعب صغير، فأخذتُ ألحُّ عليها حتّى تشتري لي جلبابًا أنا أيضًا، لكنّها قالت في ضيق: «لم يعد عندي نقود، لمّا يفرجها ربّنا».

مرَّت الشهور. كدت أن أنسى أبي. لكنّه في إحدى الليالي عاد. كنّا نتناول العشاء أنا وأمّي وخالتي فاطمة عندما سمعنا طرقًا على الباب. زعقت أمّي «من يطرق الباب؟». فجاءنا صوته مكتومًا من خلف السياج «أنا يا «نعيمة» افتحي». ظلَّت جامدة لا تتحرَّك، ثم قامت من الطبليّة، وأسرعت لفتح الباب. خطا أبي خطوتين داخل القاعة، وفي يده الحقيبة التي تفسَّخت عند أحد أطرافها وتدلَّت منها دكّة سرواله. وقفت أمّي أمامه جامدة ثم لانت قسماتها قليلاً، وتدحرجت على وجهها دمعتان. كان لا يزال يحمل الحقيبة. خطت نحوه ببطء، وأخذتها منه، ووضعتها على الأرض ثم جذبته من يده وأجلسته على الكنبة. سألته إن كان يريد أن يأكل شيئًا، لكنّه أبى، فجلسنا حوله نتطلَّع إليه كأنّنا لم نفق من ظهوره حيًّا بيننا، جالسًا على الكنبة أمامنا.

ظلَّ صامتاً يدور بعينيه حول الجدران. خلع حذاءه الأسود الضخم وجرابه، فاستنشقت رائحة عرق. مدَّ ساقه اليمنى أمامه، اكتشفت أن القدم ينقصها الإصبع الكبير، أصبح مكانها خطّ أبيض بارز على جانبيه ندوب. ولمّا أزاح غطاء الرأس الكاكيّ اللون الذي كان يرتديه لاحظت أنّ شعر رأسه شاب تمامًا.

لم يبق معنا إلاّ ثلاثة أيّام قضاها دون أن يخرج من البيت. طوال الأيّام الثلاثة لم يتبادل معنا إلاّ كلمات قليلة. حلَّ محلّي في الفراش إلى جوار أمّي. أخرجتني منه لأنام على كنبة في القاعة. في الليل كنت أسمع صوت أبي العميق يتردَّد أحيانًا بنبرات فيها غضب، وفي مرّة من

المرّات التقطت اسم «فاطمة» يتبادل بينهما في الحديث، لكن سرعان ما كانت تخفت الأصوات ليحلّ محلّها الهمس.

شعرت بالضيق، لأنّ أمّي أخرجتني من سريرها ليحتلّ أبي المكان الذي كنت أنام فيه إلى جوارها، ولذلك أحسست بالفرح صباح اليوم الرابع عندما أوصلناه إلى محطّة «البدرشين». لمحت يده الكبيرة تلوّح لنا من نافذة القطار وأخذ يتحرَّك قرب الرصيف. لكن عندما عدنا إلى البيت وجدت نصف ريال من الفضّة تركه لي تحت الوسادة التي كان ينام عليها. أصبحت أسأل عن اليوم الذي سيعود فيه فتردّ عليَّ أمّي قائلة «بعد أسابيع». لكن.. مرَّت الشهور، ثم السنون، من دون أن نسمع عنه شيئًا. تحوَّل إلى صور قليلة في ذهني بهتت كلّما أصبحت بعيدة، لتعود إليَّ فجأة في ذلك اليوم الذي ذهبت مع خالي عبد الرحيم إلى مستشفى «البدرشين». كان خالي يعاني من مغص في جانبه الأيمن فنصحه الطبيب بعمل أشعّة. وبعد أن انتهى من الكشف قال: «الآن يمكننا أن نتنزّه قليلاً».

كانت سنّي إذ ذاك تسعاً. لمّا تعب من المشي جلسنا في مقهى، وطلب لي زجاجة «كازوزة» ولنفسه كوبًا من الشاي، وكرسيًّا من الدخان. أخذ يحكي لي حكايات عرج أثناءها على حرب الـ ١٩٤٨. كيف أنّ أبي لم يعد من فلسطين فسجّل في كشف المفقودين بعد أن عجزوا عن الاهتداء إلى اسمه بين القتلى أو الأسرى، رغم أنّ عددهم لم يكن كبيرًا.

جلست أمامه أستمع إليه. استولى عليَّ حزن غامض رغم أنَّ أبي لم يكن بالنسبة إليَّ أكثر من ذكرى باهتة. تملَّكني شعور بأنّني لست مثل الأطفال الآخرين في المدرسة، إنّني فقدت شيئًا ثمينًا، ولا سبيل إلى

استرجاعه.

انقضت عدّة شهور على هذا الحديث، وفي أحد الأيّام بعد أن عدت من المدرسة جاءنا شرطيّ من قسم «البدرشين». دقَّ الباب ونادى علينا «يا أهل البيت... يا أهل البيت، افتحوا». كانت أمّي في الغيط، فخشيت خالتي «فاطمة» من أن تفتح لرجل غريب. ظلَّت مختفية خلف الباب المغلق تتحدَّث إليه من خلاله:

«أمّ إبراهيم ستعود إلى البيت قبل صلاة المغرب، ويمكنك أن تحضر إليها في ذلك الوقت لتبلغها ما تريد».

لكن الطارق أخذ يتحايل عليها. سمعنا صوته المبحوح يقول في صدق: «أنا الشاويش «محمدين» أقدم عسكري في القسم، ولا يوجد أحد في «البدرشين» لا يعرفني. معي مظروف من وزارة الحربيّة، ولا بدَّ أن أسلِّمه إليكم باليد، وأن توقّعوا باستلامه. مشيت مشواراً طويلاً في الحرّ لأصل إليكم. حرام أن تجبروني على اجتياز هذا المشوار من جديد».

أشفقت عليه خالتي «فاطمة»، وفتحت الباب. وجدناه جالسًا على العتبة بجسمه الصغير المنكمش في البدلة الميري. خلع غطاء الرأس وأخذ يجفِّف صلعته في شمس الظهيرة بمنديل ملوّن أعاده حول عنقه داخل ياقة السترة. أخذت منه المظروف ووقّعت على «السركي» «فاطمة» بخطّها المتعرِّج الطفوليّ، وذهبت لتحضر له كوبًا من الشاي، وقلّة من المياه المعطّرة بماء الورد. شرب من القلّة لكنّه رفض الشاي فاقتسمناه مع قطعة من فطيرة الذرة التي كانت تصنعها أمّي كلّ يوم خميس، وعدت أنا أراجع درس التاريخ.

عادت أمّي في ذلك اليوم قرب المغرب. بعد أن اغتسلت، جلست على الكنبة، رفعت قدميها تحت جلبابها، وأغلقت عينيها في سبات قصير.

لكن خالتي «فاطمة» تذكَّرت المظروف البنّي اللون الذي أحضره شاويش القسم فأيقظتها خشية أن يكون فيه شيء عاجل. لم تكن أمّي تعرف القراءة أو الكتابة، فأخرجت الورقة من الظرف، وأخذت تقلّبها بين يديها وتفحصها. وفي هذه اللحظة دخل علينا خالي «عبد الرحيم» بالحمارة التي كانت تحمل جوالاً من «الدريس» أنزله في الزريبة ليعلف العِجلة التي كان يشاركها فيها.

بعد أن ربط الحمارة في الزريبة نادت عليه ليقرأ لها الخطاب. جلس على الكنبة. عدّل من وضع العمّة على رأسه ليوزنها، ثم أخذ يقرأ بصوت عالٍ. كان يتوقّف بين الحين والحين ليلقي إلينا بنظرة فاحصة كأنّه يتأكّد من أنّنا نتابع ما يتلوه علينا. عندما انتهى زحزح العمّة إلى الوراء والتفت إلى أمّي والبريق يطلّ من عينيه الصغيرتين، ثم قال:

«مبروك عليك يا «نعيمة»، حكومة الثورة اعتبرت المرحوم عبد الله شهيدًا، وقرَّرت لك معاشًا شهريًّا خمسة عشر جنيهًا».

بدت عليها الفرحة. أخذت منه الورقة، وحملقت فيها كأنّها تبحث عن شيء تستشفّ منه حقيقة ما قرأه عليها. سالت منها دموع صامتة كأنّها كانت تختزنها منذ زمن بعيد. لم أفهم لماذا بكت بينما نطق خالي كلمة «مبروك» كأنّه يهنّئها على حدث سعيد. فتحت الباب وجلست على عتبة البيت. كان الأولاد يلعبون في الأرض الفضاء، وأصواتهم المرحة ترتفع في الليل. أحسست تحت ضلوعي بثقل كالحجر

الصغير. ومنذ ذلك اليوم كلّما نطق أحد أمامي كلمة «شهيد» أحسست بالحجرة الصغيرة تنقلب تحت ضلوعي من جديد.

لم تكن ظروف حياتنا سهلة. كنت أذهب إلى المدرسة مرتديًا بنطالاً مرقّعًا، وحذاءً، أو صندلاً قديمًا. الكتب كنت أستعيرها من تلميذ يقطن في بيتٍ مبنيٍّ من الطوب الأحمر يقع على الجانب الآخر من جبّانة المسلمين. أمّا بيتنا فكان مصنوعًا من الطوب الأخضر والقشّ والطين. لكنّه كان على أطراف البلدة يطلّ على الحقول، ومن ورائها النيل. في الصباح عندما تفتح خالتي «فاطمة» الشبّاك الخشبيّ أرى الشمس تصعد خلف أشجار الكافور والنخيل، ترقص أوراقها في ضوء الشروق الورديّ. أسمع زقزقة العصافير، وهديل الحمام، وغناء طيور أخرى تأتي لمدّة أسابيع ثم ترحل إلى مكان آخر.

كنت أستقبل اليوم الجديد بفرحة. لكن عندما يأتي الليل يصيبني حزن غامض. فالليل هو اختفاء الضوء، واللون، والشمس، والعصافير. هو المجهول أخاف منه. لذلك لم أكن أستجيب لدعوات أولاد الجيران عندما كانوا ينادون عليّ لألعب معهم في الليل.

هل كان السبب غياب أبي عن البيت ثم اختفاؤه عن حياتي نهائيًّا؟ أو صرامة أمّي وصمتها كأنّها مغلقة على أسرار في حياتها لا تريد أن يصل أحد إليها؟ مع ذلك كانت من بعض النواحي أمًّا مثاليّة تعطي لنا كلّ ما عندها حتّى وإن كان قليلاً، وتكاد تحرم نفسها من كلّ شيء.

كانت تشقى طوال النهار في الغيط، وعندما تعود لا تكفّ عن جهودها لتجميل دارنا الصغيرة، وإدخال نوع من البهجة عليها. تجمع فضلات القماش الملوّنة، وتصنع منها ستائر للشبابيك، فترفرف

بألوان الطيف وسط الجدران الطينيّة حتّى أصبح الناس يصفون دارنا «بالدار ذات الستائر الجميلة». تطرّز مفارش برسوم من خيالها وتضعها على الطبليّة، والصناديق. عندما نأكل تعطي لكلّ منّا ملعقة حتّى لا نغمس أصابعنا في صحن الطبيخ.

كان الأثاث في بيتنا فقيرًا. أسرّة، وكتب، وصناديق، ودولابان. لكن كانت كلّ قطعة منها تلمع كأنّها مدهونة منذ قليل. وكانت محفورة بالرسوم، والنقوش، أو مزدانة بقطع من النحاس تبرق من فرط التلميع. وأصابع أمي الخشنة من قبضة الفأس كانت قادرة على صنع أشياء دقيقة كأنّها خلقت للإبداع. كان كلّ شيء في البيت مرتّبًا، ونظيفًا. أغطية السرير فيها رائحة صابون، والقلل مغسولة معطّرة بماء الورد أو البخّور، وكذلك الزير. القاعة التي ينفتح عليها البيت مكنوسة، ومرشوشة دائمًا، والحصيرة تستبدلها كلّما نحلت أطرافها أو بهتت ألوانها.

كانت امرأة ممشوقة القوام، عودها رفيع، وخطواتها تنتقل فوق الأرض كأنّها تعرف طريقها، ولا يستطيع أحد أن يثنيها عنه. عيناها بنيّتا اللون تشعّان دفئًا عندما تضحك، أو عندما تتحدَّث مع خالتي «فاطمة». لكن عندما تغضب تصبحان كالحجر الأملس الصلب. كنت أخاف منها، ولا أفضي إليها بما يدور في ذهني فتمرَّست على قول ما يرضيها، ويرضي الناس من حولي. هكذا منذ الأيّام التي نطقت كلماتي الأولى وبدأت أتعلّم أسماء الأشياء التي أراها، وأنفصل عن دنياها الهلاميّة تملّكني شعور عميق بالوحدة، لم أتخلّص منه إلاّ في لحظات نادرة من عمري.

حتّى قبل أن يغيب أبي كانت أمّي القطب المسيطر علينا. تعوَّدت

ألاَّ تتدخّل بشكل مباشر في حياتنا بسبب انشغالها في توفير احتياجات الأسرة. لكنّها لم تكن تتوقّف عن العمل حتّى يوم الجمعة، فأصبحت رابضة علينا بثقل الجهد الذي تبذله في كلّ التفاصيل المتعلّقة بوجودنا. تعلَّمت منها قيمة الجهد، ولكن في الوقت نفسه طغت عليَّ بإرادتها التي لا تلين. صمتها المستمرّ خلق فيَّ جنوحًا إلى الصمت، وغضبها علّمني الخوف من عدم رضاها.

كانت تزرع في ستة قراريط من الأرض تركها لها أبي بوصفها الوصيّة عليَّ، والوريثة لجزء منها. تترك خالتي «فاطمة» لترعى شؤون البيت ولتنتظرني عندما أعود من المدرسة بعد الظهر. كنت أساعدها في تنظيف الزريبة، وفرشها بقشّ الأرز، في تغذية الدجاج يجري هنا وهناك حول البيت ليستكين آخر النهار في عشّ من الخوص، والزعف أقامه لنا خالي «عبد الرحيم». نتناول طعام الغداء معًا ثم أستذكر دروسي، ونلعب «البصرة» في انتظار عودة أمّي إلى البيت.

يوم الخميس من كلّ أسبوع أعود من المدرسة مبكرًا. تسخّن لي خالتي «فاطمة» صفيحة من الماء لأستحمّ. تدعك لي جسمي بالليفة، والصابون. أشعر بالراحة تزحف عليّ، بالتعب يتسرَّب منّي، ولكن بعد قليل ينقلب الحمّام إلى لعبة متوتّرة، خفيّة، تغرس أظافرها المدبّبة في لحمي، أو تزغزغني عندما أرفع ذراعي. أرشّها بالماء، أو أضربها بكفّي على إليتيها، فتغضب منّي. أشدّها من شعرها، فتتلوّى بين يدي لتفلت منّي. تشخط فيّ وتهدّدني بأنّها ستتركني أحمّم نفسي دون مساعدة منها، فأترك نفسي بين يديها تمرّان على جسمي وتحومان حول أجزاء بعينها قبل أن تصلا إليها. عيناها تتجنّبان النظر في عينيّ، تهربان من الاعتراف بشحنة التوتّر اللّذيذ ينتقل بيننا وينذرنا بأنّنا نمارس ما هو محرَّم

علينا. تقترب منّي، وتلتصق بي ثم بسرعة تنفصل عنّي كأنّها تتفادى المياه التي تصبّها من الكوز عليّ، كأنّها حريصة ألاّ تصل معي إلى النقطة التي لا رجوع فيها، والتي تتجاوز مجرَّد اللمسات السريعة السطحيّة.

عندما تنتهي من صبّ المياه عليَّ، أقول «يا خالتي «فاطمة» ادعكيني مرّة أخرى، وقعت على كومة من التراب ونحن نلعب بالأمس». ألمح في عينيها لهبًا صغيرًا. تضحك وتقول «أدعك فين يا إبراهيم؟» أشعر بيدها تنزلق على بطني. تتوقّف لحظة ثم تسحبها بسرعة. أقفز خارج الطشت وأشدّ بعنف على الضفيرة الطويلة التي ترقد فوق ظهرها. تضربني بكفّ يدها ضربة قويّة. أكاد أقع على الأرض فتلفّ ذراعيها حولي بالمنشفة الكبيرة قبل أن تندفع خارجة من الحمّام دافعة الباب الخشبيّ المتهالك أمامي كأنّها تهرب منّي.

كان عمرها في ذلك الوقت سبع عشرة سنة. فتاة سمراء البشرة عيناها لوزيّتان لونهما أسود، وأنف مدبّب يلتقي فوقه الحاجبان. وجه شيطان جميل فيه تحدّ. عندما تقبّلني على خدّي أشعر بالحرارة تتدفّق منها، وإذا رقدت إلى جوارها أشعر بدفئها ينتقل إليّ وأسألها «هل عندك سخونيّة؟» تضحك وتقول «لأ. في داخلي فرن صغير».

كانت متقلّبة المزاج. تنتقل في لحظة من الفرحة العارمة إلى الحزن العميق لأسباب لا تفصح عنها. لا تكفّ عن الحركة داخل البيت. فيها حيويّة تنفجر منها، تفقدها تمامًا في بعض الأيّام فألمحها وهي تقف أمام النافذة بالساعات، أو جالسة على الكنبة دون أن تتحرَّك كأنّها سارحة في شيء.

كانت أمّي تحرمها من أن تخطو خطوة واحدة خارج البيت من دون

أن تكون هي معها. تعاملها بمزيج غريب من الحنان والشدّة. تحيطها بذراعيها، وتربّت على رأسها ثم فجأة تبعدها عنها كأنّها تذكّرت شيئًا، فتندفع خالتي «فاطمة» هاربة إلى حجرتها في الطابق الأعلى، صاعدة الدرجات الضيّقة الهشّة بقفزات قويّة مثل القطّ المتوحّش.

سألت أمّي مرّة لماذا لا تذهب خالتي إلى المدرسة. كانت جالسة إلى جوارها على الكنبة، فالتفتت إليّ وضربتني بظهر يدها على فمي صارخة: «وما شأنك أنت بهذا يا ولد؟ اذهب وذاكر دروسك بدلاً من أن تدسّ أنفك فيما لا يعنيك». وبعد ذلك لم أسأل سؤالاً واحدًا يتعلّق بخالتي «فاطمة». تملّكني شعور دفين بأنّ في موضوعها سرًّا.

في أحد أيّام الخريف عادت أمّي من الغيط مبكرًا. سمعت صوت الطشت ينقلب في الحمّام، وضحكاتنا ترتفع عاليًا. فتحت الباب فوجدتنا أمامها. كنت عاريًا ملطّخًا بالصابون بينما رفعت خالتي «فاطمة» الكوز لتصبّ الماء عليّ. تسمّرت لحظة، ولمحت عينيها مثل قطعتين من الحجر تطلّان علينا من الباب المفتوح. توقّعت أن تنقضّ علينا غاضبة، لكنّها خاطبتنا بهدوء قائلة:

«أنت كبرت يا «إبراهيم»، وتستطيع أن تحمِّم نفسك. وأنت يا «فاطمة» ليس الآن وقت الكلام معك. اذهبي وعدِّي طعام العشاء. اذبحي دجاجة، واطهي الملوخيّة التي أحضرتها معي». صمتت لحظة ثم أضافت: «لكن أريد أن أقول لك منذ الآن إنّه إن ضبطتك مرّة ثانية في أيّ وضع يشبه من بعيد ما رأيته اليوم، والله لكسَّرت النبّوت على ظهرك، وأعدتك من حيث جئت».

كان خالي «عبد الرحيم» يساعد أمّي في الزراعة بعد أن فقد فدّانًا

وثلاثة قراريط، وقطيعًا صغيرًا من الأغنام، في لعب القمار عند امرأة غازية كانت تسكن عند الطرف الآخر للبلدة قرب المحطّة. كان قد تزوَّج لكن زوجته لم تنجب منه. ثم أصيبت بالشوطة (الكوليرا) وماتت.

مرَّت الأيّام، ولم يعد أبي من الحرب فانتقل خالي ليسكن معنا. صنع معجنة للطوب خلف البيت. دقّها بمرزبة استأجرها من محلٍّ لبيع المقاطف، والشقارف، والبلط، والفؤوس، يوجد منذ سنين طويلة في حارة خلف النقطة. صنع قالبين من الخشب لضرب الطوب الأخضر ثم قام برصّه في صفوف تحت الشمس إلى أن تحمّص وأصبح صلبًا يتحمّل.

يوم الجمعة كنت أقرفص إلى جواره لأتعلَّم منه صبّ الطوب الأخضر، ولأرصّه معه في صفوف متتالية. وبعد ذلك لمّا بدأ في بناء غرفة له عند الجدار الخلفيّ لحجرة أمّي، علَّمني كيف أبني. ولذلك أمكنني فيما بعد أن أعمل في مهنة البناء عدّة شهور عندما أصبحت عاطلاً بعد النكسة.

كنت أحبّ العمل معه. كان رجلاً مرحًا يغنّي المواويل بصوت حلو. ويوم أن تعدّى سنّ الأربعين استقامت حياته، ولم يعد يلعب القمار عند المرأة الغازية، أو يذهب إليها. مع ذلك كان يغيب أحيانًا يومين أو ثلاثة يعود بعدها شاحب الوجه. فإذا سألته أمّي أين كان يمطّ شفتيه الغليظتين، وينظر إلى السقف قبل أن يقول:

«ذهبت لزيارة أمّ المرحومة في «الحوامديّة»، ولم أرد أن أقول لك شيئًا حتّى لا تكلّفي نفسك». تلقي إليه بنظرة فاحصة بينما يظلّ هو شاخصًا إلى السقف، ثم يشير بإصبعه إلى أعلى ويضيف:

«هذا العرق أكل فيه السوس، وأصبح هشًّا، لا بدّ من تغييره قبل أن يسقط».

كان يقضي اليوم مع أمّي في الغيط. يعودان معًا آخر النهار، هو على ظهر الحمارة، وهي سائرة على قدميها خلفه ممسكة بالحبل تجرّ به الجاموسة. أحيانًا كان يبيت الليل في الغيط ليحرث، أو يروي، فتذهب إليه حاملة «الزوّادة» في «قفّة» على رأسها ومعها الشاي والسكّر، والبرّاد الأزرق، وباكو من الدخان المعسّل.

في بعض الليالي، عندما يكتمل القمر كنت ألحّ على أمّي لتأخذني معها. تناولني القفّة، وأركب الحمارة لأسبقها إلى الغيط حتّى تأتي هي على مهل. أرقد على ظهري فوق جوال فارغ أو كوم من القشّ، أستمع إلى كركرة الجوزة، وإلى صوتيهما يحملهما نسيم الليل الطريّ وهما يتحدّثان عن شؤون الأرض. ألمح المياه وهي تجري خطوطًا فضيّة في «الأقنية»، وضوء القمر كاللآلئ المعلّقة بين أوراق الصفصاف. أتأمّل أمّي وهي تسير بقامتها الطويلة ثم تميل لتلتقط الفأس وتسرع لسدّ فتحة أمام المياه المندفعة إلى الأرض. لم تكن مثل النساء الأخريات. لم أسمعها تزغرد أو تبكي. لم أرها تجلس مع الجيران لتثرثر أو تحكي الحكايات، أو تطلب منهم شيئًا. كانت دائمًا وحدها. لا أعرف لها أهلاً، أو أقارب، ما عدا خالي «عبد الرحيم»، وخالتي «فاطمة». لا أعرف لي جدًّا، أو جدّة. كلّ الأولاد في المدرسة لهم أهل يتحدّثون عنهم، ما عداي. إذا جاءت السيرة ألوذ بالصمت، وعندما أعود إلى البيت لا أجرؤ على سؤالها... أحبّها، لكنّي أضيق بالصرامة التي تظهرها نحوي. أتمنّى أن أكبر بسرعة

لأنطلق إلى العالم خارج البيت، بعيدًا عن المساحة المغلقة التي أتحرَّك فيها، وعن هذه الأسرة الصغيرة يلفّها الصمت. وتقضي أيّامها في العمل، أو النوم، لتتغلّب به على تعب الجهد.

كانت الأرض والزراعة مصدر رزقها، ولكنّهما كانا أيضًا مصدر الاستعباد الذي تعاني منه. أتذكّر أنّها في إحدى الأمسيات توقّفت فجأة عن تطريز الرقعة التي وضعتها على ركبة البنطال الذي تمزّق منّي. كنت جالسًا على الطبليّة أكتب بيتًا من الشعر في الكرّاسة المفتوحة أمامي. كانت كلماته معقّدة لم أفهمها، ولكن كان مطلوبًا منّي أن أعربها. أحسست بعينيها تسمّرتا عليّ، فرفعت رأسي. لمحت فيهما نظرة غريبة لم أعهدها، شيئًا كالحنان، أو ربّما الحبّ. ظلَّت صامتة كأنّها سرحت، ثم قالت:

«لا . . . لن تكون فلاّحًا تغرس قدميك في الطين، أو تموت من المرض، أو في «الحرب»». ثم بسطت يديها الكبيرتين المعروقتين، وأضافت «هاتان اليدان كفيلتان بتوفير ما قد تحتاج إليه لتنال فرصتك في التعليم». ثم أمسكت بالبنطال وغرست الإبرة في نسيجها.

لماذا لم تعبِّر أمّي عن حبِّها لي. هذا شيء لم أستطع أن أفهمه. كأنّها أقامت حول نفسها درعًا تحميها من أخطار تهدّدها، لكن هذه الكلمات القليلة التي نطقت بها في تلك الليلة ظلّت معي. ربّما لذلك سعيت طوال سنين الدراسة إلى التفوّق، ليصبح ترتيبي سنة وراء سنة الأوّل في الفصل.

أتذكّر أيضًا أنّه في إحدى الليالي هبطت من غرفتي في الدور الأعلى لأجد أمّي جالسة قرب الطبليّة تنقّي الأرز من الحصى والقشّ

وتضعه في زكيبة إلى جوارها. على الكنبة استقرّت إحدى جاراتنا. تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي جاء بها فلم تكن تزورنا إلاّ في عيد الفطر حاملة معها طبقًا من الكحك مربوطًا في «صرّة». سمعتها وهي تقول لأمّي:

«هل ستبقين هكذا وحدك حتّى نهاية العمر. الرجل مستعدّ للزواج منك رغم كلّ ما حدث من قبل».

أصبح وجه أمّي جامدًا، وأطلّت من عينيها تلك النظرة الغاضبة المنذرة بشيء. قالت في صوت يرتعش قليلاً:

«يا امرأة اخرجي من هذا البيت فوراً. لا أريد أن أراك هنا مرّة أخرى. أين كان عندما ولدت. . .؟»

وفي هذه اللحظة لمحتني. لم تكمل كلامها. قامت من على الطبليّة وفتحت الباب فهرولت المرأة البدينة خارجة منه، وهي تلفّ الطرحة حول رأسها، وتحكمها، وتلقي بنظرة خائفة ناحيتها.

مرّة كل شهر كانت تذهب أمّي إلى مكتب في الجيزة لتصرف المعاش الشهريّ الذي تقرّر لها بوصفها أرملة شهيد. ما عدا ذلك لم تكن تخرج إلاّ للذهاب إلى الغيط، أو إلى السوق لبيع الخضر التي أصبحت تزرعها في القراريط الستة أو زادت إلى سبعة ثم ثمانية بفضل الجهد الذي كانت تبذله هي وخالي «عبد الرحيم». تحسّنت ظروفنا الماليّة وأصبحنا نذبح البطّ والدجاج مرّة في الأسبوع ونأكل اللحم من سوق «البدرشين» يوم الخميس. ظهر اللبن، والبيض على طبليّتنا في الفطور، وتورّدت خدود خالتي «فاطمة»، وامتلأ عودها. أمّا أمّي فظلّت كما هي نحيلة، لكن ضاع الشحوب الذي كنت ألمحه على وجهها

عندما تعود آخر النهار بعد يوم من العمل الطويل. في أحد الأيّام عندما ذهبت إلى مكتب الجيزة أخذتني معها. وبعد أن استلمنا المعاش توجّهنا إلى محلّ «عمر أفندي» وابتاعت لي بنطالاً وقميصين، ثم ابتاعت لنفسها جلبابًا مطرّزًا بزهور صغيرة حول فتحة العنق. ولمّا وصلنا إلى البيت أخذت حمّامًا، وبعد قليل خرجت من غرفتها وقد ارتدت الجلباب الجديد، ورفعت المنديل تاركة شعرها يهبط على ظهرها في أمواج غزيرة، كأنّها تحتفل بمناسبة لا نعرف عنها شيئًا.

تملّكني إحساس بالدهشة. بدت لي امرأة مختلفة. اكتشفت لأوّل مرّة كم هي جميلة. تمنّيت أن تأخذني بين ذراعيها، وتضمّني إليها. أن ينكسر الحاجز القائم بينها وبيني. أن أندفع أنا لألقي بنفسي بين ذراعيها. لكنّي ظللت أنظر إليها في صمت فاقد القدرة على الحركة أو النطق.

مع ذلك، في تلك الفترة أخذت تظهر نحوي قليلاً من العطف. أصبحت تعطيني مصروفًا إضافيًا كنت أنفق أغلبه في شراء أقلام، وورق للرسم. عندما تراني منكبًا على تصميم بعض الأشكال، وتلوينها، تقترب منّي لتشاهد ما أفعله. ألتقط في عينيها نظرة لم أرها من قبل، شيئًا كالحنان الممتزج بالحيرة كأنّها تكتشف في نفسها إحساسًا لم تألفه. لكن ظلّت لحظات السعادة في حياتي قليلة، لا تخلو من إحساس بالقلق، كأنّ الأرض تتأرجح تحت قدميّ. هل كان السبب غياب الأب وأنا لا أزال صغير السنّ، أم علاقتي الغريبة مع أمّي، تبدو لي أحيانًا وكأنّها لغز عجزنا عن تحليله؟

هكذا تقاربنا أنا وخالتي «فاطمة». كان كلّ منّا يبحث عن الآخر،

عن شيء من الدفء. نجلس آخر النهار على عتبة البيت نتلقّى النسيم الذي يهبّ مع سقوط الشمس. نتطلّع إلى مساحات البرسيم، أو الفول الأخضر، نشاهد مواكب الفلاّحين يعودون بدوابهم. تنتظرني عندما أعود من المدرسة بعد الظهر. ألقي بحقيبتي على الأرض قرب الباب، وأندفع إلى الدور العلويّ حيث تجلس أو أجدها عند الفرن، فألتقط من بين يديها رغيفًا ساخنًا من الخبز المصنوع من الذرة، والقمح، أو نجلس على الطبليّة لنأكل وجبة من المش والطماطم، ومخلّل اللّفت، ثم نشرب الشاي ونلعب «البصرة» وطوال الوقت لا نكفّ عن الثرثرة والحكي، أو نمارس لعبة حمّام الخميس إلى أن أوقفتها أمّي.

عندما قارب سنّي على عشر سنوات أخرجتني أمّي من سريرها. خصّصت لي حجرة صغيرة في الدور العلويّ كانت تضع فيها بعض الأشياء القديمة التي تخلّصت منها بالتدريج حتّى تصبح خالية. وضعت فيه سريرًا من الخشب، ومنضدة صنعها الأسطى «محمّد النجّار» الذي هاجر مع أسرته من السويس في حرب ١٩٥٦ . واستغنى خالي «عبد الرحيم» عن مقعد قديم قال إنّه لم يجلس عليه أبدًا، لأنّه لا يدخل في غرفته إلاّ ساعة النوم، أو ليغيّر ملابسه التي عاد بها من الحقل. فرشت حصيرة جديدة على الأرض، ووضعت القلّة في شبّاك صغير يطلّ على الحوش الخلفيّ، ودقّت مسمارين في الجدار بيد الهون لتعلّق عليها الشمّاعة. ولم تنس أن تضع لي ستارة ملوّنة من بعض القصاقيص لتحلّ محلّ الجوال القديم الذي كان مثبّتاً على الشبّاك.

كانت غرفة خالتي «فاطمة» ملاصقة للغرفة التي انتقلت إليها. بعد أن نتناول طعام العشاء، ونشرب الشاي كانت أمّي تدخل إلى غرفتها

لتنام. أمّا خالي «عبد الرحيم» فكان يجلس في القاعة قليلاً ليدخّن كرسيًّا أو كرسيّين من الدخان قبل أن ينسحب هو أيضًا ليرقد في سريره ويغطّ في النوم. لكن أحيانًا كان يخرج من البيت ليجلس في مقهى قريب منّا، أو ليختفي في إحدى زياراته الغامضة لأهل المرحومة «ياسمين» التي ماتت، وتركته.

أمّا أنا وخالتي «فاطمة» فكنّا نصعد إلى الدور العلويّ. هي أوّلاً وأنا بعد أن أنتهي من إعداد حقيبة المدرسة لحصص الغد ممّا كان يتطلّب أن أخرج منها بعض الكتب والكراريس، وأضع أخرى مكانها. وحيث أنّ صغار السنّ لا يجيئهم النوم بسهولة خصوصًا إذا غابوا عن رقابة من هم أكبر منهم، أصبحنا نقضي جزءًا من الليل في الثرثرة والحكايات، أو في لعب «البصرة» إلى أن يضغط ثقل الرغبة في النوم على جفوننا.

كانت حجرة خالتي «فاطمة» أكبر قليلاً من غرفتي. فيها سرير من الخشب، ودولاب بضلفتين، وصندوق مزركش بمسامير من النحاس لها رؤوس عريضة تضع فيها الملابس التي لا ترتديها إلاّ نادرًا، أو التي صغرت عليها. أمّا الدولاب فقسمناه بيننا، وقامت خالتي فاطمة بترتيب ملابسي في النصف الذي أصبح يخصّني. تعوّدت أن أضع الأشياء فوق بعضها. وكانت تعيد ترتيبها وتستخرج منها ما يحتاج إلى الغسيل.

بين الدور الأرضيّ والسطح، كان يوجد سلّم مبنيّ بالطين والطوب الأخضر، له درابزين من الخشب، كنّا نحتاط من الاستناد إليه بعد أن ضعف وأصبح يهتزّ. لذلك كانت أمّي تتفادى الصعود إلاّ عندما تضع بلاصًا من السمن، أو المخلّلات على السطح أو تقوم بتخزين قشّ الذرة أو الحطب. لذلك أصبح الدور العلويّ مملكتنا أنا وخالتي

فاطمة لا يشاركنا فيه أحد. نطلّ منه على الحقول التي تحيط بالبيت. نسهر فيه في الليل حتّى ساعة متأخّرة جالسين، أو راقدين على السرير في غرفتي أو غرفتها، فإذا غلبنا النوم ننام متجاورين عليه.

كان بيتنا على الأطراف البعيدة للمدينة. وبيننا وبين البيوت الأخرى قطعة أرض واسعة مملوكة لأحد تجّار الغلال. أقام الرجل سورًا حولها تمهيدًا لتقسيمها إلى قطع صغيرة يسهل بيعها. فالبلدة كانت تتّسع بسرعة، وأسعار الأرض الصالحة للبناء كانت ترتفع. لذلك لم يكن بيننا وبين الجيران ذلك الالتصاق المعهود الذي يشجّع على التداخل. ولم تكن الفرصة مؤاتية لكي أشارك الأولاد لعبهم إلاّ عندما كانوا يتجمّعون في قطعة الأرض الفضاء يوم الخميس والجمعة، ليلعبوا الكرة أو «عسكر وحراميّة»، أو «الاستغماية»، أو ألعابًا أخرى كانوا يبتكرونها. وفي أغلب الأحيان كانت أوامر أمّي تحول بيني وبينهم، وكأنّها لسبب ما تسعى إلى إبعادنا عن كل احتكاك بالآخرين.

حتّى في المدرسة كنت أعاني من الوحدة لأنّني تعوّدت الصَّمت، والركون إلى العزلة، بينما الأولاد جميعًا كانوا لا يكفّون عن التجوّل في البلدة، أو الجري وسط الغيطان، أو السباحة والغطس في الترعة، أو سرقة كيزان الذرة، أو قرون الفول «الحيراتي». أمّا أنا فلم أجرؤ على مشاركتهم في هذه المغامرات رغم الضغوط التي مارسوها عليّ، ورغم استعداد خالتي فاطمة للتستّر عليّ. كنت أخشى أن تعود أمّي مبكرًا فتكتشف أنّني لست في البيت. وكانت خالتي فاطمة تسخر منّي وتقول:

«أنت يا «إبراهيم» بتخاف من خيالك». فأشعر بالضيق، وأنفجر فيها قائلاً: «غدًا سترين. سأظلّ أتفوّق على الآخرين. يسرقون كيزان الذرة، والفول الحيراتي، ويربّون الديدان الشريطيّة في أمعائهم. أمّا

أنا فسأصبح رجلاً غنيًا. ستكون عندي نقود كثيرة، وأشتري لك ملابس جميلة وحلى. سأركب سيّارة ويكون تحت تصرّفي خدم يلبّون كلّ ما أريده». فتنظر إليّ باندهاش وتقول: «من أين جاءتك هذه الأفكار يا «إبراهيم»». أصمت لحظة قبل أن أجيب: «أنا أفكّر في أشياء كثيرة، لا أريد أن أظلّ محاطًا بالفقر والكآبة».

كانت خالتي «فاطمة» تعاني هي أيضًا من الوحدة التي نعيشها. فهي لا تخرج من البيت إلاّ عندما تصطحبها أمّي إلى السوق لتحمل معها الخضروات التي أصبحت تزرعها، وتبيعها. لا تذهب إلى الترعة مثل البنات الأخريات لتملأ صفيحة، أو «بلاصًا»، بالمياه التي نحتاج إليها ولا تختلط بأحد. فأمّي كانت حريصة على منعها من لقاء النساء الأخريات. تقول عنهنّ «ليس فيهنّ إلاّ ألسنة تلدغ كالثعابين»، لذلك كانت تستيقظ هي في الفجر لتذهب إلى الترعة وتملأ بلاصًا أو اثنين. فالترعة كانت قريبة «على بُعد خطوتين»، والذهاب إليها كان مسألة سهلة يمكن أن تتمّ في أيّ وقت نحتاج فيه إلى المياه للغسيل، أو لملء الزير.

كانت أمّي تتصرّف كأنّها تحمي خالتي «فاطمة» من شيء. فزاد الغموض الذي أحسست أنّه يحيط بها. وظلّت التساؤلات تتردّد في ذهني من دون أن أجد لها إجابة تريحني.

(٢)

سنة ١٩٥١ انتقل إلى السنة السادسة الابتدائيّة. كانت سنّه إذ ذاك إحدى عشرة. عيناه الواسعتان لونهما بنّي مثل عينيّ أمّه. ملامحه حادّة، لكن فيها رقّة أنثويّة تضفي عليه جاذبيّة من نوع خاصّ. كان صبيًّا حزينًا، صامتاً لا يتحدَّث إلى الآخرين إلاّ نادراً. طوال سنين الدراسة ظلَّ متفوّقًا يثير نوعًا من الحنق والغيرة بين أقرانه. لذلك زادت محاولات التحرّش به من قبلهم تشجّعهم على ذلك تلك الرقّة الأنثويّة، والوسامة، اللتان تميّز بهما في وسط تعتبر فيه القسوة والغلظة دليل الذكورة.

كان من بينهم ابن العمدة. صبيّ طويل القامة والذراعين. عيناه صغيرتان وأنفه أفطس. كان يحاصره في دورة المياه، ويحاول أن يخلع له بنطاله. يتحسَّس أردافه، ويحتضنه بعنف ضاغطًا عليه بجسمه، أو يعتدي عليه بالضرب أثناء الفسحة في الحوش لأتفه الأسباب كوسيلة لإخضاعه. فظلَّ يتحاشاه على قدر الإمكان. كان يخشى من مواجهته، أو الشكوى من تصرّفاته، مدركًا أنّه قد يجلب لنفسه متاعب أكثر من تلك التي يلقاها منه.

في أحد أيّام شهر اكتوبر سنة ١٩٥٠ خرج طلبة المدرسة الثانويّة في مظاهرة ضدّ الاحتلال الإنكليزي. طافت حول البلدة فتضخّم أعداد المنضمين إليها، وعندما وصلت أمام باب المدرسة اندفع

التلاميذ من الفصول إلى الحوش. كسروا الباب الحديديّ وخرجوا إلى الشارع لينضمّوا إليها. حاول أن يهرب منها لكن ابن العمدة كان له بالمرصاد. أطبق عليه وهو يبتعد عنها في إحدى الحواري وأخذ يركله، ويضربه بمساعدة تلميذين آخرين صارخًا فيه: «أنت جبان، وخائن». استمرّوا في ضربه إلى أن سالت الدماء من جرح عميق في وجهه. عاد إلى البيت متأخّرًا وحول وجهه شال من القطن ربطه له صاحب ورشة نجارة تدخّل لفضّ الاشتباك، فانهال على المعتدين برجل منضدة حتّى فرّوا هاربين.

عندما رأته أمّه بدا عليها الانزعاج الشديد، لكن سرعان ما تمالكت نفسها وغسلت جرحه بالماء الساخن والملح، ووضعت عليه ضمّادة ربطتها بقوّة حتّى توقف النزيف. قالت له:

«يجب أن تتعلَّم كيف تدافع عن نفسك».

أحسّ بالمرارة تزحف في أعماقه وتنمو مثل الأعشاب السود في قاع البحر. التأم الجرح، لكنّه ترك ندبة في خدّه الأيمن كانت صغيرة تكاد لا ترى.. لكن بدا له أنّها تلفت نظر الناس. عندما يقف أمام المرآة يظلّ يتأمّلها طويلاً، فيشعر بالأعشاب السود تتحرَّك في جوفه. وفي الفصل تبحث أصابعه عن الندبة وتضغط عليها كأنّه يريد أن يمحوها. في داخله تنمو رغبة في الانتقام تغذّيها كلّ مظاهر القهر الواقعة عليه والصمت الذي يقابلها به. رغبة في أن يصعد فوق الآخرين خطوة بعد خطوة.

بعد هذه الحادثة بأسبوع أو أكثر صعد السلالم بعد العشاء ليجد خالته فاطمة جالسة على سريرها. كانت قد فكّت المنديل من حول

رأسها، وتركت خصلات شعرها الغزير ينسدل على كتفيها، ويشعّ من أعماقه الكستنائيّة ذلك الإشعاع الأحمر الذي يحتار في تفسيره. جلس على المقعد أمامها. استنشق رائحة الصابون تفوح من جسمها. أحسّ بريقه يجفّ، ورعشة في يديه. ظلّ ينظر إلى قدميها دون أن يرفع عينيه. ثم فجأة قام من جلسته وهبط على السلّم. فتح باب البيت، وجلس على قطعة من الحجر يحملق في ظلام الليل.

في صباح اليوم التالي استيقظ من النوم ليجدها واقفة أمامه، وفي يدها كوب من اللبن تجمَّعت فوق سطحه الفقاقيع. غمرته موجة من السعادة. سمعها وهي تقول في صوت هامس:

«استيقظت مبكرًا. كان يومي مضطربًا هذه الليلة فهبطت إلى الزريبة لأحلب الجاموسة، وجئت إليك بكوب من اللبن حلبته مباشرة من ضرعها المغسول».

رفع جسمه واستند إلى ظهر السرير. تناول منها كوب اللبن. سألها:

«يبدو أنّني تأخّرت عن ميعاد المدرسة. كم الساعة الآن؟»

لاحظ أنّ صوته انتابته تغييرات غريبة. في لحظة يصبح مبحوحًا غليظًا، وفي لحظة أخرى تصبح نبراته رفيعة. فأضاف:

«صوتي أصابه شيء. ربّما انزاح عنّي الغطاء فأخذت بردًا أثناء الليل».

قالت وهي تضحك:

«لا ليس بردًا. إنّه شيء آخر يحدث للأولاد حين يكبرون. الشَّعر نما على جسمك وستكون رجلاً عن قريب».

وضعت يدها على كتفه وأضافت: «يا الله. قم بسرعة. تستطيع أن تصل إلى المدرسة في الميعاد».

لم تكن أمامه فسحة من الوقت ليكمل معها الحديث. ارتدى ملابسه، وغسل وجهه قبل أن ينطلق إلى الشارع بأقصى سرعته.

كان البرد في تلك السنة قارسًا. وتردّدت إشاعات حول وجود ذئاب تحوم حول أطراف «البدرشين». قال بعض الناس إنّهم سمعوا أصواتًا تشبه عواء الذئاب تقترب من البيوت، وإنّ هذه الأصوات تتردّد بالذات عندما يصعد القمر في السماء، ويكتمل نموّه.

إلى جواره كان يجلس تلميذ اسمه عمر ابن صاحب مكتبة تبيع الكراريس والأقلام، وبعض الكتب التي يحتاج إليها تلاميذ المدارس. كان ضئيل الجسم، قصير القامة، توقّف نموّه بسبب مرض أصابه في الطفولة. كان يغيب أحيانًا بسبب حالته الصحيّة فيستعير منه كراريس الدروس. وفي مقابل ذلك كان الولد يهديه أقلامًا ملوّنة، وبرّايات، وأساتيك يأتي بها من محلّ أبيه. فنشأت بينهما صداقة، وأصبحا يجلسان أثناء الفسحة على دكّة في الشمس، يتحدّثان في هدوء، ومن حولهما الأولاد يلعبون، ويتشاجرون، وترتفع أصواتهم بالصياح.

كان صديقه يغيب بضعة أيّام وأحيانًا أسبوعًا، على الأخصّ في الشتاء نتيجة النزلات الشعبيّة التي كانت تصيبه. يحضر إلى المدرسة أكثر نحافة ممّا كان. كانت بشرته بيضاء من ذلك النوع الشفّاف الذي يشبه الرخام. وكانت عيناه جميلتين. سوادهما عميق، محاط برموش طويلة تلتفّان قليلاً عند الأطراف. وكان إبراهيم يرتاح إليه، ويعشق الجلوس معه ليسمع منه الحكايات التي كان يقصّها عليه. فمنذ سنٍّ مبكّرة أصبح

يقرأ بشغف كلّ ما يقع تحت يديه، لأنّه كان عاجزًا عن مشاركة الأطفال في الجري، والقفز، ولعب الكرة، وركوب الدرّاجات.

لكن في هذه الفترة ظلَّ عمر غائبًا عن الفصل أكثر من عشرة أيّام. أراد أن يسأل أحد أقربائه في الفصل. في تلك اللحظة بدأ مدرِّس العربي في جمع كراريس الواجب، وبعدها مباشرة طلب منه أن يعرب بيتًا من الشِّعر: «وما نيل المطالب بالتمنّي... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا». فقام إلى الصبّورة.

أثناء الفسحة، وهو جالس على الدكّة في الشمس، وقف إلى جواره أحد التلاميذ الذين شاركوا في الاعتداء عليه يوم أن حاول الهروب من المظاهرة، فتوجّس. ولكن الولد سأله بأسلوب فيه تودّد كأنّه يريد أن يصلح ما بينهما من خصام:

«أسمعت يا «إبراهيم» ما حدث للولد عمر؟»

قال:

«لا، لم أسمع شيئًا».

«انقضّت عليه الذئاب وهو عائد في الليل من الغيط على الحمارة، فألقت به على الأرض، وكادت أن تفترسه لولا بعض الفلاّحين كانوا يعزقون الأرض فسمعوا استغاثاته. إنّه الآن في المستشفى وسنقوم بزيارته. ألا تريد أن تأتي معنا؟»

«سأحاول. لكن أمّي ربّما منعتني».

«أمّك... أمّك... إلى متى ستبقى راقدًا في حضنها».

خطر في باله أن يقول، ليتني كنت راقدًا في حضن أمّي، لكنّه صمت، وظلّ جالسًا على الدكّة، وقد غمره الحزن إلى أن رنّ الجرس

فصعد إلى الفصل.

عاد إلى البيت يجرّ قدميه. صعد إلى غرفته ورقد على وجهه فوق السرير. سمع خالته «فاطمة»، وهي تصعد من الحمّام، وتدخل في غرفتها. لم تنادِ عليه كما كانت تفعل دائمًا عندما تسمع خطواته، فزاد الحزن في قلبه. لا أحد في هذه الدنيا يسأل عنه، وصديقه عمر في المستشفى بعد أن نهشته الذئاب. ربّما لن يراه بعد اليوم. أحسّ كأنّ روحه تنسحب منه، إنّه يسقط في بئر عميقة يفقد فيها وعيه، ولم يفق إلاّ عندما سمع صوت خالته «فاطمة» تنادي عليه. فتح عينيه ليجد نفسه راقدًا على السرير فوق بطنه، فانقلب على ظهره. كانت الدنيا غارقة في الظلام ما عدا ضوء خافت يأتيه من الحجرة المجاورة.

سمعها تنادي عليه مرّة ثانية، فقام من رقدته وتوجّه إليها. كانت جالسة على السرير تمشّط شعرها بحركة بطيئة، وتنظر أمامها كأنّها سارحة. لمح صدرها يعلو ويهبط تحت القميص وخصلات شعرها يتموّج فيها البريق. عندما دخل من الباب ألقت بالمشط جانبًا ثم هبطت بجسمها على السرير، وأغلقت جفونها كأنّها اطمأنّت عندما رأته، فاستعدّت للنوم. اقترب منها وفجأة جثم على ركبتيه ودفن وجهه في شعرها، ثم أخذ يبكي بكاءً صامتًا، متّصلاً.

تركته يبكي، لم تسأله عن شيء، رفعته ليرقد إلى جوارها. لفّت ذراعيها حوله، وأسندت رأسه إلى صدرها كأنّه طفل. أخذت تربّت عليه إلى أن توقّف عن البكاء لكنّه ظلّ يدفن وجهه في شعرها كأنّه يهرب من مواجهة شيء، ثم أخذت أنفاسه تنتظم، وتتعمّق بالتدريج.

لم يستيقظ طوال الليل. أطفأت النور لكن ظلّت مفتوحة العينين.

بين الحين والحين تسمعه يئنّ أو يغمغم بكلمات غير مفهومة. لفّت ذراعها الأخرى حوله، وقرّبته إليها. اختلطت أنفاسهما وقبل الفجر سقطت في نوم عميق.

لم يعد صديقه عمر إلى المدرسة. قالوا إنّه مات. إنَّ وفدًا من التلاميذ ذهب للتعزية، وساهم في حمل النعش والصلاة على الفقيد في الجامع. في الليل كان يظلّ مستيقظًا يفكّر في صديقه ويرهف أذنيه لعلّه يسمع صوت الذئاب. مرّت الليالي دون أن يسمع سوى نباح الكلاب في الأرض الفضاء عندما يمرّ أحد الفلاّحين تأخّر في غيطه، أو صرير السست في الغرفة المجاورة يأتيه من الباب المفتوح عندما تتقلّب خالته على السرير. ظلّ يكتم في نفسه إحساسه بالحزن. خطر في باله أن يحكي لها ما جرى لصديقه، لكن شيئًا ما كان يحول بينه وبين الذهاب إليها، كما تعوّد أن يفعل بعد أن ينام الآخرون في البيت.

في ليلة شديدة البرودة صعد فيها القمر في السماء، وألقى بنوره الساحر على كلّ شيء، أخلد إلى النوم مبكرًا ليستدفئ تحت اللحاف السميك. فتح عينيه على شعاع أبيض تسلّل من فجوة في الشبّاك الخشبيّ. حاول أن ينام من جديد لكن يقظة غريبة استولت عليه، كأنّ هناك خطرًا يتحرّك في الظلام، ويستعدّ للانقضاض عليه. انقلب على جانبه وغطّى رأسه باللحاف، وفي تلك اللحظة انطلق صوت أصابه بالرعب. عواء متّصل طويل جعل دماءه تتجمّد في عروقه كأنّ البرد القارس تسلَّل إليه من تحت اللحاف الملفوف حول جسمه. رقد حيث هو من دون حركة. سمع صوت خالته «فاطمة»، تسلّل إليه الخوف، ينادي عليه:

«يا «إبراهيم»، يا «إبراهيم» أنت صاحٍ؟»

علا العواء المفزع من جديد كأنّ الذئاب تحوم على مقربة من البيت.

تخيّلها وهي تحاول القفز إلى أعلى لتدخل من النافذة إليه. قال له ابن العمدة إنّ الذئاب تهاجم ضحاياها في الأماكن المعزولة لأنّها تخشى المجاميع، وأنّها عندما يصيبها الجوع لا تتردّد في الانقضاض حتّى على الآدميّين. تصوّر ابن العمدة وهو يجري مع الذئاب في ظلام الليل ليدلّهم على البيت الذي يسكن هو فيه. ثم جاءه صوت خالته «فاطمة» فيه صرخة استغاثة:

«أنا خائفة يا «إبراهيم»، لا تتركني وحدي، ما هذا العواء الفظيع؟»

تسلّل بسرعة من تحت اللحاف، ليذهب إليها فاصطدمت ركبته بركن السرير. وتمزّق جلبابه فتبدّد الخوف الذي أحسّ به.

جذبته من يده عندما وصل إليها ولفّت ذراعيها حوله، وهي تهمس:

«أنا خائفة».

صدر العواء مرّة أخرى طويلاً ممتدًّا ثم توقّف، فبدا وكأنّ الصمت الكامل ينذر بشيء. شدّته إليها، ودفنت وجهها في صدره كأنّها بذلك يمكن أن تهرب من الخطر المحدّق في الليل، أن تتلاشى فلا يجد سبيله إليها. ثم رفعت نفسها لتسند رأسها على كتفه فبرز ثديها من بين أزرار القميص. أحسّ بملمسه الناعم الدافئ قرب شفتيه. تراجعت بسرعة مبعدة بينه وبينها. ظلّت دون حركة كأنّها تحاول أن تلتقط أيّ صوت يأتي من خارج البيت. أخذت نفسًا عميقًا وجذبته إلى صدرها من جديد. وأخذت تربت بيدها على وجهه كأنّها تقوده إلى الحلمة البارزة فوق ثديها. أحسّ بها تصلب بالتدريج. قبّلته قبلة صغيرة مخطوفة على أنفه، وتململت كأنّها تبحث عن وضع مريح فالتصق جسمها بجسمه.

مدَّت يدها تحت الغطاء، ورفعت جلبابه. أحسّ ببطنها العاري يضغط عليه، بأنفاسها قرب وجهه. لفّت ساقيها حوله، وأخذت تقترب منه، وتبتعد عنه بحركة بطيئة ثم شدّته إليها بعنف وشهقت «حبيبي». ظلّت ساكنة دون أن تفكّ ذراعيها من حوله. لمح عينيها تبرقان في شعاع من القمر اخترق الستائر كأنّ يدًا أزاحتها ليدخل إليهما.

*

بعد تلك الليلة تعوّدا أن يناما معًا في سرير واحد. لكن أصبح كلّ منهما يتفادى الآخر أثناء النهار، كأنّ من يراهما معًا لا بدّ أن يكتشف أيّ شيء. بعد العشاء مباشرة تأوي أمّه إلى فراشها، وكذلك خاله «عبد الرحيم». كانا ينتظران اللحظة التي يغرق فيها البيت في السكون قبل أن ينتقل أحدهما إلى الآخر. تهمس له «سأجيء إليك اللّيلة بعد أن تستذكر دروسك»، فيتبعها وهي تبتعد عنه رافعة رأسها فوق العنق الطويل، يلمح الضفيرة تتراقص فوق ظهرها مع خطواتها السريعة تكاد لا تلمس الأرض. قلبه يدقّ مع دبّة قدميها الحافيتين على أرض حجرتها. يشعر بها كالطيف تحلّق في كلّ مكان، كالروح لا يراها ولكن وجودها يبثّ فيه اضطرابًا لذيذًا، وسعادة، يعرف أنّه إذا نادى عليها ستستجيب في الحال. يؤجّل اللّقاء حتّى يصبح وجودها ملكًا له دون سواه.

أصبحت هذه العلاقة ملاذه، وملاذها، في دنيا لا شيء فيها يبعث على البهجة. لم يكن يريد أحدهما من الآخر سوى الحنان. سوى ليالٍ متوالية يقضيانها معًا في عالم بدا وكأنّه من صنع الخيال، أو في اللّمسات المتعثّرة الخارقة يرتشفان أثناءها سرّ الحبّ يمارس لذّاته، سرّ اللّذّة المتفجّرة في الأجسام يشبعان بها رغبة طبيعيّة في الحياة لم

تفسدها القيود، أو رغبة في التسلّط، أو بحث عن المال. كانا كالعصفورين في عشّ واحد يطير كلّ منهما في اتّجاه، ويعودان آخر النهار ليقضيا فيه ساعات الليل، يتهامسان، ويتبادلان العناق والدنيا من حولهما صامتة.

اختفى عواء الذئاب. ربّما كان محض خيال اخترعته حاجتهما إليه. صنعته الرغبة الملحّة إلى التصاق الجسمين، إلى تبديد الوحدة التي تجعل الإنسان يبحث عن وليف ليكتشف أنّ الوحدة مصير. وعندما أصبحا عشيقين، بدلاً من سماع ذلك العواء الفظيع أصبحا يسمعان نداء الكروان، يتردّد عندما يصعد القمر في سماء الليل، أو عندما يزحف ضوء القمر في الأفق البعيد، فيقفان أمام النافذة المفتوحة ويشهدان ولادة النهار الجديد أو يتوقّفان عن الهمس ليستمعا إلى الصوت الوحيد.

فتح كلّ منهما قلبه للآخر. قالت إنّها كانت تودّ أن تذهب مثله إلى المدرسة. أن تتعلَّم القراءة والكتابة وتفلت من سجن الجدران. أن تسافر إلى بلاد بعيدة على متن سفينة تشبه السفن التي رأتها مرسومة في المجلاَّت. أن تمشي بقدميها الحافيتين في مياه البحر الزرقاء، وأن ترحل محمولة فوق الأمواج.

ينظر إليها بعينين فيهما رجاء، ويقول:

«عندما أكبر سأتزوّجك يا خالتي «فاطمة»، ونرحل معًا إلى أبعد الأقطار».

تضحك ضحكة يشوبها الأسى وتقول:

«المرأة لا تستطيع أن تتزوّج ابن اختها، والرجل لا يستطيع أن يقترن بخالته. فهذا حرام. يحبّان بعضهما في السرِّ حتّى لا ينكشف

حبّهما، وإلاّ عوقبا بأشدّ أنواع العقاب».

سألها:

«ما هو العقاب؟»

فقالت وهي ترتجف:

«يرجمان بالحجر حتّى الموت أمام الناس. أو يتم كيّهما بالنار على كلّ أجزاء الجسم وعلى الأخصّ ما تحت السروال».

شعر كأنّ شيئًا يسحبه إلى بئر عميقة، بالعرق البارد ينزّ من كلّ المسام، فعاد يبحث عن رعشة الشبق في شفتيها، عن الفجوة بين ثدييها، حيث يرقد العقد الذي ترتديه تلمع أحجاره السود في أضواء الليل، فكّت خلف أزرار قميصها وخلعته ثم ضمّته إليها. دفن نفسه في العنق الطويل، في اللذّة تتصاعد مع الحركة البطيئة اللاهثة للجسمين، سافر بعيدًا فوق أمواج النشوة والدفء الأسمر الجميل، ولأوّل مرّة شهق «أحبّك».

في بعض الليالي عندما يجيء إليها تهمس «يمكن أن نتحدّث أو نلعب الكوتشينة»، ولكن بعد ذلك الأفضل أن ينام كلٌّ منّا في سريره. يلحّ عليها حتّى تقبل أن يرقد إلى جوارها، أن يحتضنها كما يفعل عندما ينام الآخرون. تنهره في توتّر. تقول عندي «العادة الشهريّة». فإذا استفسر ما الذي تعنيه «العادة الشهريّة» تجيب «إنّها وعكة تصيب المرأة كلّ شهر لمدّة أيّام» يحسّ بالإشفاق عليها، وفي الوقت نفسه بالضيق لأنّه سيحرم من جسمها الجميل. يسألها: «أتريدين أن أحضر لك دواء من الصيدليّة؟» فتقول: «لا. الوعكة ستزول دون أن آخذ لها شيئًا».

أحيانًا، كان يذهب مع أمّه إلى «سوق البدرشين». كانت خالته

«فاطمة» تأتي معهما دائمًا لتساعدها في عمليّات البيع. يشعر بالسعادة لأنّها معهما وكأنّهم ذاهبون إلى المولد، أو إلى فرح يبدِّد رتابة الحياة اليوميّة. يمشّط شعره بعناية، ويرتدي قميصًا مغسولاً، ويحمل معه بعض القروش ادّخرها من مصروفه القليل.

كان الناس يتزاحمون حولهم عندما يصلون إلى السوق. فقد اشتهرت أمّه بجودة الخضروات التي تبيعها. كانت تغسلها جيّدًا، وترصّها بطريقة جميلة. فتجتذب ألوانها عيون المشترين. كانت خالته «فاطمة» مليئة بالحيويّة في هذه الأيّام. تتبادل حديثاً ضاحكًا مع الرجال والنساء أثناء البيع، وتتركهم يختارون ما يريدونه، فهي واثقة أنّه لن يبقى شيء قبل أن ينصرفوا عائدين إلى البيت. كان يشعر أنّها سعيدة، مليئة بالبهجة وهي واقفة وسط الناس في السوق. مركز جذب للجميع، محاطة بالودّ، والتقدير، بعيون الشباب يتطلّعون إليها. أسنانها البيض تومض في الوجه الأسمر المنحوت. تتبادل معه نظرات خاطفة، وهي تميل لملء الكيس بحبّات الطماطم الحمراء، فيسري بينهما شيء كالتيّار الكهربائي. لكن إذا تحدّث معها أحد الشباب يتملّكه شعور جديد لم يعرفه من قبل. شعور بالضيق، والغيرة تستيقظ فيه، خصوصًا عندما يسمع في صوتها رنينًا جديدًا، كأنّها عصفور محبوس خرج لأوّل مرّة من قفصه ليطير في السماء ويعلو تغريده فوق الضجيج.

كانوا يعودون على العربة «الكارو» التي حملتهم إلى السوق. يجلس إلى جوارها يتحدّثان معًا بينما تقرفص أمّه في مقدّمة العربة وتنشغل بعدّ النقود التي أخرجتها من كيس التيل الذي يتدلّى فوق صدرها تحت الجلباب. تسكنها في حجرها ثم تشرع في فصل النقود

المعدنيّة عن الأوراق. وبعد أن تنتهي من العدّ تعيدها جميعها إلى الكيس وتدسّه من فتحة العنق إلى مكانه المعتاد. أمّا هو وخالته «فاطمة» فهما منهمكان في أشياء أخرى لا علاقة لها بالمال. بملمس الساقين عندما تهتزّ العربة فوق الطريق. بالأصابع تتشابك لحظة قبل أن تنفصل خوفًا من أن ترفع أمّه عينيها عن المهمّة التي شغلتها عمّا يدور. بالكلمات تروح وتجيء بينهما كالفراشات الملوّنة. تنظر خالته فاطمة حولها، تتأمّل الحقول الخضراء. تتنفّس الهواء بعمق، وتقول:

«الحياة هي الحركة حتّى وإن كانت فوق عربيّة كارو يجرّها حمار. ليتني كنت أستطيع أن أسافر إلى كلّ البلاد».

في إحدى رحلات العودة من السوق قال لها:

«يا خالتي فاطمة. ستتزوّجين في يوم من الأيّام، ويكون لك بيت ترحلين إليه».

نطق الجملة ثم أحسَّ بعدها بحزن عميق. نظرت إليه بملء عينيها وهمست:

«أنت زوجي الصغير. لا أريد أن أعيش مع رجل يفرض عليّ».

ثم تردّدت لحظة قبل أن تضيف:

«بعد ما حدث بيننا لا يمكن أن أقترب من رجل آخر».

في تلك اللحظة التفتت أمّه إليهما، وقالت: «عندما نعود إلى البيت لا بدّ من غسل الغلة، ووضعها لتجفّ في الشمس، أصبحنا الآن قرب الظهر». فانقطع بينهما الحديث، ما أثار قلقًا غامضًا لسبب لم يهتد إليه.

طوال اليوم ظلّت صامتة، لاحظ عليها شحوبًا غريبًا. كانت تختفي

في دورة المياه وتغيب قبل أن تعود لتكمل ما كان بين يديها. فشخخطت فيها أمّه عدّة مرّات ثم سألتها: «مالك يا بنت. ما الذي جرى لك اليوم؟» فأجابت: «لا شيء... لا شيء...» لكنّه لمح شيئًا كالخوف في عينيها.

عندما جاء الليل أخذ يستذكر دروسه، وصعدت هي إلى حجرتها. عندما انتهى لحق بها فوجدها جالسة على سريرها ساكنة لا تفعل شيئًا. لم تلتفت إليه. ظلّت تنظر أمامها في الفراغ كأنّها تفكّر في شيء، فانسحب إلى غرفته ليغيّر ملابسه، وعاد بعد قليل. كانت لا تزال جالسة كالتمثال وفي وجهها ذلك الشحوب الذي لاحظه فيها منذ بداية اليوم. سألها:

«هل أنت متعبة يا خالتي «فاطمة»؟»

لم تردّ عليه. ثم قالت فجأة:

«لا بدَّ أن أترك هذا البيت». فأحسّ بالانزعاج.

«كيف يا خالتي! وإلى أين ستذهبين؟»

اقترب منها وحضنها بين ذراعيه.

«أنا أحبّك يا خالتي «فاطمة». اطلبي منّي أيّ شيء. عندما تتحدّثين عن الرّحيل أشعر بحزن فظيع. لا أتصوّر الحياة بعيدًا عنك».

بكت بحرقة بكاءً صامتًا حتّى لا يسمعها أحد. كان بكاؤها كالطعنة في قلبه، لكنّه ظلّ جالسًا إلى جوارها لا يعرف ماذا يفعل أو يقول. خلعت منديلها من على رأسها وجفّفت دموعها ثم ألقت به في ركن الحجرة بنوع من الضيق، قالت:

«اذهب إلى سريرك يا «إبراهيم». أريد أن أبقى وحدي الليلة».

أزاحته بيدها قليلاً وقامت. فتحت الدولاب وأخرجت منه منديلاً أسود ربطته بقوّة حول رأسها وعقدته فوق حاجبيها تاركة شعرها ينسدل على الجانبين، ثم رقدت على السرير وأدارت ظهرها إليه. تركها، وانسحب إلى حجرته ليرقد على سريره، لكنّه ظلّ مستيقظًا مدّة طويلة قبل أن يسقط في النوم.

كان اليوم التالي يوم جمعة فاستيقظ متأخّرًا. ظلّ في سريره ينتظرها لتأتي إليه وتفتح الستائر كعادتها كلّ صباح. لكنّها لم تأت، فذهب إلى حجرتها باحثاً عنها. كانت خالية. هبط إلى الدور الأرضيّ لكنّه لم يعثر عليها في القاعة، أو في الزريبة، أو في الحوش الخلفيّ. لم يجد سوى أمّه أشعلت الفرن تمهيدًا لصنع الفطير المشلتت والخبز الخاصّ اللّذين كانت تصنعهما مرّة في الشهر. سألته عنها فقال:

«لا أعرف أين هي يا أمّي ربّما في الحمّام». فعلّقت:

«الحمّام... الحمّام... طوال الوقت في الحمّام!!»

عاد إلى الزريبة يبحث عنها مرّة أخرى ظنًّا منه أنّها ربّما تلهو بالاختفاء عن ناظريه. رفعت الجاموسة رأسها، وحملقت فيه بعينيها كأنّها غاضبة لأنّه عاد من جديد. دار حول البيت مرّتين ثم توقّف، وأخذ يمسح الحقول بنظرات فاحصة مدقّقة. سار على أطرافها وهو يرمق حركة الذين ذهبوا إليها. خيّل إليه عدّة مرّات أنّه رآها واقفة أو محنيّة تقطف شيئًا، ولكن كلّما اقترب أدرك أنّ من رآها ليست هي. توجّه إلى الترعة، فلعلّها أرادت أن تتنزّه بسرعة في جوّ الصباح قبل أن يستيقظ أهل البيت ثم اعترضها شيء أعاقها في العودة إليه. لم يجد إلاّ بنتاً نحيلة الجسد، صغيرة الحجم مقرفصة عند الشاطئ، تدعك

بعض الأواني بألياف من التيل. لمح عينيها السوداوين الكبيرين تتأمّلانه بحياء أخرس قبل أن يستدير ليتّجه إلى البيت.

عندما عاد كانت أمّه تعجن قرب الفرن، بينما وقف خاله «عبد الرحيم» يفرك عينيه كأنّه استيقظ منذ قليل، سأله:

«أين خالتك «فاطمة»؟ أريد منها أن تصنع لي كوبًا من الشاي».

قال:

«لا أعرف أين هي. بحثت عنها في كلّ مكان، لكنّي لم أجدها».

تركت أمّه العجين. خرجت من البيت وتبعها خاله «عبد الرحيم» ناسيًا كوب الشاي، والبلغة التي لم يكن يخرج من البيت دون أن يرتديها. بحثوا عنها في كلّ مكان خطر على بالهم. في الأرض الفضاء، وفي البيوت المجاورة. في الحقول المحيطة بالبيت، وعند الترعة. وصلوا حتّى سوق «البدرشين»، والميدان الصغير أمام المحطّة. لم يرها أحد. فذهب خاله «عبد الرحيم» إلى قسم البوليس ليبلّغ عنها، فحجزوه هناك حتّى آخر النهار، وسألوه كلّ الأسئلة التي يسألونها عندما يفتحون محضرًا عن امرأة شابّة اختفت فجأة، فخطر له أنّهم قرّروا القبض عليه. لكنّهم تركوه في النهاية على أن يظلّ تحت تصرّفهم، لا يغادر البلدة إلى أن يعثروا عليها. قال إنّهم سجّلوا جميع ردوده في المحضر، ولكن عندما أراد أن يقرأها قالوا له أن ليس عندهم وقت، وشخطوا فيه لأنّه لا يثق فيهم.

بعد أن عاد خاله «عبد الرحيم» من القسم صمّمت «أمّ إبراهيم» أن يذهبا كعادتهما إلى الغيط، وأن يبقى هو في البيت ليتلقّى أيّة أنباء قد يحملها أحد الأشخاص إليهم. رحَّب بهذه الفكرة. فلم تكن عنده أيّ

رغبة في الذهاب إلى المدرسة في هذا اليوم. قضى الليل متنقّلاً بين حجرته وحجرة خالته «فاطمة» كأنّه يتوقّع أن تظهر في أيّ لحظة. قرب الفجر سقط في نوم متقلّب استيقظ بعده مرهق الجسم. لم يجد أحدًا في البيت فارتدى ملابسه دون أن يتناول إفطاره، أو يشرب شيئًا. كان يحسّ بالعزوف عن كلّ شيء بنوع من الضياع. سار من دون أن يدري إلى أين! مخترقًا الحقول. في أعماقه ألم نابض كأنّ قلبه أصبح خراجًا مليئًا بالصديد، يأبى الانفجار الذي يمكن أن يريحه. اختفت خالته «فاطمة» من حياته هكذا في غمضة عين. كانت تملأ حياته بوجودها، بالحنان، والكلام، بأحضانها الدافئة تضمّه إليها. وجد نفسه قرب ساقية فصعد التلّ الصغير ووقف عند الحاجز المنخفض تحت ظلّ شجرة الجمّيز. أخذ يتفحّص أعماقها كأنّ شيئًا فيها يجذبه إليها، إلى الظلمات، أحسّ برغبته في أن يتلاشى فيها لينسى الحزن والألم اللذين استوليا عليه. بدت الحياة ممتدّة أمامه كالأرض الجرداء القاحلة، بلا حبّ، بلا أحاسيس. ظلّ يحملق في قاع البئر العميقة. وفجأة دون أن يعرف كيف ألقى بنفسه من فوق الحاجز، أحسّ بصدمة هائلة في رأسه وبدا له للحظة أنّ وجه خالته «فاطمة» يطلّ عليه. رأى الفزع في عينيها اتسعتا إلى آخر مدى، وجحظتا قليلاً. ثم فقد وعيه بكلّ شيء.

عرف فيما بعد أنّ أحد الفلاّحين رآه وهو يلقي بنفسه في البئر. كان يحرث في الغيط سائرًا خلف المحراث بتلك الخطوة الثابتة للفلاّحين. وصل إلى آخر الحقل واستدار فلمحه وهو يقف عند الجدار المنخفض المبنى بالطوب الأخضر والطين، ثم وهو يختفي من أمام عينيه ترك المحراث والبقرة، وجرى بأقصى سرعته في اتّجاه

التابوت. كان قد فتل حبلاً طويلاً من التيل وتركه مربوطًا حول جذع شجرة الجمّيز. شدّ عليه، وأسقط نفسه حيث كان يرقد الولد في قاع البئر ملفوفًا حول نفسه كالجنين. ربط طرف الحبل حول جسمه، ثم صعد إلى السطح، وأخذ يشدّ عليه بالتدريج إلى أن رفعه خارج البئر.

أفاق في البيت. وجد نفسه راقدًا على السرير، وإلى جواره أمّه، تحملق فيه بمزيج من الفرحة، والشكّ، والضيق، كأنّه ليس ابنها وإنّما ولد غريب. ولكن بعد لحظة اغرورقت عيناها بالدموع وأخذت تربت عليه كأنّها تطمئنّ إلى سلامة جسمه. ثم مالت عليه وأخذت رأسه الملفوف برباط من الشاش بين ذراعيها، وقبّلته هامسة:

«الحمد لله على السلامة يا «إبراهيم». الدكتور فحصك وقال ارتجاج بسيط».

لكن منذ ذلك اليوم أصبح يتفادى أيّ حديث عمّا حدث في ذلك اليوم. كما أصبح موضوع خالته «فاطمة» مطويًّا في الصمت الثقيل. بين الحين والحين كان يلمح عيني أمّه تتبعانه وهو يتحرّك في البيت بنظرة متسائلة، متشكّكة. نظرة غرست فيه شعورًا بالذنب، بالإثم، بأنّها تدرك ما قام بينه وبين خالته «فاطمة» من روابط خطيرة يجب أن تظلّ محاطة بالكتمان، وبالصمت الأبديّ. ظلّ الشعور بالإثم مغروسًا فيه، جزءًا من كيانه لا سبيل إلى التخفيف منه، أو القضاء عليه. ومع ذلك أحيانًا كانت تتملّكه سعادة طاغية عندما يسترجع لمسات حبّهما في الليالي الطويلة. فيظلّ جالسًا وحده في صمت. يعود إليه وجهها الجميل يطلّ عليه في الصباح، وفي يدها كوب من اللبن تزاحمت فوقه الفقاقيع، وثديها ينام عليه، ويلثم الحلمة الورديّة اللّون، وبطنها

الدافئة تهبها إليه، وضحكاتها الرنّانة عندما يلعبان الكوتشينة فتنتصر عليه. يحيا هذه اللحظات كالحلم الجميل ثم سرعان ما يعود إليه الألم الممضّ، مثل الخرّاج الممتلئ بالصديد ينبض تحت الضلوع. فقد غابت، ولم تعد ثانية. اختفت تمامًا من حياتهم، ولم يسمعوا عنها شيئًا رغم مرور السنين. أصبحت مجرّد ذكرى حملها معه. فيها ذلك الشعور بالحزن، والألم الفظيع، ولكن فيها أيضًا تلك السعادة الطاغية تملأ جسمه، وعقله، وكلّ شيء فيه.. فيبدو له معها أنّه لم يرتكب ما يجب أن يقلق ضميره.

بين الحين والحين يتنبّه إلى أنّ أمّه تحملق فيه بنظرة ملؤها التساؤل، والشكّ، والضيق، فيبحث عن وسيلة أو عذر للخروج من البيت، والاختفاء في ركن بعيد. نظرة زادت من الهوّة القائمة بينهما، وجعلته لا يبوح لها بشيء. نظرة جعلته يحسّ أنّه يحمل في حياته عبئًا ثقيلاً لا سبيل إلى التخلّص منه، لأنّه لا يستطيع أن يتحدّث عنه معها أو مع غيرها من الناس.

هكذا تعمّق الفصام الذي عايشه منذ أن كان صبيًّا صغيرًا، وبالتدريج تعوّد أن تكون له حياتان تكاد تكون العلاقة بينهما مفصولة تمامًا أو مربوطة بخيط واهٍ، رفيع. حياة يمارسها أمام الناس، وحياة أخرى يخفيها تمامًا عن الآخرين. هكذا تعلّم أن يدبر، ويفكّر في صمت، ألاّ يشارك أحدًا فيما يسعى إليه.

(٣)

في سنة ١٩٦٦ تخرّج من قسم الإعلام بكليّة الآداب. كان أوّل دفعته، فاقترحت عليه الأستاذة المساعدة في القسم أن يواصل دراسته للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه تمهيدًا لتعيينه في الكليّـة.

كانت امرأة قاربت على سنّ الأربعين، انفصلت عن زوجها وأصبحت تعيش وحدها مع أمّها في شقّة فسيحة تطلّ على النيل قرب كوبري الجلاء. وأصبح هو شابًّا طويل القامة تضفي عيناه وتقاطيعه الحادّة، وشعره الذي شاب قليلاً فوق الأذنين، وسامة من نوع خاصّ تجذب نظرات النساء الناضجات إليه.

بعد أن ظهرت نتيجة الامتحانات دعته لتناول الشاي في بيتها احتفالاً بنجاحه الباهر، وليتناقشا معًا حول ما يريد أن يفعله بعد ذلك. على المنضدة البيضاويّة في غرفة الاستقبال وضعت مفرشًا قرمزيّ اللون منسوجًا بخيوط سوداء عند الأطراف، وأدوات فضِّيّـة للشاي، وأطباق للحلويات. أخذ يتأمّل جمال ورقّة الأشياء الموضوعة أمامه، والأثاث المصنوع من خشب الأرو، وأواني الفخّار التي ارتفعت منها رؤوس الورد فوق السيقان الخضراء، فتذكّر الستائر القديمة المصنوعة من رقع القماش، والكنب المائل، والحصيرة المفروشة فوق أرض من التراب في بيتهم.

كانت ترتدي جلبابًا من فلسطين يظهر صدرها الوافر عندما تميل.

صبّت له الشاي، وأعطته الفنجان فتلامست يداهما. نظرت إليه من تحت أهدابها المكحّلة واستأنفت كلامها: «أنا مستعدّة لمساعدتك في مواصلة الدراسة لتنال الماجستير، والدكتوراه. ولا مانع عندي، إن احتجت، أن تستفيد من مكتبتي الخاصّة. ففيها كتب كثيرة عن الإعلام، وبعض الدراسات والمجلاّت المتخصّصة التي حصلت عليها من الخارج. ويمكننا أن نتناقش في موضوع الرسالة عندما تنتهي من الدراسات التمهيديّة. ومن ناحيتك ربّما أمكنك أن تعاونني في بحث بدأته عن الإعلام في الاتحاد الاشتراكي. فما رأيك؟»

لمح حذاءها اللاّمع يطلّ من تحت الجلباب وهي تضع ساقًا فوق ساق، وتتراجع في جلستها. تفادى النظر إليها قبل أن يجيب. خطر في باله أنّها تريد أن تستغلّه، وأنّها في وضع أقوى منه. فقرَّر أن يتصرّف بحذر إزاءها. قال: «أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير فيما سأقدم عليه في المرحلة القادمة. فظروف أسرتي الماليّة لا تسمح لي بمواصلة الدراسة. أمّي أرهقت من العمل الشاقّ، ولم تعد قادرة على الاستمرار في الجهود التي كانت تبذلها. أصبحت أخشى على حالتها الصحّيّة. لذلك ربّما بحثت عن عمل لأضيف إلى الدخل الذي نحصل عليه. لكنّي سأفكّر فيما اقترحته عليّ. وأنا أشكرك على تشجيعك لي».

مالت عليه وربتت على كتفه. أحسّ بدفء أصابعها عبر القميص، تلكّأت بها قليلاً قبل أن ترفعها عنه. قالت:

«أنت شابٌّ ظريف يحنو على والدته. اعتبرني مثل أختك الكبيرة. فكِّر فيما قلته لك وعد إليّ».

فقال:

«لن يطول تفكيري. فلا بدّ أن أحسم الأمر في الأيّام القليلة القادمة. والآن يجب أن أستأذن، فمازال أمامي مشوار حتّى أعود إلى «البدرشين»».

«لِمَ الاستعجال؟ صنعت لك فطيرة ذرة أريد أن تأكل منها وهي ساخنة. انتظر قليلاً سأحضرها حالاً».

قامت وغابت في الداخل. سمع همهمة أصوات نسائيّة. تذكّر فطيرة الذرة التي كانت تصنعها خالته «فاطمة». كان يحبّ لونها الأصفر القوي ينكشف عندما تقطع فيها بالسكّين، ورائحتها وهي خارجة من الفرن تملأ البيت. كان طعمها ناعمًا لذيذًا مثلها. أحسّ بالحجر الصغير ينقلب تحت ضلوعه. عندما عادت إليه بطبق من الفضّة وضعت عليها الفطيرة ومن تحتها ورقة رفيعة. وجدته ساهمًا مستغرقًا في أفكاره. وضعتها على المنضدة، لكنّه لم يلتفت إليها، فسألته:

«مالك؟»

قال:

«أبدًا... لا شيء كنت أفكّر فيما قلتِهِ».

مدَّت يدها إلى ذراعه وضغطت عليها، فالتقت عيونهما في نظرة طويلة، أربكته، وجعلت وجهه يحمرّ قليلاً. لكن خطر في باله أنّه يستطيع أن يستفيد منها في الاتّجاه الذي بدأ يتّضح في ذهنه منذ أن وقف أمام اللوحة وقرأ اسمه على رأس أسماء الناجحين.

بعد أسبوع من هذا اللقاء زارها في مكتبها. وجدها جالسة في غرفة صغيرة كلّ شيء فيها مرتّب وأنيق. خلف ظهرها صورة لها وهي شابّة وضعتها أسفل صورة الرئيس. ومضت أسنانها البيض بين شفتيها

الحمراوين عندما دخل. استنشق رائحة عطر النرجس قويًّا في المساحة الصغيرة. سألته عن أحواله، ثم صمتت. وأخذت ترمقه في تساؤل من خلف مكتبها المزخرف بنقوش عربيّة داكنة.

«جئت إليك يا دكتورة لأنّني وصلت إلى قرار، وهو قرار مفروض عليّ بحكم ظروفي. ليتني كنت أستطيع مواصلة الدراسة تحت إشرافك. لكن هذا مستحيل. أمّي مريضة، ونحن نجد صعوبة في توفير الدواء الذي تحتاج إليه. لذلك لا بدّ أن أبحث عن عمل فورًا، في الصحافة إن أمكن، فهذا يتّفق مع مؤهّلي، وميولي. جئت إليك لأسألك إن كنت تستطيعين مساعدتي في هذا السبيل، في الالتحاق بإحدى الصحف، أو المجلاّت. فأنت لا شكّ معروفة لدى الكثيرين في هذا المجال».

زمّت شفتيها الممتلئتين كالطفل الغاضب، وجمدت ملامحها لحظة قبل أن تلقي ناحيته بابتسامة مشرقة لم تحرّك باقي ملامح وجهها. قالت:

«يا «إبراهيم» اتصالاتي ليست كثيرة كما تظنّ. لكنّي سأحاول. ربّما استطعت توجيهك إلى أحد زملائي».

«لا أريد أن أثقل عليك يا دكتورة، لكنّي لا أعرف أحدًا غيرك أستطيع أن ألجأ إليه. وبصرف النظر عمّا سيحدث فأنا رهن إشارتك في البحث الذي تقومين به، ويسعدني أن أكون إلى جوارك، وأن أكون المساعد الذي يمكنك الاعتماد عليه».

رمقته بنظرة فيها رضاء وشيء آخر كالحنان، فاستشعر خيرًا، وأحسّ أنّه وفّق في الكلام الذي وجّهه إليها.

قالت:

«تمرّ عليّ بعد أسبوع يا «إبراهيم»».

«أشكرك.. أشكرك يا دكتورة. وأيّ شيء تطلبينه منّي سألبّيه بكلّ جوارحي».

هبط السلالم وهو يدرك أنّه كذب عليها. لكن هذه الفكرة لم تقلقه. المهمّ أن يجد عملاً في أقرب فرصة، وأن يكون هذا العمل في مجال الصحافة، فالصحافة يمكن أن تفتح له أبوابًا كثيرة. المهمّ أن يتخلّص من الحياة «الضنك» التي لم يعد يطيقها. أن يخرج من حصار «البدرشين»، وكوخهم الحقير إلى الدنيا الواسعة. أمّا أمّه فيستطيع أن يرسل إليها بعض النقود تضيفها لمعاشها الشهريّ. والقراريط الثمانية يمكن تأجيرها. لا بدّ أن يفلت في أقرب وقت ممّا هو فيه، أن يتحرّك متخلّصًا من كلّ الأثقال التي يمكن أن تعيقه.

خطر في باله وهو سائر على الرصيف أنّه كان يتلاعب برغبات الدكتور الأنثويّة. توقّف أمام واجهة أحد المحلّات وأخذ يفحص وجهه.

*

صعد السلالم الرخاميّة وتوقّف لحظة باحثاً عن باب المصعد. خلف الاستقبال جلس رجل مربّع الوجه استقرّ رأسه على جسمه العريض دون أن يفصل بينهما شيء يشبه العنق. رمقه بنظرة متشكّكة وسأله:

«إلى أين يا أستاذ؟»

«عندي موعد مع نائب رئيس التحرير».

أحسّ أنّه يفحص بزّته الرماديّة الناحلة التي لمعت ياقتها من كثرة الكيّ والغسيل. قال:

«اسم حضرتك؟»

«إبراهيم مصطفى سالم».

رفع الرجل سمّاعة تليفون كان مختفيًا خلف الحاجز الذي جلس إليه، وهمس ببضعة كلمات ثم أعادها إلى مكانها. قال:

«تفضّل. الدور الرابع آخر حجرة في الطرقة على يسار المصعد».

كانت يداه ترتعشان وهو يقف أمام الباب المغلق لنائب رئيس التحرير. تحسّس خطاب التوصية الراقد في جيبه كأنّه يطمئنّ على وجوده. قالت له يوم أن عاد إليها ليسأل عن التوصية:

«هذا خطاب موجّه إلى نائب رئيس تحرير مجلّة «صوت الحرّيّة» الأستاذ «حسونة الفرّان» تحدّثت إليه تليفونيًا وعليك أن تذهب بالخطاب إليه. سأسافر لمدّة أربعة أيّام إلى الفيّوم وأعود يوم السبت القادم، وهناك سأعكف على تحديد الإطار العامّ للدراسة التي حدّثتك عنها».

تفادى النظر إليها. قال:

«يا أستاذة «اعتدال» لا أستطيع أن أعبّر عن إحساسي إزاء اهتمامك بأمري. ولن أنسى هذا الجميل طوال حياتي. فور أن أنتهي من توفير نوع من الاستقرار لأمّي المريضة يمكنك أن تطلبي منّي ما تريدينه».

ابتسمت ومدَّت إليه يدها البضّة وهي جالسة. ضغط عليها قبل أن يتركها تفلت من بين أصابعه. أحسّ بعينيها تحملقان في ظهره وهو يخرج من باب المكتب ويغلقه وراءه. سار في الشارع فاقد الإحساس بالأرض التي يوخطو عليها. ستفتح أمامه أبواب الصحافة التي يسمّونها السلطة الرابعة. يمكن أن تجلب له الشهرة والمال. ما فائدة الماجستير أو الدكتوراه. رأى الأساتذة في الجامعة يحضرون في الصباح سائرين

على الأقدام، أو وهم يهبطون من الأوتوبيس في المحطّة القريبة. لا بدّ أنّ الأستاذة «اعتدال» تمتلك موارد غير المرتّب الذي تتقاضاه كأستاذة مساعدة.

أحكم أزرار السترة، ونقر على الباب. اقترب منه بأُذنه لكنّه لم يسمع شيئًا، فانتظر، ونقر عليه مرّة ثانية. سمع صوتًا يزعق بعصبيّة:

«ادخل يا أخي، ادخل».

فتح الباب وخطا خطوتين ثم توقّف. وجد رجلاً بدا جسمه عريضًا خلف المكتب. قامته المستقيمة ترفع رأسه الكبير ليطلّ من أعلى على الحجرة الممتدّة من النافذة المغلقة بمشربيّة حتّى الباب السميك المزدان بحشوات عربيّة. أنفه بارز، وشعره منسحب إلى الخلف تاركًا جبهة عريضة شاحبة تلمع في أضواء النيون المثبتة في السقف. كان يتنفّس بصوتٍ عالٍ، ويشنّف بين الحين والحين كأنّه يعاني من انسداد في المجاري الهوائيّة. خلف النظّارة السميكة لمح عينيه الجاحظتين تتفرّسان فيه بخليط من الشراسة والعطف الأخويّ.

قال:

«أغلق الباب وراءك واتفضّل اجلس» مشيرًا إلى أحد المقعدين الموضوعين أمام مكتبه، ثم استطرد دون أن ينتظر: «هه! ماذا تريد يا أستاذ» وأرفق كلامه بنظرة سريعة مشاكسة كأنّه مقدم على تسلية.

قال «إبراهيم»:

«معي توصية لحضرتك من الأستاذة «اعتدال عاشور».

مدّ يده قائلاً:

«هاتها».

قرأها بسرعة ثم سأله:

«ماذا تريد؟»

«ربّما تكون الدكتورة اعتدال...»

«أريد أن أسمع منك. كلّمني عن نفسك».

«أنا ابن أسرة فقيرة من الفلاّحين. أبي مات في حرب سنة **١٩٤٨**. وأمّي عملت في الأرض لتصرف على تعليمي.. والثورة...»

«ما علينا من الثورة.. ماذا فعلت أنت؟»

«اجتهدت طوال سنين الدراسة، وتخرّجت من الإعلام.. أوّل الدفعة».

«يعني صمّام».

أحسّ بالارتباك فلاذ إلى الصمت. سيرفضه رغم التوصية أو ربّما... لم يفتح المظروف، ولم يقرأ ما كان مكتوبًا فيه. أخرج الرجل زجاجة صغيرة من درج المكتب وبخّ منها في فمه. سمع أزيز أنفاسه يخفت بالتدريج. استطرد:

«يا سي «إبراهيم»، إذا كنت صمّامًا لن تنفعنا هنا في صوت الحرّيّة». مهنة الصحافة بنت وسخة، تحتاج إلى من يلعب، ويقفز، ويتشعلق كالبهلوان، ويكون مقدامًا، جلده سميك. تحتاج إلى انتهاز الفرص، والاندماج مع السلطة. أن تنقدها دون أن تغضب الحكّام أن تجعل من الحَبة قبّة، ومن القبّة حبّة. فهل أنت قادر على كلّ ذلك؟»

«بتوجيهات سيادتك أقدر أتعلّم».

ضحك بصوتٍ عالٍ. صفر صدره، وأخذ يسعل في منديل فيها بصقة. ظلّ ساكنًا في مقعده يتنفّس بعمق قبل أن يكمل ك

"يبدو أنك «المض»، ويمكن تنفع. اصعد إلى مكتب المدير الإداري في الدور الخامس. ادخل إليه مباشرة، واعطه هذه الورقة».

كتب كلمات بسرعة على ورقة سمراء اللون لمعت في ضوء النيون، وأعطاها له قائلاً:

«مع السلامة. احضر إلى مكتبي يوم السبت. سندرّبك لمدّة ثلاثة شهور ثم نرى. تحيّاتي للدكتورة اعتدال الستّ العظيمة».

مرّت الأيام بسرعة. قرب نهاية فترة التدريب دخل إلى مكتب نائب رئيس التحرير ليقدّم له تحقيقًا عن جولة قام بها في وكالة البلح بين تجّار «الخردة»، والعاملين في الورش التي يفكّكون فيها الشاحنات، والسيّارات. أخذ منه التحقيق وسأله: «فترة التدريب قاربت على النهاية، أليس كذلك؟»

«نعم لم يبق سوى أسبوع».

قال:

«الأسبوع القادم سيعقد في الاسكندرية مؤتمر عن عادات الحياة اليوميّة عند الفراعنة بالتعاون بين جامعة الاسكندرية، وجامعة برلين، وسيأتي إليه خبراء في الاركيولوجيا أي في علم الحضارات القديمة إن كنت لا تعلم، من مختلف أنحاء العالم. أريد منك أن تقدّم موضوعًا طريفًا يكون أحد مساهماتنا في التمهيد له».

«من أيّ جانب؟»

حملق في وجهه، ثم قال:

«أترك لك الاختيار. هذا هو آخر اختبار في فترة التدريب. وأرجو ألاّ تذهب إلى مكتبة باب الخلق لتنقل إلينا ما كتبه الخواجات في هذا

الموضوع، ثم تدخل عليه قليلاً من التمصير. عندنا كتّاب تخصّصوا في هذه اللعبة. ومجلّتنا لها طابع وطني واضح يجب ألاّ تنساه».

خرج من عنده مشغول البال. ظلّ يفكّر في الطريق إلى البيت وبعد أن عاد. عندما أحضرت أمّه العشاء أكل بسرعة وصعد إلى غرفته قائلاً إنّه تعب ويريد أن ينام. رمقته بتلك النظرة الثابتة من عينيها لكنّها لم تسأله عن شيء، وانشغلت برفع الصحون. مضت عدّة أيّام دون أن يهتدي إلى فكرة يحسّ بالرضاء إزاءها. استولى عليه القلق فقد أحسّ أنّ مستقبله في المجلّة قد يتوقّف على الموضوع الذي سيقدِّمه، وكأنّ نائب رئيس التحرير أراد أن يعرّضه لامتحان أخير. شبح الفشل يتراءى أمامه، فيصيبه الرعب. فإذا لم يعيّنوه ماذا سيفعل؟ لا يستطيع أن يعود إلى الدكتورة اعتدال. شكرها بعد أن ألحق بالمجلّة، ولكنّه بعد ذلك تهرَّب منها. الآن يشعر بالندم. أغلق على نفسه بابًا كان يمكن أن يطرقه عندما يحتاج إليه. تذكّر النظرات التي كانت تلقيها إليه وهو جالس أمامها. في السنة الأخيرة للكليّة ألقت عليهم محاضرة عن العلاقات العامّة والإعلام، قالت فيها «جوهر العلاقات العامّة هو الحفاظ على كلّ علاقة تنشأ بيننا وبين ذوي المال، أو النفوذ في أيّ مجال بغية استثمارها في وقت من الأوقات. وهذا ينطبق بالذات في بلادنا حيث تحلّ العلاقات الشخصيّة مكان القواعد المنظّمة للمجتمعات التي سبقتنا في التطوّر، واعتمدت على الصناعة، والعلم، والتكنولوجيا الحديثة».

أخذ نفسًا عميقًا، وانقلب في سريره. من بعيد جاءه نباح الكلاب في الأرض الفضاء. قام إلى الشبّاك ليستنشق نسيم الليل. فوق رأسه رأى القمر أصفر اللّون، عليلاً. توالت الصور في ذهنه. عواء الذئاب في الليل، ترفع خشومها الطويلة للسماء، وفي عيونها بريق. الولد ذو

الجسم الضامر يجلس إلى جواره في الفصل، ويطلب منه كرّاسته. وجه خالته «فاطمة» يطلّ عليه في الصباح. أنفاسها الدافئة فوق عنقه في الليل، ودوران جسدها الأنثويّ يضمّه إليها. لماذا كان الفراعنة يبيحون المعاشرة بين الأخوات؟ هل كانت هذه المعاشرة قاصرة على من ينتمون إلى طبقة الحكّام، أم كانت شائعة حتّى بين الناس. قرأ فيما بعد أنّ هدف الحكّام كان هو الإبقاء على السلطة والمال في الأسرة، ولكن قبل الفراعنة لم تقم المحاذير الجنسيّة التي طبّقت فيما بعد لتصبح قانونًا صارمًا يطبّق على عامّة الناس. كانت المرأة مثل الرجل متعدّدة العلاقات، وكانت المعاشرة الجنسيّة حرّة حتّى بين الأقارب والأخوات، ثم جاءت الملكيّة، والنسب، ونظم الميراث. أصبح ما كان مباحًا محرّمًا على الرجال والنساء. تبدّلت القيم الأخلاقيّة في المجتمع، وفي الحياة اليوميّة للناس. فلماذا لا يكتب عن هذا الموضوع. إنّه جديد، وجريء. وسيكون له السبق في الكتابة عن شيء لن يتطرّق إليه أحد سواه.

تملّكه مزيج من الخوف، والابتهاج، كأنّه وقع على كنز ثمين. أحسّ بذهنه يتفتّح للتساؤلات، لأشياء لن يجرؤ أحد من زملائه في المجلّة أن يطرحه على الناس. قام وأضاء النور، ثم جلس إلى المكتب الصغير الذي حلّ محلّ المنضدة حيث ظلّ يستذكر دروسه عليها إلى أن تخرّج من كلّيّة الإعلام.

قضى ثلاثة أيّام في مكتبة الجامعة يقلّب في كتب التاريخ القديم، والاجتماع. كان يقرأ فيها بعض الفصول والفقرات ويسجّل ملاحظاته في كرّاسة طبعت على غلافها صورة الملكة «نفرتيتي» بعنقها الطويل، وتقاطيعها الحادّة تشبه خالته «فاطمة» فكأنّه يستعيدها للحياة.

في اليوم الرابع، ذهب إلى حديقة الأورمان وكتب الموضوع. كانت الكلمات تنسكب من قلمه فوق السطور إلى أن رفع رأسه ليجد السماء مشتعلة بألوان الغروب فآفاق. عاد إلى البيت وأدخل على الموضوع بعض التعديلات ثم نام دون أن يتناول طعام العشاء.

في الصباح صعد مباشرة إلى مكتب نائب رئيس التحرير. كان يرتشف من فنجان القهوة ويراجع «ماكيت» المجلّة مسجّلاً بعض الملاحظات. لم يشعر به يدخل من الباب، فتنحنح وقال:
«صباح الخير يا أستاذ «حسونة»». وقدّم له رزمة أوراق ثم أضاف: «أحضرت الموضوع الخاصّ بالمؤتمر الذي طلبته منّي».

غمغم الأستاذ «حسونة» بسرعة: «صباح الخير». أخذ منه الأوراق، ووضعها على المكتب إلى جواره، ثم قال «لا تنصرف. سأفرغ ممّا أمامي بعد قليل».

جلس على المقعد وانتظر حتّى ينتهي من مراجعة الماكيت، بدءًا من أمام ثم من الخلف ومعاودًا الكرّة عدّة مرّات. أخيرًا طوى الملفّ الكبير ودفعه بعيدًا عنه، ثم أغلق عينيه كأنّه يتخيّل في ذهنه ما رآه. وظلّ هكذا دون أن يتحرّك، وبقي هو جالسًا في صمت أمامه. ثم فتح عينيه فجأة كأنّه تذكّر وجوده. مدّ يده، وأمسك بالأوراق. قرأها ببطء مارًا على السطور بإمعان. لمّا انتهى رفع رأسه بحركة سريعة وصاح:

«أنت مجنون. «الجنس عند القراعنة»! هل تريد أن تسبّب لنا فضيحة. أن يرفع الرئيس سمّاعة التليفون ويأمرني ألاّ أعتّب عند باب المجلّة منذ الآن؟!»

قال «إبراهيم» بصوت يرتعش:

«لكنّه موضوع علميّ يا أستاذ «حسونة». دراسة عن العلاقات بين الرجال والنساء عند الفراعنة».

صرخ:

«علميّ؟ هو الجنس موضوع علميّ. إذا أردت أن تتحدَّث عن العلم اكتب عن الهندسة، أو الطبّ. إنّما الجنس؟ وعند الفراعنة؟ ألا تعيش في بلدنا؟ سيقولون عنه إنّه فيه إسقاط. ثم فيمَ يهمّنا هذا».

«إنّ تاريخ العلاقات بين الرجل والمرأة يساعدنا على فهم ما يحدث في مجتمعنا الآن».

جحظت عينا الأستاذ «حسونة» وهو يصيح:

«يا سلام، يا سلام، ما يحدث الآن. ما الذي يحدث الآن يا أستاذ؟ أنت تروّج للإشاعات ويجب أن تعلم أنّ للجدران آذانًا، فما بالك بالإعلان على صفحات «المجلّة». المرّة القادمة إذا طلبت منك موضوعًا عن الثورة ستكتب عن «الجنس في الثورة».

أحسّ «إبراهيم» فجأة أنّ الخوف عنده راح. قال في اندفاع:

«ألا يوجد جنس في الثورة؟ ألا تلعب العلاقة بين الجنسين دورًا في التمرّد على الأوضاع، في عمق الثورة، واتّجاهاتها. في تصرّفات الناس العاديّين، وتصرّفات القادة».

أصبحت أنفاس الأستاذ «حسونة» لاهثة كأنّه يعاني من الاختناق. قال بهدوء، كأنّه يغالب الغضب الذي استولى عليه: «يا إبراهيم انتبه جيّدًا إلى ما أقوله إليك، ولا تُطِل في الكلام. حتّى الآن كان أداؤك جيّدًا ولا داعي أن تضيّع الفرصة المتاحة لك للتعيين في المجلّة. ثم

إنّني وعدت الدكتورة اعتدال وهي صديقة قديمة من أيّام الدراسة. هذا الموضوع مرفوض. ألقِ به في سلّة المهملات. أنا لا أفهم لماذا أنت مهتمّ به، ولماذا تدافع عنه بكلّ هذا الحماس؟»

قالها وهو يلقي ناحيته بنظرة فيها شكّ. أحسّ بشيء مثل الضوء الكشّاف يسلّط عليه، بأنّه أصبح عاريًا أمام العينين الجاحظتين تحملقان فيه كأنّهما تقرأ شيئًا في أعماقه. كأنّ عينيه تريان ما لم يره الآخرون لتصل إلى السرّ الذي ظلّ يخفيه في الأعماق.. تملّكه الاضطراب واستولت عليه رغبة ملحّة في الفرار من هذه النظرات. قال:

«يا أستاذ «حسونة» أنا آسف. سأكتب موضوعًا آخر».

وقف كأنّه يهمّ بالانصراف. مدّ الأستاذ «حسونة» يده إليه بالأوراق، وقال في صوت تسلّلت إليه نبرة عطف: «يا بني، أنت مازلت شابًا، وأمامك مشوار سترى فيه الكثير. احرق هذه الأوراق، أو ادفنها في أحد الأدراج. ربّما يأتي اليوم الذي تستطيع الاستفادة منها. أحيانًا نتعلّم من الموضوعات المرفوضة أكثر ممّا نتعلّمه من الموضوعات التي يثني عليها المسؤولون. ما كتبته أنت عن الفراعنة يحدث يوميًا في حياتنا حتّى الآن، ولكن في السرّ، ونصمت عليه كالعادة، ولا نبحث عن أسبابه، ولا عن تفسير للمشاكل التي نعاني منها. اكتب حاجة عن الزينة عند نساء الفراعنة. إنّه موضوع علميّ وفي الوقت نفسه له علاقة بالجنس أليس كذلك؟». قالها وهو يرفع ركنيْ فمه بحركة فيها استهزاء.

*

(٤)

أصبح له مكتب في ركن الحجرة المخصّصة لشباب المحرّرين. كان المكتب قديمًا. والمقعد يميل على جانب عندما يجلس عليه. أمّا المرتّب الذي قيل له إنّه يتقاضاه فكان عشرين جنيهًا.. لكن يوم أن صعد إلى الخزينة أوّل مرّة ليقبضه لم يعطه الصرّاف سوى سبعة عشر جنيهًا ومعها ورقة تبيّن الخصومات المطبّقة عليه. مع ذلك كان سعيدًا. يجلس في الركن ويطلّ خلال النافذة الزجاجيّة الكبيرة الملطّخة بالتراب، وبقايا المطر. يتتبّع حركات الناس تروح وتجيء في الشارع العريض. يتملّكه الإحساس بأنّ الدنيا كلّها تمتدّ تحت قدميه، وأنّ أبواب المجد ستفتح له على مصراعيها. يخرج القلم الجديد الذي ابتاعه يوم أن صدر قرار التعيين ويخطّ الكلمات على الورق الأسمر الناعم الذي يوزّع عليهم. عندما يشعر بالجوع يهبط السلالم، ويجتاز الشارع ليأكل «سندويتشًا» من الفول أو الطعميّة من المطعم الذي تعوّد بعض شباب المحرّرين التوجّه إليه، وليشرب كوبًا كبيرًا من عصير القصب عند محلّ العصير القريب منه قبل أن يصعد عائدًا إلى مكتبه من جديد.

يتجوّل في المصانع، والمصالح، ويسافر إلى الأقاليم. يكتب عمّا يراه. يسجّل انطباعاته، وتعليقات الناس عن العمل والحياة. يتعلّم كيف يلعب لعبة التوازن، كيف يعرض الإيجابيّات مع شيء من النقد المباح. ففي الدور الخامس يجلس الرقيب. يرتدي ملابس مدنيّة

ويستخدم لغة الجيش عندما يكتب ملاحظاته على هامش المقال، أو التحقيق. «التزم الصفّ، هذا الكلام ضدّ الأمن الوطني. انتباه. من هنا يتسلّل الأعداء». يحيط الأجزاء التي يطلب حذفها بدوائر حمراء مثل براميل البوليس الحربيّ الموضوعة في الطريق.

في اليوم الخامس من شهر يونيو سنة ١٩٦٧، زحفت الجيوش الإسرائيليّة إلى شبه جزيرة سيناء، وحُطِّمت الطائرات المصريّة وهي قابعة على أرض المطارات. كان هذا هو ردّ إسرائيل على طلب عبد الناصر انسحاب القوات الدوليّة من الأراضي التي كانت تحتلّها في شرم الشيخ منذ انتهاء الاعتداء الثلاثيّ على مصر في نهاية اكتوبر ١٩٥٦.

أثناء ذلك كانت إذاعة صوت العرب تتغنّى بالانتصارات العظيمة التي أحرزتها القوّات المصريّة في المعارك، بإسقاط عشرات الطائرات الإسرائيليّة وهي تطير في السماء، بالدبّابات التي فجّرتها وأحرقتها المدفعيّة المصريّة في الصحراء، بالقتلى، والجرحى في صفوف الأعداء.

كان يجلس مع المحرّرين المجتمعين حول المذياع. آذانهم تلتقط صوت أحمد سعيد يتردّد في العلبة الصغيرة السوداء. كان عملاقًا يخرج من القمقم ليرتفع في السماء، ويهشّم الطائرات الإسرائيليّة بين يديه.

قلبه يدقّ دقّات قويّة متتالية تردّد كلمات «النصر. . . النصر». ذهنه مشغول بفكرة واحدة استولت عليه. أن يسافر إلى الجبهة ليغطّي المعارك الدائرة هناك. أن يلحق بالقوّات المسلّحة، ويكتب عن الزحف العظيم نحو النصر، عن بطولات الجنود الذين جاؤوا من القرى مثل أبيه الذي استشهد في حرب ١٩٤٨. أن يشهد حصار إسرائيل واستسلامها لتكفّ إلى الأبد عن جبروتها، وعدوانها.

في تلك الليلة كان نوبتجيًا. جلس في الغرفة التي دهنوا زجاجها باللّون الأزرق، وألصقوا عليه شرائط الورق البنّي للحماية من كسر الزجاج. أحسّ برغبة في النوم فأطفأ مصباح النيون المضاء في الحجرة واكتفى بالضوء يتسلّل إليه من الطرقة. وضع ذراعيه فوق المكتب وأسند رأسه عليهما ليغفو قليلاً. استيقظ على رنين جرس التليفون فانتفض واقفًا، وأسرع إليه ليرفع السمّاعة. جاءه صوت نائب رئيس التحرير وهو يقول:

«انزل لرئيس التحرير فورًا. يريدك في مهمّة عاجلة».

تبدّدت بقايا غيوم النوم. أحسّ بشحنة من الطاقة في جسمه، ذهنه أصبح صافيًا. هبط السلالم في قفزات سريعة. ترى لماذا يريده رئيس التحرير؟ طوال الفترة التي قضاها في المجلّة لم يكن تحدّث إليه في شيء. إذا التقى به صدفة في الطرقة تفقّده بنظرة عابرة من خلف نظّارته ذات الإفريز الأسود السميك، أو هزّ رأسه سريعًا وهو يتخطّاه ليختفي خلف باب مكتبه يحتلّ الركن القصيّ للمبنى بعيدًا عن حركة المحرّرين.

كان رجلاً قصير القامة تبدو عليه الوداعة، والتعالي البسيط، كأنّه يحرص على إبقاء مسافة بينه وبين الآخرين. سمع أنّه ينتمي بصلة قرابة إلى القائد العام للجيش، وأنّ هذه القرابة لعبت دورًا في ارتقائه السريع إلى رئاسة التحرير. إنّه رجل متّزن يحسب المسائل بدقّة، ويتفادى المواجهات والمعارك ممّا دفع الرئيس إلى وصفه بأنّه أبرع من يعلّق على الأحداث بعد أن تكون منتهية تمامًا.

كان مدير مكتبه يتحدّث في التليفون عندما دخل إليه فجلس.

استمرّ الحديث طويلاً قبل أن يهمس الرجل في السمّاعة «انتظرني دقيقة» والتفت إليه قائلاً:

«أيّ خدمة؟»

«رئيس التحرير طلبني».

«تفضّل. ليس معه أحد».

نقر على الباب، ودخل. كان جالسًا خلف المكتب دون حركة كأنّه استغرق في التفكير. ملامحه شاحبة، منتفخة قليلاً ربّما من قلّة النوم، أو المجهود الطويل. تبدو عليه الوداعة وهو قابع بجسمه المنكمش في المقعد الكبير. سار فوق البساط بخطوة بطيئة إلى أن اجتاز الغرفة الواسعة وأصبح أمامه فتنبّه الرجل وسلّط عليه نظرته من خلف زجاج العوينات. سأله:

«حضرتك طلبتني؟»

هزّ رأسه بالإيجاب وأطفأ سيجارته في المنفضة، ثم قال:

«اجلس يا إبراهيم. لم أرك في مكتبي قبل الليلة، أليس كذلك؟»

«نعم لم يكن هناك شيء يستدعي دخولي إليك».

ابتسم وقال:

«حسنًا، الأستاذ حسونة فيه البركة. لكنّي سأوكل إليك بمهمّة خاصّة، فأردت أن أراك، وأتحدّث معك قليلاً. اخترتك بالذات لهذه المهمّة لما سمعته عنك من التزام بجودة العمل الصحفي».

أحسّ بقلبه يخفق تحت الضلوع. قال:

«أرجو أن أكون عند حسن ظنّ حضرتك».

لم يبد عليه شيء. ظلّت ملامحه جامدة. لمح عينيه تفحصانه

ببرود كأنّ الجملة التقليديّة التي نطق بها لم ترق له كثيرًا، فحلّ التوجّس مكان الخفقة الأولى.

«أريدك أن تسافر فورًا إلى «بور سعيد» لعمل تحقيق كبير عمّا يحدث هناك في ظلّ ظروف الحرب التي نخوضها. إنّها مهمّة قد تكون فيها خطورة، لكن إذا نجحت في القيام بها يمكن أن تفتح أمامك بابًا واسعًا للتقدّم. أنا أريد أن أكوّن فريقًا يتعاون معي في تطوير المجلّة، والارتقاء بمستوى الأداء فيها، فأنا غير راضٍ عن أشياء كثيرة في أدائها الحالي. لكن ليس هذا وقت الحديث عنها. هذا التحقيق فرصة لكي تظهر قدراتك. تأكّد أنّ المحرّرين جميعًا يتمنّون هذه الفرصة لمشاهدة ما يجري قرب خطوط القتال، والكتابة عنه، ولولا المسؤوليات التي لا أستطيع أن أتركها لغيري لسافرت أنا بنفسي بدلاً من إرسال أحد المحرّرين. فمَن منّا لا يأمل في الذهاب إلى الجبهة؟»

هبط إلى الشارع كالطائر على جناحين. كلمة الجبهة تتردّد مع دقّات قلبه. الخواطر تتسابق في ذهنه. يرى صورته على غلاف المجلّة. يتخيّل بابًا يفتح أمامه ليجد نفسه في حجرة أنيقة. يشدّ الستارة، ويجلس خلف المكتب وضعت عليه آنية من الزهور. ينتقل منها إلى صالة مزدحمة بالناس ينتظرون قدومه إلى الحفل المقام من أجله.

اصطدم بأحد المارّة فأفاق على صوت الشارع، لكن بعد قليل عاد إلى الخواطر تتسابق في ذهنه. سيعتمد عليه رئيس التحرير في تطوير المجلّة، ليصبح أحد المقرّبين إليه. قفز قفزة في الهواء وطرقع أصابعه. ابتسم إليه رجل بدين كان ينتظر عند محطّة الأوتوبيس، فأحسّ كأنّ الحياة كلّها ابتسمت إليه. يتصوّر نفسه راكبًا دبّابة تخترق

الشوارع المزدحمة بالناس في أيديهم أعلام يلوحون بها إليه، ثم وسط مجموعة من الجنود يطلقون قذائف متتالية من أحد المدافع، فتهاوى طائرة إسرائيلية وتنفجر لتصبح كتلة من اللّهيب أو في مخبأ مع الرجال والنساء والأطفال يستمع إلى صوت القنابل تقترب منهم بالتدريج.

توقّف عن السير فجأة. في الجبهة يحلّق الموت فوق رؤوس الناس، لا يعرف أحد متى يمكن أن ينقضّ عليه. فكرة الموت لم تراوده من قبل حتّى في ذلك اليوم البعيد عندما ألقى بنفسه في البئر. لم يفكّر كثيرًا قبل أن يقدم على هذه الخطوة. كانت لحظة حزن عميق، لحظة يأس قادته خطواته بالصدفة إلى الساقية ليجد نفسه واقفًا على حافة الهوّة المحفورة في الأرض. الآخرون يموتون، أمّا هو فالموت بعيد عنه. لكن ألم يقل له رئيس التحرير إنّ هناك مخاطر قد يتعرّض لها أثناء تجواله في المدينة.

منذ أسبوع شاهد فيلمًا عن جندي أميركي عاد من حرب فيتنام. دخلت شظيّة في عموده الفقريّ فأصيب بالشلل في النصف الأسفل من جسمه. في المستشفى التقى الجنديّ بامرأة متزوّجة من ضابط تطوّعت لتعمل ممرّضة بعد أن ذهب زوجها ليحارب في فيتنام. كانت ترعى الجنود والضبّاط الجرحى العائدين من القتال، فأصبح هذا الجنديّ أحد المصابين الذين ترعاهم. تسهر إلى جواره في بعض اللّيالي، تحقنه بالمسكّنات، وتعطيه الدواء، والطعام، وتغيّر له الفراش. تتتبّعه وهو يتنقّل في العنبر وفي حديقة المستشفى على مقعد متحرّك يدفع عجلاته بيديه. تشاهده وهو يعاني من نوبات الألم القطيع، فيصرخ بأعلى صوته، ويضرب بقبضته ورأسه على أقرب شيء. مع

ذلك يصرّ على أن يكرّس جهوده وحياته رغم العذاب الذي يعاني منه لقضيّة السلام في فيتنام، على إنقاذ عشرات الآلاف من الموت، أو العجز، أو التشويه الجثماني أو النفسي. لا يكفّ عن قيادة المظاهرات والاجتماعات، وعن المشاركة في تنظيم الحركة الشعبيّة المناوئة للحرب غير عابئ بالإصابة التي أقعدته مدى الحياة. يسير في المقدّمة فوق مقعده المتحرّك، ويربط نفسه بالجنازير في القضبان الحديديّة لبوّابة البيت الأبيض أمام المتظاهرين.

تجلس إلى جواره وتداويه للتخفيف من آلامه. يتحدّثان معًا عن الحياة، عن تجارب كلّ منهما. تشعر أنّها أمام إنسان شجاع وحسّاس. أمام رجل تلقائيّ وبسيط يختلف تمامًا عن الزوج الذي عاشت معه حتّى الآن. عن الضابط المتعالي العنصريّ والمتعجرف الذي لا يبالي بحياة الآخرين. فتنمو بينهما علاقة حبّ جميلة. وفي إحدى الليالي تحتضنه بين ذراعيها وتمارس معه الجنس، ولأنّ الحبّ بينهما وصل إلى ذروة الصفاء والقوّة رغم الشلل يصلان معًا إلى قمّة اللذّة، ليكتشفا أنّ الحبّ يستطيع أن يتغلّب على العجز.

خطا في الشارع سارحًا في صور الفيلم كالحلم استولى عليه. الحبّ الوحيد الذي عرفه في حياته تحوّل إلى ذكرى. كان حبّهما بريئًا رغم كلّ ما يقوله الناس. مع ذلك كلّما فكّر فيه أحسّ بالحجرة الصغيرة تتقلّب أسفل ضلوع الصدر كأنّه ارتكب إثمًا لا يستطيع أن ينساه أو يتهرّب منه. كأنّ الفساد والشذوذ تسرّب إليهما. لكن كلمة الفساد تصيبه بالحيرة. كانت علاقته بها جميلة وكان على استعداد لأن يفعل أيّ شيء من أجلها. عندما غابت أحسّ كأنّ المصباح الذي أضاء حياته أُطفئ. الفساد في ذهنه يرتبط بأشياء أخرى: بالوعد الذي

أعطاه للأستاذة اعتدال ثم تهرّب منها، أو بتلك اللّيلة التي عاد فيها إلى «البدرشين» في سيّارة للأجرة. هبط منها في الموقف، وسار على قدميه في طريقه إلى البيت فمرّ قرب منزل من دورين يغطّ في الظلام، ما عدا حجرة في الدورة الثاني أُضيء فيها المصباح الكهربائيّ. فجأة لمح امرأة تخلع ثيابها خلف الستارة المنحدرة خلف زجاج النافذة. أخذ يحملق في انحناءات جسدها الوارفة، ثم انزوى في ركن مظلم وأخذ يمارس العادة السرِّيّـة. لكن وهو يتخيّل نفسه داخلاً إليها سقطت الستارة من مكانها فوجد أمامه رجلاً ممتلئ الردفين كان يخلع ملابسه فتشابكت أصابع قدمه في الجزء الأسفل من بنطاله، وأخذ يتأرجح للاحتفاظ باتّزانه. انقضّ عليه إحساس بأنّ الفساد والعفن تسرّبا إليه فأخذ يتقيّأ خلف جدار قريب.

لماذا تتوالى هذه الصور في ذهنه؟ في أعماقه شعور بحالة من الاضطراب. بالحزن، والسعادة. بالخوف والشجاعة. بالسموّ فوق رغبات الحياة في لحظة ثم السعي إليها. كأنّ سفره القريب إلى المجهول قلب حياته وأضاع اتّزانه. فمن يعلم؟ ربّما تكون هذه الرحلة إلى بور سعيد أوّل خطواته نحو المجد. ربّما استطاع أن يكتب عن المدينة ما لم يكتبه أحد من قبل. وربّما تكون هي نهايته التي سعى إليها.

*

أعدّ حقيبة صغيرة باحتياجاته. آوى إلى الفراش في وقت مبكّر لكنّ النوم هرب منه طوال الليل. ارتدى ملابسه وهبط على السلالم بعد أذان الفجر. كانت أمّه تستعدّ للذهاب إلى الحقل. صنعت له كوبًا من الشاي، وأعطته لفّة وضعت فيها فطيرة، وبيضًا مسلوقًا، وقليلاً

من الجبن القريش. توجّه إلى محطّة باب الحديد. عند شبّاك حجز التذاكر ذرّ الموظّف جفونه فوق عينيه الحمراوين وسأله كأنّه يتأكّد: «بور سعيد؟» فلمّا ردّ بالإيجاب أبلغه أنّ القطارات غير منتظمة بسبب اللاجئين الخارجين من المدينة، ونصحه بالبحث عن وسيلة أخرى للسفر، ثم أضاف وهو يغلق جفونه مرّة أخرى «إلاّ إذا كنت على استعداد لأن تقضي الساعات منتظرًا على دكّة في المحطّة».

أصابته حيرة. ماذا يفعل؟ أيجوب الشوارع باحثاً عن سيّارة أجرة، أو حتّى شاحنة تحمله إلى بور سعيد؟ احتمال عثوره على سائق متّجه إليها في هذه الظروف بعيد إن لم يكن مستحيلاً. وقف خارج المحطّة دائرًا بعينيه حول الميدان الكبير. لمح سيّارة للأجرة تقف إلى جوار الرصيف، و«كبّوتها» مرفوع. كان سائقها منهمكًا في فحص المحرّك فاقترب منه لعلّه يدلّه على وسيلة للسفر، سأله، لكن الرجل لم ينتبه إليه. ظلّ منكفئًا فوق محرّك السيّارة يثبّت شيئًا بمفكّ رفيع. ثم فجأة رفع رأسه، ونظر إليه. سمع صوته الأجشّ يرتفع فوق ضجيج الميدان.

«بور سعيد؟ تريد أن تسافر إلى بور سعيد؟!»

«نعم».

صمت قليلاً. لمعت عيناه تحت الشعر الأسود الكثيف الحاجبين:

«أنا ذاهب إلى بور سعيد الآن».

«الآن؟»

«نعم. أسرتي هناك» أدخل الرجل رأسه تحت «الكبّوت» مرّة أخرى ثم أضاف بنبرات جاءته كأنّها من بعيد: «زوجة، وأمّ، وثلاثة أطفال. يمكنك أن تسافر معي إن أردت».

لا بدّ أنّ القدر معه. اجتازته موجة عارمة من السعادة. ترى متى سينتهي ممّا يقوم به من إصلاحات. كاد أن يسأله لكن في تلك اللحظة أغلق السائق «كبّوت» السيّارة، ومسح يديه على منشفة صفراء متّسخة ثم قال:

«ضع حقيبتك على المقعد الخلفيّ، واركب إلى جواري».

قاد السيّارة حتّى وصلا إلى بداية الطريق الصحراويّ دون أن يقول شيئًا كأنّه استغرق في التفكير، فسرح في الحديث الذي دار بينه وبين رئيس التحرير. قبل أن يغادر مكتبه مال بجسمه إلى الأمام وقال في صوت خفيض «كن حريصًا فالوضع دقيق».

لم يلتفت إلى كلامه، ولم يفكّر فيه. كان غارقًا في الإحساس بالنشوة إزاء كلمات الإطراب التي سمعها منه. ترى ما الذي كان يعنيه؟ نطق السائق بعض الكلمات غطّى عليها هدير السيّارة فمال عليه وزعق:

«لم أسمع ما قلته».

«أحسن حلّ هو أن أقوم بترحيل أسرتي من بور سعيد. لا أستطيع أن أعمل وأنا مشغول البال على مصيرهم».

«مشغول؟ ولماذا تنشغل؟ كلّ الأخبار مطمئنة. فنحن نحقّق انتصارات متوالية».

صمت الرجل لحظة طويلة كأنّه يقلب شيئًا في ذهنه. لمح ملامحه التي حطّ عليها شيء كالجمود.

«لكن إذا اقترب العدوّ من المدينة لا بدّ من ترحيلهم».

رفع صوته في شيء من العصبيّة:

«ما هذا الذي تقوله يا رجل؟! ألم تسمع الأخبار التي أذيعت منذ

قليل؟»

نظر إليه السائق بشيء من الضيق كأنّه شابٌّ أرعن. خفّ صوت الريح فوصلت إليه كلماته.

«ستعرف عندما نصل. أنا عشت حرب سنة ١٩٥٦ ولولا إيقاف القتال، الله وحده يعرف ما كان يمكن أن يحدث».

قرّر ألاّ يردّ عليه. لن يطيق الاستماع إلى مثل هذه الترهات طوال الطريق. الصمت أفضل. ألقى إليه السائق بنظرة متشكّكة ثم سأله:

«وأنت حضرتك. ما الذي يدعوك إلى الذهاب هناك في مثل هذه الظروف؟»

ردّ عليه بشيء من الجفاء:

«أنا صحافي. أرسلتني المجلّة للكتابة عن الناس في المدينة».

مدّ السائق يده إلى علبة السجائر الموضوعة أمامه. أخرج منها سيجارة وأشعلها. أخذ منها نفسًا عميقًا ثم قال:

«والله شغلة طريقة حكاية الكتابة هذه. الناس يعانون ويموتون، وأنتم تكتبون عمّا يصيبهم. المآسي هي غذائكم تعيشون عليها. تتفنّنون في إضفاء الجمال، والشاعريّة عليها. تشعلون أحاسيس الناس لكن أحاسيسكم أنتم تظلّ باردة، لا تتحرّك».

أحسّ بمزيج من الدهشة والضيق. هذا السائق سمج. من أين أتى بهذا الكلام؟ تأمّل شاربه الكثّ وأنفه الكبير، ويديه المعروقتين حول عجلة القيادة. لا بدّ أنّه سمعه في مكان ما. ربّما من أحد الزبائن الذي استقلّ سيّارته في مشوار. جبهته الضيّقة يسقط عليها شعره المجعّد.

تذكّر نظرة عينيه عندما أخرج رأسه من تحت الكبّوت والتفت إليه.

بحيرتان من الصفاء استغرق فيهما لحظة كأنّه انجذب إلى. . سأله:

«هل كان لديك عمل آخر قبل أن تصبح سائقًا؟»

«اشتغلت حمّالاً في المحطّة، وخبّازاً في فرن، ثم اهتديت إلى هذه المهنة. إنّها أفضل. أنا فيها سيّد نفسي. أعود إلى بيتي متى أقرّر».

«لكن لا بدّ أنّك تقرأ؟»

«لا، ليس عندي وقت لقراءة ما يكتبه الكتّاب عن حياتنا. هم يكتبون عنها، وأنا أعيشها. وعندما أتأمّلها أرى ما لا يرونه فيها. أشعر أنّهم يكذبون. يجمّلون ما أراه قبيحًا، ويقبّحون ما يبدو لي جميلاً. لست في حاجة إليهم».

سلّط الرجل عليه نظرة طويلة فيها صفاء غريب وسط الملامح المنحوتة بغلظة، ثم ابتسم. لا بدّ أنّه يسخر منه. لن يردّ عليه. لا يريد أن يصطدم به فهو في حاجة إليه لتوصيله إلى حيث يريد. نظر من النافذة إلى الرمال الممتدّة خلف القناة ولاذ بالصمت.

عندما وصلا إلى أطراف المدينة كانت الساعة قد قاربت السادسة مساء. الشوارع خالية من الناس تمامًا. لم يلمح إلاّ طفلاً مقرفصًا في قطعة من الأرض يقلّب في كوم من الفضلات بيديه، بينما جلست امرأة عجوز فوق الرصيف على مقربة منه. جسمها الضامر تبرز عظامه خلال جلبابها الأسود الممزّق. عندما مرّت السيّارة إلى جوارهما لم يلتفتا إليها. رفع الصبيّ يده بشيء تدلّى بين أصابعه يشبه الفأر، أو القطّ الصغير، وأسقطه في كيس فتحته المرأة.

طلب من السائق أن يتركه قرب مبنى المحافظة. كانت المقاهي والحوانيت كلّها مغلقة. سأله عن الأجرة التي يريدها. تحرّك شاربه

الكثّ يخفي شفته العليا، وظهرت أسنانه في ابتسامة خاطفة. قال:
«هنا أنت ضيفنا. نعطيك ولا نطلب منك شيئًا».

سار في المدينة بعض الوقت ليتفقّد أحوالها لكن أخذ الظلام يلفّ مبانيها وشوارعها بسرعة، فالأنوار كلّها مطفأة ما عدا مصباح يومض هنا وهناك لحظة ثم ينطفئ سريعًا.

كان المحافظ غائبًا في جولة. لكن بعد أن شرح لمدير مكتبه المهمّة التي جاء من أجلها قاده إلى حجرة في ركن المبنى ملحق بها حمّام ودورة مياه، وفيها سرير، ومنضدة خشبيّة ودولاب ومقعد. قال له إنّه يستطيع أن يقضي فيها المدّة التي يريدها. أحضر له كوبًا من الشاي، وطبقًا من البيض والجبن، قائلاً إنّه سيبيت في المكتب. قضى الليلة في حالة من اليقظة القلقة يتقلّب على سريره أو يقوم ليتمشّى في الحجرة. تكاتف القلق مع وخزات البراغيث المستمرة في منعه من النوم. لكن قرب الفجر استطاع أن يغفو.

في الصباح بعد أن اغتسل، وارتدى ملابسه خرج من باب غرفته. كان المبنى الكبير ساكنًا تمامًا. اجتاز الطرقة الطويلة بين صفّين من الأبواب المغلقة حتّى الصالة، وهبط على السلالم الرخاميّة العريضة إلى الميدان المحاط بصفوف النخيل. كانت الشوارع لا تزال خالية. سار على قدميه إلى أن صادفه مقهى كان صاحبه يرشّ الأرض أمامه من خرطوم للمياه. جلس على منضدة صغيرة يعلوها قرص من النحاس وطلب كوبًا من الشاي بالحليب أتاه الرجل به بعد أن أعدّ «النصبة» وأشعل الموقد، كأنّه لم يكن يتوقّع أن يأتيه أحد من الروّاد. كان الوجوم باديًا على وجهه النحاسيّ اللون. رمقه بفضول بليد من

عينين لا روح فيهما كأنّه أصيب بكارثة لا يريد أن يفكّر فيها.

عندما جاءه بكوب الشاي، توقّف أمامه لحظة قبل أن يسأله:

«الأستاذ من بور سعيد؟»

قال: «لا. أنا جئت من القاهرة. صحافي في مجلّة «صوت الحرّيّة»». صمت الرجل واستدار لينصرف كأنّه لا يريد أن يكمل الحديث فاستبقاه بحركة من يده:

«يا معلّم. هل سمعت أخبارًا جديدة عن الحرب؟ لماذا تبدو المدينة خالية من الناس؟»

نظر إليه لحظة طويلة. انتفضت في عينيه شعلة من الغضب ثم انفجرت منه الكلمات.

«حرب؟! ما هي الحرب التي تسألني عنها؟ ألم تسمع؟ الحرب انتهت يا أستاذ. انتهت. إسرائيل احتلّت سيناء وجنودها أصبحوا في بور توفيق».

أحسّ كأنّ جدارًا وقع عليه. دار رأسه دورة واحدة عنيفة. غامت الأشياء أمام عينيه، وأحسّ أنّه انفصل فجأة عمّا يحيط به وأخذ يحلّق في فراغ لا يسنده فيه شيء. تمالك نفسه قليلاً. مدَّ يده إلى كوب الشاي وارتشف منه كأنّه يحاول أن يعيد صلته بالحياة العاديّة ويوقف الدوّامة التي أطاحت بكلّ بنائها لتنهار أحجارها فوق رأسه. أحسّ بوهن شديد فظلّ ساكنًا لا يتحرّك. ارتشف من الشاي بحركة بطيئة آليّة فأحسّ بالوهن يتبدّد كلّما سقط السائل الساخن في جوفه. أخذ يستعيد الكلمات التي نطق بها الرجل. هل يمكن أن يكون كلامه صحيحًا؟ في داخله شعور بالخواء، باللاّمبالاة. العدوّ يقف على

الأبواب، وكلّ شيء انتهى. لكن من يدري. ربّما يكذب. ربّما يكون جاسوسًا، فردًا من طابور خامس أعدّه الإسرائيليون لتمهيد الطريق أمامهم، لإثارة البلبلة في صفوفنا.

سيطرت عليه رغبة في الابتعاد عن المكان، في التحرّك منه بأقصى سرعة ممكنة. وضع النقود على المنضدة وانطلق إلى الشارع يتملّكه شعور من الهلع. لا بدّ أن يبحث عن وسيلة للعودة. لكن أين يذهب؟ خطواته تقوده هنا وهناك بلا هدف. وجد نفسه أمام مبنى جديد مطليّ باللون الأبيض لا يدخل إليه، ولا يخرج منه أحد. بحث عن حارس أو شخص يسأله أين هو. لمح أعلى الواجهة كلمات محفورة في حجرورديّ اللون يبرزها لونها الأسود. قرأ «مستشفى النصر» فدخل من الباب الحديديّ الموارب، وصعد السلالم إلى الصالة الفسيحة المبلّطة بالرخام.

أمام الاستقبال وقفت طبيبة تتحدّث مع العامل خلف الحاجز الذي وضع عليه تليفون، ودفتر كبير مفتوح يرقد فيه قلم. أحسّت به وهو يقترب منهما فالتفتت إليه بشيء من الدهشة. رأى وجهها أسمر مربّعًا وعينين سوداوين فيهما لمعة قبل أن تسأله:

«نعم. أيّ خدمة يا أستاذ؟»

قال:

«أنا صحافي من القاهرة. جئت لأكتب تحقيقًا عن مدينة «بور سعيد». هل يوجد في المستشفى جنود أو مدنيّون أستطيع أن أتحدّث إليهم؟»

فحصته قليلاً كأنّها تريد أن تتأكّد من صدق ما يقول:

«لا يا أستاذ لا يوجد جنود، أو حتّى مدنيّون في المستشفى. فهو

لم يفتتح بعد، كما أنّه تابع للتأمين الصحّي. إذا كنت تبحث عن جنود» ـ تردّدت كأنّها تبحث عن كلمات مناسبة ـ «عادوا من الجبهة اذهب إلى مدرسة التحرير الثانويّة على مسافة كيلومتر واحد من هنا. يوجد فيها مركز لإيواء الجنود العائدين من سيناء».

حرّكت المفاتيح التي كانت تحملها في يدها بعصبيّة كأنّها تريد أن تنهي الحديث بسرعة، فتركها وعاد من حيث جاء. عند البوّابة وجد رجلاً يرتدي معطفًا أبيض وصندلاً، فسأله عن الطريق إلى مدرسة التحرير. رمقه بنظرة متحفّظة قبل أن يصف له موقعها ثم تركه ليستأنف سيره في الشارع العريض. بين الحين والحين كان يصادف بعض المارّة يمشون بخطوات بطيئة وعيونهم مثبتة على الأرض. لكن لم يلتفت إليه أحد.

عندما وصل إلى المدرسة دخل إلى الحوش دون أن يعترض أحد سبيله. فوجئ بعشرات الجنود يرتدون أسمالاً خاكيّة اللون تكشف عن أجزاء من جسمهم. كانوا جالسين على دكك خشبيّة رؤوسهم محلوقة، وفي عيونهم نظرة ضائعة بلهاء كأنّهم أصيبوا بصدمة لم يفيقوا منها، فتجمّعوا هكذا كالقطيع الذي يبحث عن السلوى في التصاق الأجسام. كانت أقدامهم متورّمة مثل خفّ الفيل، والجلد فوقها مثخن بالجراح ينزّ منها سائل أصفر، أو خليط من الدم والصديد.

لم يتمالك نفسه. بحث عن جدار يستره، وأخذ يتقيّأ بعيدًا عن العيون. اغتسل تحت صنبور في الحوش. ثم خرج بسرعة من الحوش هاربًا من منظر الجنود.

سأل أحد السائرين في الشارع عن محطّة السكّة الحديد، وأخذ

يعدو نحوها. بين الحين والحين كان يستريح ثم يعدو من جديد. في المحطّة عند المدخل، وفوق الأرصفة وجد حشودًا من الناس يصرخون، ويتعاركون للصعود إلى عربات القطار الذي امتلأ بالراكبين. شقّ طريقه بالقوّة وتمكّن من الصعود إلى إحدى العربات ليقف في أحد الممرّات محشوراً بين الأجسام، والقفف، والأقفاص، والحقائب المنتفخة التي ربطت حولها الأحزمة الجلديّة والحبال وقد ارتفع من حوله ضجيج الأصوات وبكاء الأطفال.

وصل إلى «البندرشين» بعد منتصف الليل. استيقظت أمّه وهو يدسّ مفتاحه في الباب كأنّها سمعت خطواته وهي تقترب من البيت. وقفت أمامه تفحصه بنظرة قلقة فتذكّر الليلة التي عاد فيها أبوه من الميدان مضى عليها ما يقرب من عشرين سنة. نسيت أن تلفّ الطرحة حول رأسها وهي تخرج مندفعة إلى القاعة فلمح شعرها العاري الذي أصبح في لون الرماد. في وجهها انحفرت الغضون العميقة، وبرزت عظام الخدّين. قرأ في عينيها مزيجًا من الخوف والحنان، وهي تنظر إلى ملابسه الممزّقة، المتّسخة من رحلة القطار، وتلتقط علامات الحزن، والإرهاق تطلّ من ملامحه كأنّه كبر خلال المدّة القصيرة التي غاب فيها.

فوجئ بها تحتضنه بين ذراعيها كأنّها تكسر الحاجز الذي قام بينهما منذ سنين، كأنّ الأزمة التي أحاطت بالحياة أطاحت بكلّ التحفّظات. أمسكت بيده وأجلسته على الكنبة وهي تقول:

«مالك يا بنيّ. ما الذي أصابك. قلبي كان يقول لي إنّ هذا المشوار لن يكون فيه خير».

ربتت على رأسه، ووجهه وسألته:

«هل تناولت شيئًا من الطعام؟»

قال:

«لا يا أمّي. أريد أن أستحمّ، وأغيّر ملابسي، وبعد ذلك يمكنني أن آكل شيئًا».

في تلك الليلة بعد أن أوى إلى فراشه ليختطف ساعات قليلة من النوم رأى خالته «فاطمة» في الأحلام. كانت جالسة على حصيرة قرب شاطئ الترعة. لمح الوهج الأحمر يلمع في شعرها وهو يهبط من القطار. أمسكت بيده وأجلسته إلى جوارها فأحسّ بجسمها دافئًا من خلال قطن الجلباب. كانت عيناها صافيتين صفاءً مدهشًا وهي تنظر إليه. قالت:

«لا تقلق على شيء يا «إبراهيم». أنا لم أكن بعيدة عنك في يوم من الأيّام. إذا بحثت عنّي ستجدني في مدينة جميلة تغسلها أمواج البحر. إذا جئت إلى هناك يمكننا أن نتزوّج. فأنا لست خالتك كما يقول الناس. أنا لا أعرف لي أمًّا، ولا أبًا، ولا أسرة أنتمي إليها».

مالت عليه، واحتضنته. بكت بصوتٍ عالٍ. أحسّ بطعم دموعها المالح على شفتيه فاستيقظ ليجد دموعه هو تسيل، لكن لم يشعر هذه المرّة بالحجر الصغير ينقلب تحت ضلوعه كالإثم الثقيل. مسح دموعه، وقام ليزيح الستارة، ويدخل أضواء النهار الجديد. كانت الشمس قد صعدت في السماء ولمعت أشعّتها في الترعة خلف أشجار النخيل. عاد وجلس على السرير. الأيّام الماضية شحنته بالأفكار، والأحاسيس. تذكّر أنّه أثناء الساعات الطويلة من الحديث مع خالته «فاطمة» عبّر عن حلم كان يراوده كثيرًا. أن يصبح طيّارًا يصعد في

السماء وينقضّ على أعداء البلاد ليبيدهم. لكن وهو عائد في القطار من «بور سعيد» جاءت وقفته في جزء من الطريق إلى جوار صول في سلاح الطيران يعمل في صيانة الطائرات المقاتلة «الميج». قال له أثناء الحديث الذي دار بينهما إنّ الطائرات المصريّة ضربت جميعًا وهي راقدة على أرض المطارات الحربيّة. إنّها لم تصعد إلى السماء مرّة واحدة ولم تشتبك مع العدوّ في أيّة معركة جويّـة. كان الأسى يطلّ من عينيْ الرجل أحاطت بها التجاعيد الرفيعة. فأحسّ أنّ أحلامه هو هوت من السماء لتتحطّم على الأرض الصلبة للواقع الذي خفي عليه. الحكّام الذين وصفوا أنفسهم بـ«الأحرار» لم يقولوا الصدق. كذبوا على الناس، وغرقوا في الفساد ومكاسب الحكم. غرقوا في البحث عن مغانم لهم، وللمقرّبين إليهم، وفي التسلّط بلا حدّ.

ارتدى ملابسه، ووقف أمام المرآة يتأمّل وجهه. قالت له أمّه إنّ الشبه بينه وبين أبيه يتزايد على مرّ السنين. أدرك فجأة، ربّما لأوّل مرّة أنّ أباه مات، أنّه رحل إلى الأبد. مات في حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل. حارب لكي تقتسم فلسطين بين حكّام إسرائيل والعرب. حارب بالأسلحة الفاسدة التي تاجر بها الملك ورجاله. في تلك الأيّام كان لا يزال صبيًّا صغيرًا. لكن فيما بعد كانت أمّه تتحدّث معه عن رجلها الذي فقدته وهي لا تزال امرأة شابّة. قالت له إنّ ملامحه هو مختلفة عنه ما عدا نظرة العينين، والفارق بين الأذنين. فالأذن اليسرى عنده مثل أبيه أكبر من اليمنى. يتدلّى صرصورها حتّى زاوية فكّه المدبّب...

(٥)

جلس على المقعد وأطلّ من النافذة على الحقول تمتدّ أمامه. نضجت الغلّة وغطّت الأرض ببساط ذهبيّ اللون. كانت خالته «فاطمة» تشدّ على أذنه اليسرى ضاحكة، ثم تقبّله على رأسه. كان يشعر بالحنان في شفتيها. وكان المدرِّس يقرصه منها كلّما أخطأ في إعراب جملة. وكان ابن المأمور يشدّه منها بقسوة وهو جالس وراءه. وفي أحد الأيّام طفرت الدموع من عينيه فاستدار وصفع الولد على وجهه فأصرّ الناظر على طرده من المدرسة، وطلب منه إحضار وليّ أمره. وفي اليوم التالي جاءت أمّه إلى المدرسة لتطلب من الناظر إرجاعه. لكن عندما وجد امرأة تقف أمامه قال:

«طلبت منه أن يحضر إليّ وليّ امره، ولم أطلب منه أن يجيء إليّ بأمّه».

لمح عينيْ أمّه وقد أصبحتا كتلتين من السواد الصلب. قالت:

«أبوه استشهد في حرب سنة ١٩٤٨ وأنا التي ولدته، وربيّته إلى أن كبر».

قال:

«أنت لم تحسني تربيته. فكيف يتجرّأ ويصفع ابن المأمور على وجهه؟»

قالت:

«لأنّه لا يكفّ عن الشدّ على أذنه وهو جالس وراءه. والبادئ أظلم».

قال الناظر:

«امشي من أمامي يا وليّة. أنت جاهلة ولا تعرفين الأصول. إنّه مطرود لمدّة أسبوع».

أدرك أنّ الظلم يقع على الناس ممّن يتحكّمون في شؤونهم، فيسايرونها وفقًا لمصلحتهم. بعد العشاء رقد إلى جوار خالته «فاطمة» وأسرّ إليها بما خطر له. قالت:

«أنت على حقّ يا «إبراهيم» لكن في أيديهم القوّة فماذا نستطيع أن نفعل؟»

قال: «أن نقول الحقيقة مهما كان».

قالت: «وهل تقول أنت الحقيقة دائمًا؟» فصمت.

كان يحبّها، وينام في حضنها لكنّه يخفي هذه الحقيقة عمّن حوله. أحيانًا يهمس له صوت دفين بأن يعلن ما يحسّ به نحوها. فما الضرر من هذه العلاقة تملأهما بالسعادة دون أن تسيء إلى أحد. إنّها توقظ فيه كلّ المشاعر الطيّبة. تجعله على استعداد لأن يفعل أيّ شيء من أجلها. أن يعلن أنّه يحبّها، ويريد أن يتزوّجها ليعيش معها إلى الأبد.

في داخله دائمًا هذا الإحساس بالفراغ الذي تركته. إنّه لن يسمع صوتها وهي تنادي عليه من الحجرة المجاورة. التستّر على حبّهما هو الذي أدّى إلى الكارثة، إلى هروبها، واختفائها من حياتهم. هكذا تبدو له الأشياء عندما يخلو إلى نفسه. إنّ هناك قيودًا شوّهت حياته، والآن لا يعرف أحد ما الذي جرى لها. هل ما زالت على قيد الحياة؟

هل تشرّدت مع آلاف المشرّدين؟ ربّما كانت خادمة في أحد المنازل وتتعرّض صباح مساء للإهانة، أو أصبحت مومسًا تقف في الشوارع، ترتعش من البرد مثل القطّة الصغيرة البائسة، باحثة عن رجل يغتصب جسدها مقابل عدّة قروش. تلمح الأصابع الكبيرة الخشنة انتصبت عليها الشعيرات السود تمتدّ إليها لتهتك عريها الأعزل. في عينيها نظرة غضب وانكسار. تغلق عليهما جفونها حتّى لا ترى وجه الرجل عندما يرقد فوقها لكنّها تسمع فحيح أنفاسه مع حركة جسمه يهبط فوق صدرها.

أخذ جسمه يرتعش. يرى نظراتها الصافية تنظر إليه في رجاء كأنّها تطلب منه الإنقاذ. طاردته هذه الصور منذ أن ركب القطار وسط زحام النازحين أمام زحف الغزاة. وهذه الهزيمة أليس سببها إخفاء الحقائق عن الناس؟ أليس سببها الكذب، والنفاق خوفًا من سياط الحكّام؟ إنّه لا يريد أن يستمرّ هكذا مغمض العينين. يريد أن يفهم ما الذي يجري. ما الذي أدّى إلى الهزيمة، إلى ضياع الأحلام، إلى المآسي التي رآها في وجوه الناس وهو واقف في القطار. عذابه الشخصيّ ينبعث مع عذاب الناس. يثير فيه رغبة في أن يصرخ بأعلى صوته. أن يعبّر عن كلّ ما يختلج في نفسه. فالأشياء كلّها انهارت من حوله، وتركته ليشقّ طريقه في الظلام، في عالم انطفأت فيه كلّ الأضواء.

*

صباح اليوم التالي توجّه إلى المجلّة مبكرًا. كان الناس يسيرون في الشوارع كأنّه لم يحدث شيء. لم يجد أحدًا من المحرّرين في المجلّة. طلب فنجانًا من القهوة من أحد الفرّاشين لكن بعد وصوله بمدّة قليلة رنّ جرس التليفون. أنزل قدح القهوة الذي يرتشف منه

وقام ليردّ. فوجئ بصوت يقول بسرعة «صباح الخير . . رئيس التحرير يريد الأستاذ «إبراهيم سالم» فوراً». ثم أغلق الخطّ. ترك قهوته وأوراقه، والحقيبة الصغيرة التي كانت معه، وهبط بسرعة على السلّم. لم يجد مدير المكتب في مكانه، لكن كان الباب الذي يفصل بين الغرفتين مفتوحًا، فلمح رئيس التحرير وهو يروح ويجيء فوق البساط مطرقًا إلى الأرض. نقر على الباب المفتوح وخطا داخل الغرفة فالتفت إليه. قال:

«الحمد لله على السلامة. متى وصلت؟»

قال:

«بالأمس».

دار حول مكتبه وجلس. أخرج سيجارة من العلبة. أشعل السيجارة، وسحب منها نفسًا طويلاً ثم سأله عن التحقيق. قال له إنّه لم يكتب شيئًا فارتعشت ملامحه كأنّه غضب غضبًا صارع لكي يكتمه. وصف له الحالة التي وجد عليها المدينة. لكن لم يبدُ عليه أيّ استعداد للإنصات. أخذ يعنّفه بصوت علت نبراته حتّى أصبحت صارخة. لم يهدأ إلاّ عندما وعده بتقديم التحقيق خلال أسبوع. قبل أن يغادر غرفته سأله إن كان يسمح له بالإطّلاع على المجلاّت والصحف الأجنبيّة التي وصلت إليه، فتردّد لحظة ثم أشار إلى كوم من المطبوعات وضعت فوق منضدة إلى جواره.

بعد أسبوع قام بتسليم تحقيق عن رحلته قسّمه إلى ثلاث حلقات. في التحقيق أورد المناقشات التي جرت بينه وبين المهاجرين دون أن يجري فيها تغييرات. حرص على تسجيل أقوال الرجال، والنساء،

والأطفال بدقّة وأرفق بها الصور التي التقطها في القطار، وكذلك وصفًا للجنود الذين رآهم في المدرسة جالسين في الحوش، وأقدامهم متورّمة من السير في رمال الصحراء جماعات متفرّقة قضت أيّامًا بلا غذاء أو ماء.

مرّت الأيّام دون أن يحدث شيء. سأل نائب رئيس التحرير عن موعد نشره فرفع كتفيه العريضتين وأخرج البخّاخة من درجه ليرشّ حلقه ثم قال: «عن قريب ستعرف». ثم التفت إلى صورة كبيرة رسمها أحد الفنّانين للغلاف، وأخذ يفحصها من بين جفونه المنتفخة كأنّه نسي وجوده، فانصرف، وقد تملّكه شعور بأنّ هناك شيئًا أراد إخفاءه.

قرّر أن يترك الموضوع جانبًا حتّى لا يتزايد عنده القلق الذي أحسّ به. لكن في صباح أحد الأيّام وهو يتأهّب لمغادرة المنزل سمع دقّات على الباب فأسرع إليه وفتحه. وجد رجلاً يقف أمامه. حول خصره ربط حزامًا من الجلد برز منه مقبض المسدّس، ومن فتحتي أنفه النافرتين أطلّت شعيرات سود تشابكت مع شاربه المصبوغ. سأله:

«حضرتك الأستاذ «إبراهيم مصطفى سالم»؟»

قال: «نعم».

«أنا من مباحث قسم «البدرشين». جئت لإبلاغك بضرورة التوجّه صباحًا إلى مبنى المخابرات العامّة بالقبّة». ثم أخرج ورقة صغيرة متّسخة من جيبه سطّرت عليها بعض الكلمات وأشار بإصبع قصير معقود إلى مساحة خالية ثم أضاف: «وقّع هنا».

أخرج القلم من جيب السترة الداخليّ ووقّع بيد رجفة فخرجت الميم الأخيرة عن المساحة البيضاء وتشابكت مع الكلمات. فحص

الرجل توقيعه بإمعان كأنّه يشكّ فيه ثم دسّ الورقة في محفظة وضع فيها بعض الأوراق ثم انصرف. لمح ظهره العريض، وهو يبتعد بخطوة ثقيلة، واللّون الأصفر الفاقع لجرابه يطلّ أسفل البنطال. ثم أغلق الباب وجلس على الكنبة. أحسّ بقلبه يدقّ كأنّه فقد الانتظام فظلّ جالسًا لا يتحرّك إلى أن استعاد هدوءه، ولم يعد يشعر بالدقّات. كلمتا المخابرات العامّة تتردّدان في أذنيه، وصوت يهمس في أعماقه بسؤال: «لماذا يطلبونك هناك؟» أحسّ وكأنّ قواه تتسرّب منه، إنّه عاجز عن مغادرة البيت، فصعد إلى غرفته، واستلقى على السرير.

ذهب إلى مبنى المخابرات العامّة مبكرًا في الصباح وأخذ يمشي أمام البوّابة حتّى الساعة التاسعة. أدخله عسكريّ ضخم الجثّة إلى صالة الاستقبال. تقدّم إلى الحاجز الزجاجيّ وأبلغ أحد الجالسين خلفه أنّه جاء وفقًا للإشارة التي وصلته بالأمس عن طريق النقطة فسأله عن اسمه، وطلب منه أن ينتظر. بعد قليل اقترب منه شاب يرتدي «بيريه» ومعطفًا خاكيّ اللون وحذاءً من المطّاط الأسود. صعد به السلّم إلى الدور الثالث، وقاده في ممرّ طويل على جانبيه أبواب مغلقة. الممرّ صامت لا يتحرّك فيه أحد، والأبواب موزّعة على مسافات متساوية لا تزيد عن عدّة أمتار.

عند آخر الممرّ فتح الشاب أحد الأبواب، وأدخله في حجرة ثم أغلق الباب خلفه. دار بعينيه حول الجدران العارية المصنوعة من الأسمنت. الحجرة مضاءة بمصباح فلورسينت، فلا توجد فيها إلاّ كوّة مفتوحة قرب السقف مغطّاة بمربّع من السلك. عند أحد الجدران دكّة من الخشب، وفي منتصف الحجرة مقعد، فاستقرّ على الدكّة مدركًا أنّ المقعد مخصّص للشخص الذي سيلتقي به.

بعد الصدمة الأولى التي أصابته استغرق في فحص الحجرة كأنّه يبحث عن شيء لم يلحظه عندما دخل. زحف عليه إحساس بالكآبة، وبقسوة المكان ينذر بمخاطر غامضة. إنّه هنا في هذا المكان وحده. لا أحد يعلم بوجوده فيه فلم يقل شيئًا لأمّه حتّى لا يثير مخاوفها، ولا لأيّ شخص آخر. كان يمكن أن يخطر خاله «عبد الرحيم» لكنّه تعوّد منذ سنين أن يكتم الأشياء، أن يتصرّف في حياته وحده. في هذا المكان، إذا نادى على أحد، وحتّى صرخ بأعلى صوته، لن تنفذ صرخاته خلال الجدران الأسمنتيّة أو الباب.

تململ في جلسته. بذل جهدًا ليطرد الرعب الذي أخذ يسيطر عليه. نظر إلى معصمه. طال انتظاره واقتربت الساعة من العاشرة والنصف لكن لم يأتِ أحد. قام من جلسته ودار حول الحجرة عدّة مرّات. ثم توقّف فجأة. خطرت في باله فكرة. في هذا المكان يمكن أن ينقضّوا عليه، أن يعذّبوه، أو حتّى يقتلوه ويخفوا جثّته بعد ذلك. فتسلّل إليه الرعب من جديد وشيء كالوهن ثم حلّ محلّهما مزيج من التوتّر والضيق، كأنّ كلّ ما يريده هو أن يحدث شيء، أيّ شيء يخرجه من هذا الجمود، من الحملقة في الجدران تزحف عليه وتكاد تخنق أنفاسه. أخذ يحرّك ساقيه، وذراعيه بقوّة كأنّه يحاول أن يبعث في نفسه القوّة الحيّة التي تسرّبت منه، وتركته ضعيفًا عاجزًا. لماذا هذا الانتظار الطويل؟ جلس على الدكّة، وأسند رأسه على الجدار ثم راح في شبه غفوة. توالت الصور في ذهنه. رأى جسمه راقدًا في قاع الساقية بعد أن اختفت خالته «فاطمة». تحسّس الندبة المحفورة في خدّه فرأى الدماء تسيل على قميصه الأبيض، والقبضات تنهال عليه. وجه رئيس التحرير يطلّ عليه من خلف المكتب. رفع النظّارة لينظّفها

بمنديله فلمح الغضب البارد كغشاء من الزجاج يغطّي عينيه. أحسّ بالقلق والخوف يرتفعان في صدره مثل المياه تصعد في حوض يرقد فيه مشلول فتكاد تغرقه تحتها. حاول أن يفكّر في أشياء تبعث فيه التفاؤل والبهجة، لكنّها ظلّت تفلت منه وتتركه نهبًا للمخاوف.

فجأة انفتح الباب ودخل منه رجل طويل القامة يرتدي بنطالاً وقميصًا فتحت أزراره عند أعلى صدره. ذراعاه قويّتان يغطّيهما شعر كثيف أشقر في لون الشعر القصير المقصوص حول رأسه. من ركن فمه تدلّت سيجارة أشعلها بعد أن جلس على المقعد ثم أخذ يفحصه ببطء. ظلّ هكذا ينفث الدخان في صمت ويتطلّع إليه. عيناه مثل كتلتين من الرصاص تشوبهما زرقة يحيطهما البياض الأبيض.

سأله «اسمك؟»

فأجاب:

«إبراهيم مصطفى سالم».

«مهنتك؟»

«صحافي في مجلّة صوت الحرّيّة».

«منذ متى؟»

«منذ سنة ١٩٦٢».

مال قليلاً إلى الأمام قبل أن يستطرد:

«لماذا ذهبت إلى «بور سعيد»؟»

«أرسلني رئيس التحرير لأقوم بعمل تحقيق عن المدينة في ظروف الحرب».

«هل التقيت بأحد من المسؤولين هناك، أو بعد أن عدت من المدينة؟»

«لا . . الظروف لم تسمح بذلك».

«هل كلّفك أحد بأن يتضمّن تحقيقك تحليلاً عن مسار الثورة، وعلاقته بما سمّيته أنت «الهزيمة» التي لحقت بنا في الحرب؟»

فوجئ بالسؤال. كيف توصّل إلى هذه المعلومات. لا بدّ أنّ أحدًا سرّبها إليه، أو أعطاه نسخة ممّا كتبه. أحسّ بالجدران تدور من حوله، بالإعياء الفظيع والسؤال يتردّد في ذهنه كالصدى. عاد إلى نفسه جالسًا على الدكّة، إلى العينين مصوّبتين إليه كأنّهما ستخترقان عظام رأسه لتقرأا ما يدور في ذهنه. بذل جهدًا ليتماسك قبل أن يجيب.

«لا. أردت أن أغطّي الموضوع من كلّ جوانبه. أن أردّ على التساؤلات والحيرة التي أصابت الناس. . ألاّ يمرّ ما حدث دون محاولة لدراسة الأسباب».

«يا سلام. أردت أن تغطّي الموضوع!! أن تدرس الأسباب!! ما شأنك أنت بهذا!؟ لو كنت تريد أن تعرف الحقيقة لماذا لم تسأل أحد المسؤولين قبل أن تكتب ما كتبته في التحقيق؟ كيف تتجرّأ على الثورة وتتحدّث عن فساد دبّ فيها ثم ترجعه إلى سيطرة طبقة جديدة من الحكم؟ يجب أن تقدّم إلى المحاكمة لتنال الجزاء الذي تستحقّه. لكن لدينا أشياء أهمّ من تخريفات «عيّل» تافه مثلك يستقي آراءه من الإذاعات الأجنبيّة، أو من دعايات الأعداء. لكنّي سأسمح لك هذه المرّة بالعودة من حيث جئت. لكنّك إذا عدت مرّة أخرى إلى الطعن في الثورة بأيّ شكل ستعاقب دون رحمة».

لا يتذكّر كيف وصل إلى «البدرشين» في ذلك اليوم. أحسّ بشيء كالدوّامة في عقله لم تهدأ إلاّ بعد أن عاد إلى البيت وصعد إلى حجرته

كالعصفور استقرّ في عشّه بعد أن كادت الطيور الجارحة أن تفتك به.

ظلّ يتردّد على المجلّة كأنّه لم يحدث شيء. لم يناقشه أحد في التحقيق الذي كتبه عن رحلته، ولم يطلبه رئيس التحرير ليقابله. مرّ شهر ونصف. غاب في إجازة نهاية الأسبوع ويوم السبت حضر في الصباح ليجد مظروفًا مغلقًا على مكتبه. فتحه ليجد خطابًا من المدير الإداري يبلغه بانتهاء العقد المبرم بينه وبين المجلّة، ويطلب منه تسليم عهدته. جلس خلف مكتبه وقرأ الخطاب مرّة ثانية. أحسّ بشعور غريب كأنّه تخفّف من عبء كان يثقل عليه دون أن يعرف مصدره. كأنّ هذا الخطاب سيقطع علاقته بمرحلة من حياته ضاق بها لتفتح أمامه آفاق جديدة لا يعرف إلى أين ستقوده. أطلّ من النافذة على الشارع الذي سار فيه الناس كأنّه لم يحدث شيء. قام من جلسته. خرج من الحجرة وهبط على السلّم تاركًا حقيبة الأوراق كأنّه يريد أن يتخلّص منها. توقّف أمام الباب لحظة وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن ينضمّ إلى الناس سائرًا على قدميه.

❊

ماتت أمّي بعد الهزيمة بشهرين. أُصيبت بحمّى مرتفعة ورقدت في السرير. كانت تتقيّأ باستمرار، وترفض أن تبتلع أيّ شيء. فرشت حصيرة على الأرض في غرفتها، وبقيت إلى جوارها طوال النّهار واللّيل. ذهب خالي «عبد الرّحيم» ليبحث لها عن طبيب. رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم عالجه مرّة في مستشفى «البدرشين». كنت أراه أحيانًا يبتاع اللّحم من شادر منصوب على الطريق. يمشي بعرجة خفيفة، ويحمل معه حقيبة قديمة من الجلد.

فحصها وأعطاها حقنتين، ثمّ نصحنا بنقلها إلى مستشفى الحميات. في اليوم التالي أخذ ظهرها يتقوّس بطريقة غريبة كأنّها تعاني من حالة عصبيّة، ثمّ زاد القيء، وأصبحت تشكو من صداع عنيف. فأحضر خالي طبيبًا آخر أعطاها سوائل في الوريد، وطلب منّا أن نسرع بإحضار سيّارة نصحبها فيها إلى مستشفى الحميات، أو إلى «مستشفى أمّ المصرين». رحت أبحث عن سيّارة للأجرة عدت بها بعد ساعتين لأجد خالي «عبد الرّحيم» جالسًا إلى جوارها، والدّموع الصامتة تتساقط من عينيه. كانت راقدة على ظهرها تطلّ قدماها المشقّقتان من تحت غطاء السّرير. وجهها الأسمر تحوّل إلى لون الرّماد. فأحضرت مرآة صغيرة وضعتها قرب فمها فلم تغطّها سحابة من البخار. أدركت أنّها ماتت.

حملناها في النعش حتّى الجامع القريب، أنا، وخالي «عبد الرّحيم» وبعض الرّجال من البيوت القريبة. دفنّاها في قبر أقمناه بسرعة عند رأس الغيط. ثمّ أجرنا بعض المقاعد، ووضعناها أمام البيت. في المساء لم يحضر للتعزية فيها سوى نسايب خالي «عبد الرّحيم» جاؤوا من «الحوامديّة»، وامرأة حضرت بمصاحبة رجلين. كانت ترتدي الملس، وتضع حول رأسها شالاً من الحرير. لاحظت أنّها، عندما وصلت سلّمت باليد على خالي «عبد الرّحيم» والرجلين اللّذين حضرا معها ساهما في حمل النعش عندما خرجنا به من البيت. كنت عازفًا عن الكلام فجلست بعيدًا عن أضواء المصابيح وتركت خالي «عبد الرّحيم» مع المعزّين، وبعد قليل سرحت بي الأفكار وأنا أتطلّع إلى الحقول تبدو مثل البحر في اللّيل، وأستمع إلى همس الرّيح. لم أشعر بحزن كبير. عشت مع أمّي سنين طويلة دون أن تربط بيننا عاطفة

عميقة، رغم أنّني كنت طفلها الوحيد. لم تكن تضمّني إلى صدرها، أو تظهر نحوي ما يوحي بالحبّ. لكنّها ظلّت تكدح لتوفّر لي احتياجاتي، ولكي ترعاني، وتحميني. فأحسست، أنّ سندًا متينًا اختفى من حياتي.

كنت أتساءل عن سرّ هذا البعاد، وأتوق إلى نظرة، أو لمسة، أو حضن يوحي أنّ ما بيننا أكثر من مجرّد شعور بالمسؤوليّة، لا بدّ أن تقوم بها لأنّها ولدتني. بدا لي في لحظات أنّ هناك شيئًا يتعلّق بإحساسها نحو أبي. إنّ هذا الصّمت والبعاد في تعاملها معي كان امتدادًا للمسافة التي قامت منذ وقت مبكر بين الاثنين. لم أرها تتعامل معه بشيء من الرّفق سوى في تلك اللّيلة التي عاد فيها في إجازة قصيرة قبل أن يرحل من جديد إلى الحرب. ولم أشعر بالحنان في عينيها ولمساتها إلاّ لحظة أن دخلت من باب البيت بعد رحلتي المشؤومة إلى بور سعيد.

علا صوت امرأة فجأة. التفتّ. كأنّ قوّة انتزعتني من بحر الظلام. في الصوت رنين التحدّي للسكون. نظرت باتجاه المرأة. فوجئت بعينين تلمعان ببريق قويّ في الملامح الحادّة النحاسيّة اللّون. عدت أتطلّع إلى الحقول الممتدّة أمامي هاربًا من جرأة النظرات والملامح المحاطة بالطرحة تتماوج في الرّيح. تردّدت أصوات الرّجال. بدت أكثر خشونة في ذكورتها، ثمّ جاءني صوتها من جديد ينفذ إليّ كأنّه يخترق غيوم النسيان المتراكمة ليوقظ فيّ ذكرى قديمة.

رأيت نفسي مقرفصًا على كوم من السبخ، وأنا أتطلّع إلى الدوار الكبير، يحيط به سور عال من الطوب اللّبن والطّين، كأنّه مغلق على أسرار لا يمكن النفاذ إليها. عدت مع أبي من السّوق وبدلاً من أن

يتّجه مباشرة إلى البيت توقّفنا عند الترعة. أمرني بأن أنتظره تحت شجرة التّوت، وتركني ثمّ سار نحو البيوت في الناحية الشرقيّة. أصابني الفضول. ترى إلى أين يتّجه أبي، ولماذا لم يأخذني معه؟ انتظرت قليلاً حتّى انحنى في حارة، ولم أعد أراه. وضعت طرف جلبابي بين أسناني وعدوت بأقصى سرعة وراءه. أخفيت نفسي وراء جدار عند بداية الحارة، وأخذت أتلصّص من فجوة بين أحجاره. لمحت أبي سائرًا بخطوة متمهّلة لا يلوي على شيء، لكنّه في لحظة توقّف قليلاً ودار بنظراته حوله كأنّه يريد أن يطمئنّ أن لا أحد في الحارة يراه، ثمّ اقترب من باب انفتح أمامه لتظهر فيه امرأة أدخلته بسرعة ثمّ أغلقته وراءه. لم ألتقط منها سوى ذراعها القويّة والملس الأسود اللاّمع المنحدر فوق ساقها. لقد توارت في لمح البصر. اقتربت من البيت الذي اختفى فيه أبي بحرص ملتصقًا بالجدران، وتوقّفت على مسافة خشية أن يخرج فيلمحني وأنا أتلصّص عليه. ظللت ساكنًا في مكاني. كان القيظ شديدًا والحارة صامتة، لا تتحرّك فيها حتّى دجاجة. لا شيء سوى طنين الذباب ورائحة المياه المختلطة بالصابون ألقيت فوق التراب. بحثت عن مكان أختبئ فيه. درت حول البيت وفي الناحية الأخرى اكتشفت ممرًّا ارتفع فيه كوم من السبخ تظلّله الدور المجاورة. صعدت فوق الكوم، وجلست مقرفصًا ثمّ أخذت أجفّف عرقي في الجلباب. كان الدّجاج يجري حولي في الممرّ الظّليل. طال انتظاري فانهمكت في تأمّل ديك كان يحاول امتطاء دجاجة صدرها ممتلئ، وريشها ناعم أحمر اللّون. ظلّت تفلت منه المرّة بعد المرّة رغم العراك والجهود العنيفة التي بذلها لإخضاعها. وفجأة سمعت صوت أبي يتردّد من مسافة قريبة فألصقت أذنيّ بالجدار

لألتقط ما يقوله، لكن كانت الكلمات مضغومة فلم أتبيّنها. ثمّ جاءني صوت امرأة تردّ عليه بنبرة فيها تحدٍّ وهي تقول «قلت لك ما بيننا انتهى. تركت لك الولد، فما الذي تريده بعد ذلك؟»

كان صوتها عميقًا دافئًا رغم الغضب الذي سرى فيه. انتصبت فوق الكوم. عند أعلى الجدار وجدت ثقبًا فألصقت عيني فيه. لمحت المرأة تقف أمام أبي.. عيناها في سواد الفحم، واسعتان مسلّطتان عليه. حرّكت بصري فظهر أنف أبي البارز، وشاربه، ثمّ انحدرت به إلى أصابعه تقبض على رأس العصا التي أصبح يتكئ عليها بعد أن كسرت عظمة في ساقه في حادث سيّارة اصطدمت به. الصمت عميق لا أسمع فيه سوى أنفاسها. توقّعت في أيّ لحظة أن أسمعها تستغيث، أن أرى العصا ترتفع في الهواء لتهوي على رأسها فأكاد أتوق إلى وقعها في أذنيّ وهي ترتطم بجسمها، وإلى صوتها وهي تصرخ لأنطلق من أسر الجمود المسيطر عليّ. لكن لم يحدث شيء من هذا. ظلّت أصابع أبي قابضة على العصا. ثمّ استدار واختفى من ناظريّ فعدت إلى جلستي فوق كوم السبخ، إلى أن خرج من الباب، واتّجه ناحية الترعة. تبعته هي بعد قليل سائرة بمحاذاة مصنع الحليج. لمحت قوامها يميل في الجلباب الواسع وأشعّة الشمس تسقط على ضفيرتها الطويلة فتبرق بوميض نحاسيّ، ثمّ انطلقت أعدو بأقصى سرعة لأعود إلى وقفتي تحت شجرة التوت قبل أن يصل أبي.

عدت إلى نفسي جالسًا في اللّيل. التفتّ حولي لأجدها وقد اختفت هي والرّجلان اللّذان حضرا معها. انتقلت إلى جوار خالي «عبد الرّحيم» وسألته:

«من هي هذه المرأة التي جاءت للعزاء مع الرّجلين؟ لم أرها من قبل».

نظر إليّ مليًّا وقال: «ولا أنا. أنقل معي المقاعد داخل الدّار. السّاعة قربت على العاشرة والنصف. ولا أظنّ أنّ أحدًا سيأتي للعزاء الآن».

«لكنّك رحّبت بهم عندما جاؤوا، وجلست تتحدّث معهم مدّة طويلة. فلا بدّ أنّك تعرف عنهم شيئًا».

«أبدًا. كان من واجبي الترحيب بهم. ظننت أنّك تعرفهم، وأنّك عازف عن الحديث. فعندما يحزن الإنسان يفضّل أحيانًا أن يبقى وحده بعيدًا عن النّاس».

لم أقتنع، ولكنّي صمتّ. وبعد العشاء صعدت إلى غرفتي لأنام. تملّكني القلق كأنّي لا أعرف من أين جئت، ولا إلى أين أسير. الحياة تزيد غموضًا كلّما مرّت السنون. أو ربّما زادت التساؤلات وزاد معها شعوري بعدم الاطمئنان. خلعت ملابسي، ووقفت أمام المرآة. لاحظت لأوّل مرّة أنّ شعري شاب فوق الأذنين. عيناي تنظران إلى مساحتين من السّواد يشعّ منهما بريق قويّ. هذه المرأة من هي؟ ربّما هي الغازيّة التي كان يزورها خالي «عبد الرّحيم». سأسأله عندما أجد الفرصة المواتية. لكنّي أعرف أنّني إذا سألته سيحملق في السّقف ويقول «غدًا سأقوم بتخزين التبن ولا بدّ أن أستيقظ مبكرًا، أو شيئًا من هذا القبيل.. ليتركني دون أن يجيب على السّؤال. لماذا تظلّ حياتي محاطة بالغيوم، بأسئلة لا أجد لها جوابًا؟»

في تلك اللّيلة تكرّر الحلم الذي رأيته من قبل. خالتي «فاطمة» تجلس على شاطئ الترعة كأنّها تنتظر قدومي. هبطت من القطار فأقبلت نحوي. أمسكت بيدي، وجذبتني لأجلس على الحصيرة إلى جوارها. نظرت في عينيّ وقالت: أنا أحبّ عينيك السوادوين. فيهما

بريق يجذبني إليك. أريدك يا «ابراهيم». أشتاق إلى أحضانك. لماذا تبقى هنا في «البدرشين»؟ لماذا لا تأتي إليّ لنعيش معًا قرب البحر. لنصبح زوجين ولا نفترق بعد ذلك؟. فأنا لست خالتك. والحبّ الذي جمع بيننا بدّدنا أيّامه. اترك «البدرشين» في أقرب فرصة واحضر إليّ لنستأنف حياتنا».

*

منذ اليوم الذي فصلوني فيه من عملي في المجلّة لم أتوقّف عن محاولة الالتحاق بالصحافة في مكان آخر. كان لا يزال يراودني الحلم الذي جعلني أتقدّم للدراسة في كلِّيّة الإعلام. لم يتوقّف هذا الحلم عن النموّ أثناء سني الدّراسة. كانت تتردّد في أذنيّ كلمات الأستاذة اعتدال: «أنت نابغة يا «ابراهيم»، وصاحب كفاءة». فكّرت في أن أتّصل بها ولكنّي لم أجرؤ على ذلك بعد أن تهرّبت من تنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسي بأن أساعدها في البحث الذي فكّرت في إجرائه عن الإعلام في الاتحاد الاشتراكيّ. كلّما ذهبت إلى صحيفة أو مجلّة سألوني عن خبرتي السّابقة. وعندما أجيب بأنّني عملت لمدّة خمس سنوات في مجلّة «صوت الحرِّيَّة» أقرأ الاهتمام على وجوههم. لكن بعدها يأتي السّؤال الآخر «لماذا تركت مجلّة لها وضع مميّز في عالم الصحافة؟. فأحكي لهم ما حدث بكلّ أمانة. عندئذ يرفع المسؤول الذي أجلس أمامه سمّاعة التليفون وينخرط في حديث طويل، أو يبدأ في تقليب الأوراق الموضوعة أمامه، ثمّ يطلب منِّي ترك عنواني حتّى إذا احتاجوا إليّ يمكنهم أن يرسلوا خطابًا لاستدعائي.

مع الأيّام تعلّمت ألاّ أشير إلى ما حدث لي، أن أكتفي بتقديم درجات التخرّج من كلِّيّة الإعلام، موضحًا أنّني كنت أوّل الدفعة..

لكن مرض أمّي، وظروفنا الصعبة اضطرّتني إلى فلاحة المساحة الصغيرة من الأرض التي ورثتها عن أبي، ممّا حال دون أن ألتحق بعمل في الصحافة. أقرأ الشكّ والتساؤل في عيونهم. يطلبون منّي أن أعود بعد فترة تتيح لهم الفرصة ليبحثوا احتياجاتهم، «فالظروف تغيّرت كما تعلم». لكن كلّما عاودت الكرّة قوبلت بأبواب موصدة في وجهي أو بنظرة جامدة، أو بالسكرتير يقول إنّ «الأستاذ سافر في مهمّة، وإنّ عليّ أن أتّصل تليفونيًّا قبل أن أحضر في المرّة القادمة».

أحسست أنّ الصحافة أغلقت في وجهي، وعليّ أن أبحث في مجالات أخرى. هكذا ظللت أعمل في مهن متفرّقة انتقلت بينها على فترات متقاربة، إلى أن استقرّ بي الحال في محل لبيع الكشري في حيّ «معروف» وسط مدينة القاهرة يملكه رجل اسمه «أبو عطوة». أجلس على «الكيس» بالتناوب مع ابن صاحب المحل. كنت أضيق بساعات الجلوس الطويلة، فيتملّكني القلق. أمشي في الشوارع ساعات طويلة بعد انتهاء العمل سائرًا دون أن أعرف أين ومتى أتوقّف. عيناي تبحثان في كلّ الاتجاهات عن مخرج. أقرأ الإعلانات يوميًّا في الصحف. أسأل الجالسين في المقاهي عن فرص للعمل. أفحص واجهات المحلاّت عندما أسير أمامها. وفي إحدى الأمسيات وأنا أتسكّع في الحي، بعد أن أغلق المحل أبوابه، وأطفئت أنواره خلف الزجاج الملوّن، قرّرت أن أتناول وجبة من الكباب المشوي والخبز السّاخن بعد أن ضقت بالكشري الذي لم أتوقّف عن ابتلاعه.

كانت السّاعة قاربت الحادية عشرة مساء عندما خرجت من المطعم إلى الشّارع. وجدت نفسي أمام واجهة زجاج مضاءة بكشّاف. جذبت

أنظاري لوحة فتوقّفت أمامها. كلّ شيء فيها باهت، البحر، والرّمال، والسّماء ممتدّة بلا نهاية، محاطة بالغيوم تطفئ ألوانها. مساحات خالية ساكنة، بلا حركة، بلا معنى. وعلى الشاطئ مجموعة من الصيّادين يمسكون بالشباك الخالية من الأسماك التي سحبوها من البحر. . . ملامحهم تحت القبّعات غير واضحة كأنّ الشّمس والرّياح مسحت تضاريسها، فلا يظهر منها سوى عين وأنف، كأنّها بقايا تركها الزمن وراءه.

أحسست بنفسي منجذبًا إلى اللّوحة، غارقًا في تفاصيلها. خطر لي أنّني مثل الصيّادين على الشاطئ لم أحقّق شيئًا فشباكي ظلّت خالية. انتزعت نفسي كالنّائم يعود إلى اليقظة. من خلف زجاج الباب لمحت رجلاً يميل فوق لوح عريض، في يده قلم يخطّ به على فرخ من الورق الأبيض. نقرت على الباب ودخلت، فرفع الرّجل رأسه وقال: «أيّة خدمة يا أستاذ؟» كأنّه تعوّد أن يستقبل الزّائرين في اللّيل.

في تلك اللّيلة طال بيننا الحديث. كان الرّجل صاحب ورشة تصنع الأفاريز للوحات الرسّامين. عرض عليّ أن أساعده في هذا العمل نظير أجر يساوي ما كنت أتقاضاه من جلوسي على الكيس في محلّ «أبو عطوة». أوضح لي أنّه لا يستطيع أن يزيد المبلغ الذي عرضه عليّ، فالورشة انخفض دخلها في السنين الأخيرة بعد أن دخل في السّوق عدد من المنافسين لهم علاقات بالأغنياء الذين يبتاعون لوحات الرسّامين ليعلّقوها في بيوتهم، لكن بعد أن قبلت العرض لم أندم على قرار اتّخذته كالغريق يتعلّق بقشّة، وسرعان ما أحسست بالسّعادة إزاء العمل الذي أقوم به.

كانت الورشة هادئة، وكان صاحبها رجلاً قليل الكلام يقف طوال

النّهار خلف منضدة الرّسم منكبًّا على تصميمات للأفاريز، أو مقلّبًا في الكتالوجات يستخرج منها بعض النماذج الجديدة، ثمّ يرسل التصميمات التي استقرّ عليها، بمقاييسها، إلى حجرة خلفيّة كبيرة تتمّ فيها عمليّات تقطيع الخشب وحفره، ثمّ اللّصق والدهان، والعمليّات الأخرى المتعلّقة بتصنيع الأفاريز المطلوبة منه. أشعر أنّني أحيا في عالم بعيد عن المنظر القبيح لعشرات الأفواه تفتح وتغلق على كمّيّات من الكشري قبل أن تبتلعها. عن أصوات السعال، والتكريع، والتمخيط، والبصق، وعن الشتائم تتخلّل ضجيج الحوار الفظّ لا ينقطع طوال النّهار، وجزء من اللّيل بين «الصنايعيّة» في الحيّ روّاد المحل. فالبيت الذي نشأت فيه رغم الكآبة التي كانت مسيطرة عليه أغلب الوقت، ورغم الفقر، كان الكلام فيه مهذّبًا بفضل صرامة أمّي.

من حين لآخر كنت ألمح لوحة جميلة أستغرق في النظر إليها. تنقلني إلى عالم من الخيال والبهجة. إلى حالة من الحزن الجميل. فأتذكّر خالتي «فاطمة» ونحن عائدان من السوق مع أمّي. حولنا الحقول الخضراء لا تشبع العين من النظر إليها. وألوان الغروب تتبدّل في الترعة. أتذكّر الكلمات التي كنت أخطّها على الورق قبل أن أحملها في الصباح إلى نائب رئيس التحرير فألمح اللّمعة في عينيه عندما يرفعها عن السطور وينظر إليّ. أتذكّر أنّني خُلقت لحياة مختلفة أستطيع فيها أن أبدع، وأنّني قادر على فعل الكثير لو جاءتني الفرصة التي أنتظر. ففي جسمي وعقلي قدرات لم تجد مجالاً تستطيع أن تنمو فيه. السعادة الحقيقيّة تكمن في العطاء والخلق، حرمني منهما فساد، فساد يتسرّب إليّ كالسّوس. لكنّ الجوّ الذي وجدت نفسي فيه، وطيبة الرّجل صاحب الورشة، والفنّ الذي توارثه من الرّجل

الأرمنيّ الذي تعلّم على يده، تكاتفت كلّها لتجعل من هذه الفترة واحة من الرّاحة والتأمّل، رغم ساعات العمل الطويلة التي كانت تمتدّ أحيانًا حتّى يغالبني التعب فأفترش الكنبة الموضوعة في ركن الحجرة الخلفيّة لأختطف ساعة أو ساعتين من النّوم.

بعد وفاة أمّي بشهور تزوّج خالي «عبد الرّحيم» فتاة كان أهلها من فقراء الفلاّحين. فعندما تقدّم إليها وافقوا على هذه الزّيجة، رغم فارق السنّ الكبير بينه وبينها حتى يتخفّفوا منها. فتعوّدت أن أنام في الورشة وأن أتناول طعامي خارج البيت. فالعودة إلى «البدرشين» يوميًّا كانت مرهقة لي وكانت تقتطع جزءًا ملموسًا من دخلي. لكن إلى جانب ذلك أحسست بالغربة في البيت بعد أن ماتت أمّي، وتزوّج خالي فتاة صغيرة في السنّ، أحسست بعد حين أنّها بدأت تكشف أمامي عن أجزاء من جسدها، أو تحتكّ بي عندما يكون خالي غائبًا في الحقل، فخشيت من مغبّة ما يمكن أن يحدث.

لكن خالي «عبد الرّحيم» لم يعش طويلاً بعد الزواج. عدت من الورشة في آخر الأسبوع لأقضي يوم الجمعة في البيت فوجدته في الفراش، وإلى جواره امرأته الشابّة تبكي عاجزة عن التصرّف. كان مصابًا بالحمّى. وفي اليوم نفسه ظهرت عليه الأعراض نفسها التي ظهرت على أمّي وأودت بحياتها. فنقلته إلى المستشفى وبعد أسبوع كان قد توفى.

دفنّاه في مقبرة على رأس الغيط إلى جوار أمّي. قمت ببيع القراريط الثمانية إلى مدرّس في المدرسة الابتدائيّة الجديدة التي افتتحت في «البدرشين». قرّرت أن أترك كلّ شيء، أن أبدأ مرحلة جديدة. كان

صوت خالتي «فاطمة» يتردّد في أذنيّ بإلحاح كلّما سقطت في النّوم، يدعوني إلى شاطئ بعيد. عدت أحلم بها تجلس على الحصيرة وأنا أهبط من القطار فألمح خلفها المياه تمتدّ زرقاء اللّون. وكنت أريد أن أهرب من المرأة الشابّة التي تركها خالي وحدها في البيت. تلقي ناحيتي بنظرات فيها رجاء. تطلّ قدماها المشقّقتان من تحت الجلباب فتجسّد لي الفشل الذي طاردني في الحياة. لم أرد أن أطردها من البيت، ولم أرد أن تشاركني فيه. فكتبت لها مبايعة للبيت وسجّلتها في الشهر العقاري حتى لا يحاول أحد أن ينتزعه منها. ثمّ أبلغت صاحب ورشة البراويز أنّني لظروف خاصّة مضطرّ إلى ترك المدينة. أعددت حقيبة فيها ملابس قليلة، وقبل أن أغلقها تذكّرت الصندوق الذي كانت خالتي «فاطمة» تضع فيها الأشياء التي تريد الحفاظ عليها بعيدًا عن العثّ. دخلت إلى حجرتها التي تحوّلت إلى مخزن نضع فيه ما لا نحتاج إليه. بدا بائسًا مهجورًا محاطًا بضوء رماديّ كئيب.

لم أجد فيه سوى بعض الملابس القديمة. لكن وأنا أقلّب فيه اصطدمت أصابعي في القاع بكيس فيه كتل صلبة، صغيرة، أخرجته من تحت الملابس وجلست في حجرتي على السّرير لأفحص ما فيه. كان الكيس مصنوعًا من القطن الأبيض طرّزت عليه زهرة لوتس بالخيط الأزرق والفضّيّ. فتحت رباطه وأسقطت محتوياته على السّرير. كانت عبارة عن عقد مصنوع من أحجار سود يشعّ منها بريق قويّ، حتّى عندما أطفئ المصباح ويسود الظلام كأنّها قادرة على التقاط موجات أو ذرّات الضوء القليلة التي تسبح في الفضاء. وبين كلّ منها جعران أزرق صغير.

وضعت الكيس في جيب من جيوب الحقيبة وأغلقته. ألقيت نظرة

أخيرة على غرفتي وهبطت على السلالم بحرص حاملاً الحقيبة مضيئًا طريقي ببطّاريّة صغيرة. خرجت من باب البيت تاركًا ثلاثين جنيهًا على الطبليّة، ومظروفًا فيه عقد البيت. كانت السّحب القليلة تضيء شواشيها أشّعة ذهبيّة والأرض مبلّلة بالنّدى والجوّ صافيًا صفاءً غريبًا كأنّ الأمطار غسلته أثناء اللّيل. أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته من صدري، كأنّني أتخلّص من عبء ثقيل، ثمّ سرت فوق الطريق بخطى سريعة.

(٦)

شارع «الإبراهيميّة» مثل الشريان الرفيع يمتدّ من شاطئ البحر إلى مساحات الرّمل والنخيل مخترقًا شريط العمران المقام على الساحل المعروف برمل الإسكندريّة. هنا في قديم الزمان كان الشاطئ خاليًا من كلّ شيء ما عدا الأعراب يسكنون الخيام، ويسرحون بقطعانهم من الماعز والخراف ليأكلوا الأعشاب التي تنمو شيطانيّة.

إنّه شارع دائم الحركة من طلعة النّهار إلى ساعة متأخّرة من اللّيل. على جانبيه حوانيت صغيرة الحجم تبيع الأدوات الكهربائيّة، أو الأقمشة، أو الملابس، أو الخضر والفواكه، أو اللّحوم، والطيور، والأسماك، أو الخبز والحلويات، أو أنواع البقالة، أو محلاّت لتصفيف الشعر، أو حياكة الملابس، أو كيّها، أو خياطة الأحذية، ورتقها، أو مخازن للأخشاب والحديد، والبويات، أو لبيع المشروبات الغازيّة، أو الخمور والبيرة، أو ورش للنجارة، أو الخراطة. شارع قائم بذاته لا تنقصه حرفة، أو صنعة أو خدمة، أو سلعة للبيع. فيه كلّ ما يلزم لتسيير الحياة اليوميّة، كأنّ سكّان الحي قرّروا الاستقلال عن بقيّة أحياء المدينة.

كانت الحركة الدائبة، الدافئة، للنّاس مثل نهر للحياة لا ينضب. منذ اللّحظة التي هبطت فيها من الدور الثاني لترام الرّمل ليقف على رصيف محطّة «الإبراهيميّة» مسندًا حقيبتي على الأرض، أحسست بنفسي منجذبًا إلى هذا التدفّق الإنسانيّ الذي لم أتعوّد عليه. جئت من

المساحات الخالية فيها الزرع، والمياه، فيها العصافير تزقزق في الصباح، وسحر القمر والنجوم في اللّيل، فيها قوافل الفلاّحين تعود بخطواتها الهادئة من الغيط، كتلاً سوداء متحرّكة في الكون الورديّ. لكن حياتي كان يلفّها الصمت في النّهار واللّيل، فرغم الزحف العمراني ظلّ بيتنا على مشارف «البدرشين»، بعيدًا عن الزحام السكّاني.

استأجرت شقّة صغيرة على سطح إحدى العمارات. من الشّارع تصعد إليّ نداءات الباعة، وطرقعات النّرد، وصوت الأغاني، وأذان الفجر، وأصوات الضحك، أو صرخات الحزن تفقد حدّتها في طريقها إليّ. أحيا معها عن بعد كأنّها تأتي إليّ من عالم لست جزءًا منه. أستمع إليها، وأتأمّلها على مهل. من النوافذ تصل إليّ نسمات البحر. وفي اللّيل أتلقّف النسيم الآتي من البرّ أو من مساحات النخيل والرّمل.

إيجار الشقّة جنيهان ونصف جنيه. مؤلّفة من حجرة نوم ومطبخ وحمّام، وصالة واسعة بيضاويّة الشّكل. ابتعت سريرًا وكنبة ومنضدة، ودولابًا، ومقعدًا أسيوطيًّا، وثلاّجة، وموقدًا يعمل بالغاز. ووضعت ستائر ملوّنة على كلّ الشبابيك صنعها لي منجّد من رقع القماش المتبقيّة عنده من تنجيد الأثاث.

في شقّة أخرى على السطح كانت تسكن أسرة من ثلاثة أفراد. رجل يعمل كمساريًّا في الترام، وامرأة نحيلة لا يسمع لها صوت إلاّ عندما يعود زوجها فيدبّ بينهما الشجار يتلوه صمت غريب كان يخيفني حتّى تعوّدت على هذه الأطوار، وطفلة صغيرة عمرها سنتان أو يزيد تجري هنا وهناك عندما ينفتح الباب في الصباح إلى أن يثقلها التعب فتدخل إلى الشقّة لتنام. في بعض الأيّام كانت تظلّ تصرخ مدّة ساعات

فظننت أنّها مصابة بداء. سألت الأبّ عن أحوال طفلته عندما التقيت به صدفة عند باب العمارة فألقى إليّ بنظرة فيها ارتياب، ثمّ قال: «صحّتها على مايرام». ثمّ أضاف «عن إذنك»، وابتعد عنّي بخطوة سريعة، ليختفي بين الجموع في الشّارع. ومنذ ذلك اليوم كنت أتفاداهم بعد أن أدركت أنّ الرّجل لا يريد أن تقوم بيني وبين أسرته أيّة علاقة، وأحرص على غلق النافذتين اللّتين تطلاّن على شقّتهم ولا أفتحهما إلاّ مرّة كلّ أسبوع لتنظيف الشيش والزّجاج من التراب.

بعد أن استقرّ بي الحال في مسكني الجديد بدأت أفكّر في البحث عن عمل. تذكّرت خطاب التوصية الذي أعطاه لي صاحب ورشة البراويز في حيّ «معروف». أنزلت حقيبة الملابس من أعلى الدولاب فوجدته مدسوسًا في أحد الجيوب وسط رزمة من الإيصالات القديمة، وشفرات للحلاقة. فتحت المظروف، وقرأت العنوان، ثمّ وضعته في محفظتي. وغادرت الشقّة هابطًا على السّلالم.

كان يومًا جميلاً. الشمس مشرقة، والسّماء زرقاء تجتازها بعض السحب الخفيفة. سرت في شارع الإبراهيميّة بخطوات متمهّلة أملأ صدري بالهواء، وحركة الحياة. اجتزت شريط الترام وانحرفت يسارًا لمسافة قصيرة ثمّ يمينًا في أحد الشّوارع، فالمكان الذي كنت أقصده في الحيّ ذاته. صعدت مع الشّارع وفجأة وجدت البحر أمامي. خطفت زرقته العميقة أنفاسي فتوقّفت أستنشق رائحة اليود، والملح في الهواء، رائحة طازجة أنعشت حواسّي. ومنذ تلك اللّحظة، كانت بالنّسبة لي لحظة اكتشاف. أصبح بيني وبين البحر رباط خاصّ.

كانت الورشة التي قصدتها صغيرة، أصغر من تلك التي عملت فيها في حيّ «معروف» وكان صاحبها أرمنيّ الأصل. وجدت باب

الورشة مغلقًا. لكن كانت توجد لافتة مكتوبًا عليها «ادفع الباب». دفعته برفق فصدر من أعلاه رنين جرس موسيقيّ. لمحت رجلاً محنيًا فوق «البنك». رأسه كبير وشعره أبيض غزير في لون الثلج. في يده قلم رصاص ومسطرة يرسم بهما مثلّثًا على فرخ من الورق. عندما دقّ الجرس رفع رأسه فوجدت نفسي غارقًا في عينين صافيتين مثل سماء مغسولة بعد المطر. كانت زرقتهما مثل البحر الذي لمحته منذ لحظات تطلّ من خلف زجاج النظّارة القديمة ذات الإطار المعدنيّ المعوجّ فوق الأنف الكبير. توقّفت مأخوذًا بجمال النظرة التي وجدت نفسي أمامها. نظرة فيها شبق للحياة، وسخرية منها.

ارتحت إليه. قرأ خطاب التوصية أخرجته من المحفظة بعد أن جلست على طبليّة عالية أشار إليها. هزّ رأسه بعد أن انتهى من قراءته واحتوتني نظرته كأنّه يستوعبني بعد أن استوعب الكلمات المكتوبة عنّي. قال «أخلاً وسهلاً، الريّس محمد هنا» مشيرًا إلى قلبه بإصبع قصير مربّع عند الطرف، لمحت فيه خشونة العمل والجهد، ثمّ أضاف «وأنت كمان ما دام أنت زيّ ابنه».

هكذا وجدت نفسي أعمل مع الخواجة «أسادوريان». لم يكن عليّ سوى أن أخلع سترتي وأقف أمام «بنك» منصوب في ركن الغرفة الواسعة المبطّنة جدرانها بألواح من الخشب السّويد «على لونها». سعدت بالورشة كما سعدت بصاحبها. كانت تحتلّ مبنى صغيرًا من دورين. في الدّور الأرضي غرفة للرسم تقود إلى الحوش الداخلي المحاط بجدران المباني المجاورة تصعد عليها أعواد الياسمين، وجهنميّة قرمزيّة اللّون. السقف من الزّجاج المقوّى بزخارف من

الحديد الأبيض تطلّ منه زرقة السّماء. وبعد الحوش ورشة للنجارة تعلوها غرفة فيها منضدة للأكل، ومطبخ صغير، ودورة مياه ودشّ. النوافذ تطلّ كلّها على البحر لأنّ المبنى مقام على جزء مرتفع من الشّارع ينحدر فجأة إلى الطريق السّاحلي.

كان الرّجل كبير السنّ وكان مصابًا بالتهاب مزمن في المفاصل يكاد أحيانًا أن يقعده. يسير منحنيًا بخطوات متعثّرة، فيها بطء. يجد صعوبة في الانتقال، أو صعود السلّم، أو تحريك أصابعه في العمل الدقيق الذي تتطلّبه مهنته. وكان يعيش بمفرده بالقرب من الورشة التي يمتلكها، بعد أن هاجرت ابنته مع زوجها إلى أرمينيا السوفييتيّة، وماتت زوجته. فرحّب الرّجل بقدومي إليه. ولأوّل مرَّة منذ مدّة طويلة، بل ربّما في حياتي تخلّصت من القلق الذي لم يكن فارقني. أحيا بين الورشة الجميلة التي أضفى عليها الرّجل روح شخصيّته، وبين الشقّة المطلّة على الحيّ، من أعلى السطح. في أيّام الإجازة أتنزّه على البحر، أو أجلس في مقهى لأشاهد الحركة الدائبة للنّاس لا تتوقّف في أيّ وقت، أو أدخل إلى صالة «البلياردو» التي اكتشفتها بعد شهر من انتقالي إلى المدينة فأصبحت مولعًا بمشاهدة لعبة لم يسبق أن رأيتها من قبل. عرّفني بها صاحب الورشة كان هو نفسه من أبطالها في الاسكندريّة قبل أن يمنعه المرض من مواصلة هوايته، فأصبح يكتفي بالجلوس مع الذين يتفرّجون عليها، ويتابعون مبارياتها.

*

في ذلك الشتاء عجز الأرمني عن العمل تمامًا. كان يجلس على مقعد مزوّد بعجلات صغيرة صمّمه بنفسه وطلب من نجّار الحي أن ينفّذه بحسب توجيهاته فوافق من باب الصداقة التي ربطت بينهما.

هكذا أصبح يجلس في الورشة طوال النّهار ليشرف على العمل الذي أصبحت أتحمّل أعباءه بدلاً منه. كان حريصًا على أن ينقل إليّ خبرته ونظرته الخاصّة لفنّ البراويز. يقول لي البرواز هدفه إبراز وتأكيد ما يوجد داخل إطاره وليس الاعتداء عليه، أو تشويش الرّؤيا التي تسلّط عليه. يجب أن يكون بينه وبين اللّوحة تناقض وانسجام، وأن يكون تأثيرهما مستترًا لا يحسّ. كان فيه ذلك الصبر، وتلك الدقّة، تميّز بهما أصحاب المهنة من الأرمن القدامى في مصر. ومع مرور الوقت أصبح بالنّسبة إليّ كالمعلّم، والأب، لكنّه ظلّ يوجّهني برفق على غير عادة المعلّمين الذين كنت أراهم في الورش من حولي أثناء الفترة التي قضيتها في «معروف». ولأنّه أصبح عاجزًا عن السير على قدميه كنت أقوم بتوصيله على المقعد المتحرّك من البيت إلى الورشة في الصباح. ثمّ أعيده إلى المنزل آخر النّهار وبالتدريج خلقت بيننا الوحدة، والمهنة، والاحتياج المتبادل، علاقة قويّة ربّما دعمها خاطر مهمّ أخذ ينمو في غياهب العقل الباطن هو أنّني قد أكون الوريث الطبيعي الوحيد للورشة. وبالفعل جاء اليوم الذي تأكّد فيه صدق هذا الخاطر. كنت أخفيه على نفسي حتى لا يبدو أنّني في لحظة من اللّحظات يمكن أن أتمنّى موت الرّجل.

كنت أصطحبه إلى صالة «البلياردو» كلّما أمكن، وخصوصًا يوم الأحد، لنعيش لحظات مشحونة بلذّة متوتّرة. فالأحد كان لايزال يوم الإجازة في مدينة ظلّ فيها التأثير الأجنبي واضحا حتّى بعد رحيل عدد كبير من الإغريق، والطليان وباقي الأقلّيات. كانت الصالة تزدحم باللاّعبين يراهنون فيما بينهم على مبالغ من المال، هذا فضلاً عن الروّاد الذين يقفون صفوفًا قرب الجدران ليشاهدوا المباريات يتحرّك بينهم

«الجرسونات» بأقداح القهوة والشاي. فإذا أتى المساء تحلّ محلّها زجاجات البيرة «الاستيلا» أو أكواب البراندي القبرصي، أو الزبيب، أو الكونياك.. لترتفع درجة الحرارة، وهمهمة الأصوات، وسحب الدخان. تجري الدّماء في الوجوه مع جريان الكرات الملوّنة، ويتردّد صدى احتكاكها الصلب ببعضها فوق مساحات الجوخ الأخضر.

*

في ذلك اليوم بعد أن شهد أوّل مباراة أشار إليَّ الرّجل بأن أدفع بمقعده المتحرّك خارج صالة «البلياردو» لكي نجلس على مائدة صغيرة فوق الرّصيف، ونستنشق الهواء الصافي لبداية الخريف. ظللنا صامتين نشاهد حركة النّاس ونحتسي أكوابًا صغيرة من ربع «الزبيب» الموضوع في شفشق من الزجاج له عنق رفيع، طلبه الرّجل رغم تعليمات طبيبه المعالج. فذكّرته بها، لكنّه أشاح بيده في حركة لا مبالية، وضحك ضحكته الطفوليّة ثمّ أشعل سيجارة وحملق في وجهي قبل أن يقول:

«يا إبراهيم أصبحت عزيزًا عليّ جدًّا. لم يكن لي ابن، لكنّه خلال السنتين الماضيتين أصبحت أنت بالنّسبة إليّ مثل الابن، وربّما أكثر منه. جئت في وقت عصيب. كنت في حاجة إلى من يعينني حتى لا أضطر إلى إغلاق الورشة والبقاء في البيت. كان هذا بالنّسبة إليّ أصعب من الموت. تحمّلت منّي الكثير. لم تضجر من العاهات التي أفقدتني القدرة على الحركة.

كنت تعمل ساعات طويلة، وتساعدني في كلّ شيء. فأصبح عليّ أن أسدّد الدّين قبل فوات الأوان. لذلك قرّرت أن أبيع لك الورشة وأن أسجّل هذا البيع في الشهر العقاري حتى تصبح ملكًا لك تتصرّف

فيها. لن تدفع مقابلها أيّ شيء. لكن لي رجاء واحد فقط. ألاّ تغلقها، أو تتنازل عنها بالإيجار أو البيع قبل وفاتي. فأنا أريد أن أستمرّ في التردّد عليها كلّ يوم. أن نستمرّ في صنع البراويز الجميلة التي لا يصنعها أحد في مدينة الاسكندريّة، أو حتى في مصر كلّها. البرواز الجميل يبرز الفنّ الجميل. إنّه جزء منه. إنّه متعة حياتي أريد أن أمارسها حتّى آخر لحظة فيها. مارستها منذ أن كنت صبيًّا أتعلّم على يد أبي الذي جاء إلى هذه المدينة من الأناضول سنة ١٨٩١. أمّا منزلي الخاصّ فسأتركه للشغّالة «ماريّا» التي رعتني طوال السنين وتحمّلت أعباء صعبة، وثقيلة، حتّى أستطيع أن أمارس حياتي. فبدونها ما استطعت أن أعيش كما عشت.

دار بيننا هذا الحديث يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٧٠ في عيد ميلادي السابع والعشرين. أراد أن يحتفل بعيد ميلادي بهذه الطريقة، أن يؤمّن حياتي بعد وفاته تعبيرًا عن العرفان لما قدّمته له من عون في آخر أيّامه. في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مات جمال عبد الناصر وأصبح أنور السادات رئيسًا للجمهوريّة، وبعدها بثلاثة أسابيع رحل «إدوار أسادوريان» عن الدنيا بعد أن تعدّت سنّه ثلاثة وسبعين عامًا تاركًا لي ورشة البراويز ومبلغ تسعمائة وخمسين جنيهًا. أحسست بالحزن العميق لرحيله. كنت لا أزال شابًّا وحيدًا، انتقلت من «البدراشين» إلى الاسكندريّة تلبية لحلم غامض وغريب يتعلّق بامرأة أحببتها وعاشرتها وأنا لا أزال صبيًّا صغيرًا قالوا عنها إنّها خالتي، لكنّي لم أعرف أبدًا ما هي الحقيقة. أصبحت مشاكل الحياة الماديّة محلولة إلى حدّ كبير. لكن في أعماقي ظلّ القلق كالدّودة ينهش بي، كأنّني أسير على حافّة هاوية يمكن في أيّة لحظة أن أقع فيها.

*

كانت تقف على محطّة الأوتوبيس وحدها فتنبّه إليها، الجو مكفهرّ والسّحب تستعدّ لإلقاء سيول المطر على المدينة. ألقت عليه بنظرة سريعة إذ كان يقف على بعد خطوات منها. حاجباه بارزان، وأنفه حادّ يتوسّط عينين واسعين في سواد اللّيل. في النظرة الثانية لاحظت أنّ الفمّ الممتلئ فيه شيء ينمّ عن الضعف. أو الشبق الخفيّ أثار حذرها. مع ذلك أحسست بانجذابها إليه. انصرفت عنه وأخذت تدور بعينيها على مبنى محطّة السكّة الحديد يربض فوق الأرض مثل الوحش الكبير، ضلوعه الحديديّة كساها الصدأ، والزجاج الممتدّ في السقف لطّخه التراب، والدخان الأسود. ميدان المحطّة المزدحم عادة بالنّاس، والسيّارات، وعربات «الكارو» و«الحنطور» والباعة الجائلين خلا تمامًا إلاّ من بعض المارّة المعدودين أسرعوا الخطى تحسّبًا للمطر. الحواري المتفرّعة منه تشبه الأوردة الداكنة اللّون، لم يعد يجري تيّار الحياة فيها. فوق أسطح البيوت وفي شرفاتها ترفرف الملابس المغسولة التي تركها أصحابها فبدت مهجورة، حزينة. أوراق الخريف سقطت على الأرض فأصبحت فروع الشجر مثل الأصابع المعروقة ترتفع نحو السماء من جسم يحتضر.

عندما خرجت من بيتها كانت الشمس ساطعة. عند ناصية الشارع لاحظت رجلاً نحيل القامة، طويلها، يرتدي معطفًا وطاقيّة من الصوف تلفّ حول وجهه. كان يتصفّح جريدة الصباح مسندًا ظهره على كشك مغلق. في حقيبتها كانت تحمل مقالاً، وفي قلبها غبطة الكلمات التي تدفّق بها قلمها أثناء ساعات اللّيل.

سار الرّجل خلفها حتى محطّة الأوتوبيس. اختفت الشمس

وتراكمت السحب. وخلت الشوارع من حركة البشر، فضاعت الغبطة التي هبطت بها من بيتها. رأت نفسها طفلة تسير وحدها على البلاط المتّسخ وتبحث عن أمّها. طردت الصورة من ذهنها. وفي تلك اللّحظة لمحت الشاب واقفًا على الجانب الآخر من المظلّة ثمّ بدأ المطر ينهمر في سيول تجري فوق الأرض.

أحسّت بعينيه تتأمّلانها. صوّبت نظراتها نحوه. التفت إلى الجانب الآخر من الميدان الواسع كأنّ شيئًا جذب انتباهه، فأعطاها الفرصة لتتأمّل وجهه. لاحظت الحاجبين البارزين والأنف الحادّ. وعندما استدار ثانيًا أعجبها سواد عينيه، والبريق. لكنّ شيئًا في الفم أثار ضيقها للمرّة الثانية. . شيئًا كالاعوجاج البسيط، كالضعف المستتر.

ظلّ المطر ينهمر كأنّه لن يتوقّف. أخذ يدندن بأغنية ليقاوم الكآبة المحيطة بهما. وبالتدريج أحسّ أنّها تتبدّد. وصل الأوتوبيس فتركها تصعد أمامه، ولكن قبل أن تصعد السلّم، وتستقرّ في الداخل قرّر السّائق أن يرحل عن المحطّة. كان البرد يخترق جسمه مثل الإبر وكان يحسّ بقدميه كتلتين من الثلج. تراءى في خياله كوب من الشاي السّاخن يمكن أن يشربه عند آخر الخط في «بولكلي»، فداس على منظم البنزين بقوّة، ورفع قدمه الأخرى عن «الدبرياج» فانطلق الأوتوبيس إلى الأمام بقفزة مفاجئة. وجدت نفسها ترتكز على السلّم بقدم بينما الأخرى معلّقة في الهواء. كادت أن تسقط في الشّارع لكنّه صعد بقدميه على السلّم الأسفل، ووضع ذراعيه خلفها وبدفعة قويّة من صدره رفعها إلى أعلى. أحسّت بساقيها تميدان من تحتها فأسندت ظهرها عليه ثم بذلت جهدًا حتى استقام جسمها، وابتعدت عنه بسرعة قائلة:

«أرجو المعذرة. كدت أن أقع من فوق السلّم».

التقط وترًا موسيقيًا في صوتها، واستنشق رائحة جسدها مثل الهواء النقيّ في الجوّ الخانق المليء بالدخان. قال:

«لماذا الاعتذار؟ هكذا يتمّ أوّل لقاء بيننا».

فوجئت بالجرأة التي تحدّث بها. فكّرت في أن تظهر شيئًا من الامتعاض ثمّ استسخفت الخاطر. لولاه كان يمكن أن تحدث كارثة.

بادر سؤالها:

«أين أنت ذاهبة»؟

تردّدت أمام مبادرته الثانية، ثمّ قرّرت أن تخوض معه التجربة. أن تستكشف من هو. أعجبها شكله. العينان السوداوان يشعّ منهما بريق، والشعر زحف عليه بياض مبكر، أجابته:

«إلى الإبراهيميّة».

ألقى إليها بنظرة فيها وجل كأنّه بعد أن تصرّف بجرأة خشي أن يذهب أبعد ممّا ذهب فتضع بينها وبينه فاصلاً. مع ذلك لم يرد أن يتراجع. قال:

«وأنا كذلك. والآن لا أستطيع أن أذهب إلى غيرها».

خفق قلبها. بدا لها أنّ ما يحدث في هذه اللّحظات شيء جديد، ومدهش. إنّها لو تركت هذه الفرصة لن يحدث لها ما يحدث مرّة ثانية. ثمّ جاءها إحساس آخر عميق، قويّ، كأنّها تستأنف علاقة جميلة ندمت على انقطاعها أو تعيش حدثًا عاد إلى الذاكرة، أو حلمًا أخذ يتكرّر.

حال الزحام دون استمرار الحديث الذي بدأ بينهما. فالعيون

والآذان حولهما متربّصة كأنّ هناك فتنة تحرص على قتلها قبل أن تستفحل. تلفّتت برأسها فلمحت أنفًا كالمنقار وعينين صغيرتين تحملقان إلى الشّارع، فأدركت أنّ صاحب المعطف مازال يسعى وراءها.

هبطا معًا في محطّة «الإبراهيميّة» وانطلقا في سباق تحت المطر. توقّفا تحت مظلّة المقهى الكبير. سالت المياه فوق وجهها، فأخرج منديله ومسح عليه برفق واضعًا إصبعه تحت ذقنها. تركته يفعل دون أن تعترض. توهّج خدّاها من الجري تحت المطر أو ربّما من شحنة أحسّت بها في أطراف الأصابع وافتقدتها عندما توقّف عن لمساته. ضحكت لكي تخفي اضطرابها. دخلا إلى الصالة المزدحمة بالجالسين حول المناضد ليحتميا من الهواء البارد. في صالة داخليّة واسعة الأرجاء لمحت عدّة مناضد كبيرة مغطّاة بالجوخ الأخضر. سألته:

«ما هذا؟»

قال:

«صالة البلياردو». وغرق في نظرتها الصافية، فارتبكت وضاع منها السّؤال الآخر الذي كان على طرف لسانها. ساد الصّمت بينهما كأنّهما يبحثان عن خيط لاستئناف الكلام. قالت:

«تأخّرت. لابدّ أن أنصرف الآن». ألقت نظرة من زجاج النّوافذ ثمّ أضافت. «المطر توقّف، ويمكن أن أواصل طريقي قبل أن يسقط من جديد».

أخذ نفسًا عميقًا، كأنّ اللّحظة التي كان يخشاها جاءت. قال:

«يمكن أن أواصل المشوار معك»...

قالت بسرعة:

«لا . . . لا داعي . . . فعندي أشياء كثيرة عليّ إنجازها . أشكرك» .
قال :

«إذن سأدخل إلى صالة «البلياردو» لأشاهد اللّعب . واليوم بالنّسبة لي إجازة» . تردّد قبل أن يستأنف كلامه . «لكن أملي ألاّ يكون هذا هو اللّقاء الوحيد والأخير بيننا . اسمي «إبراهيم» . . «إبراهيم مصطفى سالم» . أصنع البراويز للرسوم والصور . وعندي ورشة في هذا الشّارع على الجانب الآخر من خطّ الترام قرب الشاطئ . كيف يمكن أن أراك؟» .

اتّجهت إلى الباب وهي صامتة كأنّها تقلب الموقف في ذهنها . أحسّت برعشة صغيرة تنتابها ، رعشة من الشّغف ممزوجة بالمخاوف ثمّ حسمت أمرها :

«اسمي «فاطمة محفوظ» . ورقم تليفوني في العمل ٧٩٤٤٢» .

تردّد اسمها في طبلة الأذن كالصدى في مساحة كبيرة محاطة بالجدران ، فلم يلتقط الرّقم .

سألته :

«مالك؟»

قال :

«أبدًا . لم ألتقط الرّقم جيّدًا وأخشى أن أنساه» .

ردّدت ببطء : «٧٩٤٤٢» .

قال :

«حفرت الرّقم في ذهني . لن أنساه . إلى اللّقاء قريبًا» .

استقرّت يدها في يده لحظة . أصابعه خشنة ، ودافئة . استدارت ثمّ

سارت بخطوات سريعة في الشّارع متفادية البرك. كان الجوّ منعشًا بعد سقــوط المطـر. جسمهـا يثـب فـوق الأرض. لمـح الحـزام الأحمـر العريض ترتديه حول خصرها، وشعرها المبلّل تحت الشّمس يشعّ منه شيء كالوهج. ثمّ اختفت. . أحسّ برغبة ملحّة في اللّحاق بها. جاء إلى هذه المدينة هربًا من المطاردة التي أثقلت حياته. جاء إلى هذه المدينة ليلتقي بها. وها هو سيفقدها إلى الأبد. وقف تحت المظلّة وفي أذنيه صوت بقايا المطر ينحدر من على الرّصيف ويسقط في «البالوعة». صوت يشبه كركرة الجوزة في اللّيالي المقمرة. قالت: سأنتظرك عند البحر المالح. ترى من هي؟ ترى ما الذي يحدث له! أهو سراب سيظلّ يجري وراءه، حلم سرعان ما يتبدّد؟

دفـع البـاب بيـده وعـاد إلـى داخـل المقهـى. تـوجّـه إلـى صـالـة «البليياردو» وانضمّ إلى الأجسام الواقفة على مسافة من المنضدة، تتتبّع بعيونها ما يجري أمامها كأنّ حياتها معلّقة على حركة الكور فوق مساحات الجوخ الأخضر.

تعوّد أن يحضر إلى هذه الصّالة فور انتهائه من العمل، لكن يوم الأحد كان المولعون باللّعب يحضرون أثناء النّهار. يبتلع ساندويتشًا من الكفتة، أو الجنبري، ثمّ يتفرّغ للفرجة أو اللّعب. أحبّ دفء المكان وصوت الاحتكاك بين الكور تتحرّك كالوميض الملوّن، أو تسقط في الجيب يتدلّى شبكها كأنّها مصيدة. يمسك بعصاة طويلة ويـدعـك طـرفهـا بقطعـة مـن الشمـع الأصفـر. يحتسـي جـرعتيـن مـن البراندي القبرصي. يضع الكأس على الرفّ قرب الجدار ويقترب من المنضدة. يقدّر المسافات والزوايا بعينه. تذوب الملامح من حوله،

وفي لحظة لا يبقى أمامه سوى وجه خصمه. يلمح طرف لسانه يمسح به على شفتيه، أو وريدًا منتفخًا أسفل ذقنه، ثمّ يختفي الوجه بدوره ولا يبقى سوى الكور، والعصا الطويلة تتحرّك بنعومة بين أصابعه. يضرب ضربته فيسمع زفير الأنفاس. ينتصب بجذعه ويتّجه إلى الرفّ ليرتشف من كأسه. لا يتتبّع نتيجة الضربة كأنّه واثق ممّا فعل. يعود إلى المنضدة بعد لحظة. يؤجّل رؤية نجاحه. يتذوّق الانتصار على مهله. في جسمه سخونة البراندي ونبض الشريان المنتظم الهادئ. يحلّق في نظرات العيون تلمع كالنجوم من حوله، فهو بينهم النجم الصاعد. في لمعانها خليط من الإعجاب والغيرة، كضوء القمر الواهن في الماء الآسن. في هذه اللّحظات ينبض كيانه كأنّ حياته أصبحت تلك المساحة من الجوخ الأخضر يحتدم الصراع فوقها.

في أغلب الأيّام كان اللاّعبون يتبارون فيما بينهم دون مقابل، أو نظير زجاجة من الزبيب أو الكونياك، مضافًا إليها أجر المنضدة والعصي، والكور. ولكن في ليلتي الجمعة والأحد كانوا يراهنون على المباريات. في ليلة الأحد كان يلعب مع من تبقّى من اليونانيين، أو الطليان، أو الأرمن الذين غادر أغلبهم مدينة الاسكندريّة بعد العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦. كان من بينهم رجل أرمني يملك استديو للتصوير في شارع «صفيّة زغلول»، وعمارة من أربعة أدوار في الشاطبي. كان يحضر أحيانًا مرتديًا معطف العمل الأزرق، و«البيريه» حتى لا يضيّع الوقت في تغيير الملابس.

كان «إبراهيم مصطفى سالم» أصغرهم سنًّا، ففي ذلك الوقت لم يكن «البلياردو» لعبة يهواها الشباب. شقّ طريقه بينهم ليصبح بطل الاسكندريّة دون منازع. كان التوتّر المقيم في أعماقه يصبّ شحناته

خلال العصا الطويلة التي نادرًا ما يخطئ ضرباتها. في أصابعه شيء كالسّحر، وقدرة لا تضعف. يظل يلعب ساعات طويلة دون أن يظهر عليه التعب. يحيا في حركة الكور، في أصوات التصادم تشبه طلقة المسدّس الكاتم، في الأنفاس المحبوسة للرّجال الواقفين في الصالة تندفع من أفواههم كلمة «الله» مثل هتاف المؤمنين في الجامع. يحيا في العيون المعلّقة بعصاه تنتظر ضرباته كالسيف يحسم المعارك. في الإحساس بأنّه هنا ملك والآخرين أتباعه، في أنّهم يظلّون أسرى مهارته لا ينصرفون إلاّ إذا انتهى من اللّعب. يحيا في النقود تنهمر أمامه فوق الغطاء الأخضر. يجمع مكاسبه، وينصرف دون أن يلتفت وراءه، أو يتحدّث مع أحد. يهرب من ظهورهم يولونها ناحيته من فرط غيظهم، أو من وجوه الذين يقبلون نحوه بفرح مصطنع.

تعوّد أن يحيا وحيدًا مع نفسه منذ الصغر. يبحث عن الحقيقة التي افتقدها طوال حياته. فأصبحت الحقيقة الوحيدة هي صالة «البلياردو»، والكور والنقود يجمعها من فوق المنضدة، ويضعها في جيب السترة قبل أن ينصرف. يتلمّس أوراقها اليابسة أو المبلّلة بالعرق فتسري في عروقه قشعريرة الإيمان بها، والكفر بكلّ ما عداها في حياته. فهي الوحيدة التي تجلب له القدرة. يمشي حتى ساعة متأخّرة من اللّيل في الشّوارع الخالية. يدخل هواء البحر إلى صدره. يتوحّد مع السّماء، والنجوم والقمر المسافر فوق رأسه. في النخيل يرفع رؤوسه إلى أعلى ويميل بها فوق سيقانه. في تدفّق الدماء تجري في شرايينه مع البحر، وأمواجه تظلّ تتردّد همساته في الورشة أو في غرفته أعلى الطابق السادس، أو وهو سائر على الشاطئ. تهمس بكلمة واحدة «فاطمة»، وكأنّ الكون كلّه يتنفّس باسمها. ويظلّ يتساءل. ما الذي

يؤرّقه؟ ما الذي يختفي وراء ظاهر حياته؟

قرب آخر الشّارع مقهى صغير الحجم يرتاده الزبائن منذ الصّباح المبكر يستمعون إلى ترتيل القرآن ويشربون الشاي بالحليب، ويرسلون في طلب «ساندويتش» من الفول من رجل يقف بعربته هناك. المقهى أسفل عمارة من أربعة أدوار. باب العمارة ينفتح على شارع جانبي اسمه شارع «وردان» مكتوب على الجدار بطلاء أحمر، والعمارة رقمها ثلاثة رغم أنّه لا يوجد بناء آخر على الصفّ نفسه. وعلى سطح العمارة توجد شقّة من غرفتين تسكن فيها «فاطمة محفوظ». لا أحد يعرف من أين جاءت ولا متى. فجأة لاحظ بعض النّاس أنّها أصبحت من سكّان الحي. قالوا إنّها نزحت من إحدى ضواحي القاهرة، أو من الجيزة» أو من «بنها». وذهب البعض إلى أنّها من صعيد مصر. . لكن لا أحد يعرف!

سمع هذا الكلام يتردّد وهو جالس في المقهى في الصباح. كان صاحب المقهى يتبادل الحديث مع بعض زبائنه بعد أن صعد صبيّ القهوجي حاملاً علبة من الورق المقوّى تركها شابّ في المساء أمانة مع القهوجي على أن يسلّمها إليها في الصباح الباكر.

نطقوا اسمها فالتقطه. ظلّ يحملق أمامه لكنّ المتحدّثين خفضوا أصواتهم ودار بينهم همس مقلق. خطر في باله أن يصعد إليها، أو أن يبعث إليها برسالة، لكنّه تراجع فعيون الجالسين على المقهى نبّهته إلى أنّ خطوات كهذه يمكن أن تثير الشكوك حولها، وتسبّب لها مشاكل لا تريدها.

ترك المقهى وأخذ يجري في اتجاه البحر، دون أن يعي لماذا

يجري. لم يتوقّف إلاّ عند الحاجز المطلّ عليه. وجد دكّة بالقرب منه فجلس عليها ليلتقط أنفاسه. كانت الأمواج عالية في ذلك اليوم. تتسابق نحو الشاطئ وتتكسّر على كتل الحجر التي وضعت لاحتجازها. لكنّه لم ير البحر. ولم ير الأمواج تطلق رذاذها، ولا الزرقة الممتدّة أمامه التي أخذت تشوبها تقلّبات خضراء، ورماديّة. انقضّ عليه إحساس بالبؤس. بأنّه فاشل لم يفعل شيئًا بحياته. إنّه يتركها تفلت من بين يديه، تضيع في ورشة البراويز، وصالة البلياردو ليظلّ هاربًا على الدوام من أشباح غامضة.

قام من جلسته وأخذ يجري من جديد كأنّ عقله أفلت منه وهو يحاول اللّحاق به. اتّجه إلى محطّة الرّمل. اجتاز الشّوارع. تطارده أبواق السيّارات ونظرات المارّة في سباقه. انتظر في السنترال أمام إحدى الكبائن التي احتلّها رجل بدين كان يقضم على رغيف من الفينو طويل محشوّ بالبسطرمة، وهو يحكي حكاية عن بطء المحاكم. بعد أن انتهى من «الساندويتش» أخذ يشوّح بيده وذراعه كأنّه محامٍ يترافع في المحكمة، فظلّ يروح ويجيء بخطى متوتّرة. الرّجل يولّي ظهره إليه حتى لا يراه وهو ينتظر أمامه. تذكّر فجأة أنّ اليوم يوم الجمعة. ربّما لن يجدها في العمل. أخيرًا خرج الرّجل موليًا نظراته في اتّجاه آخر فاندفع داخل «الكابينة». صوتها أتاه خلال الأسلاك. بدا له باردًا، بلا حرارة. لكنّها وافقت على أن يلتقيا في مكان بالقرب من باب العمارة التي ستهبط منها، أحسّ بالفرحة. فلم تراوغ، أو تقترح التأجيل ليوم آخر.

جلس في مقهى بحيث يستطيع أن يراها وهي تخرج من باب

العمارة. دفع الحساب حين أحضر العامل كوب الشاي. رشف منه بسرعة فاحترق حلقه من سخونة السّائل. أخرج منديلاً من جيبه، وأخذ يسعل، وفي تلك اللّحظة وجدها واقفة أمامه. كانت تفحصه بتلك النظرة الثابتة التي فحصته بها في أوّل لقاء. وقف، ومدّ يده إليها مصافحًا. قبضة أصابعها فيها صلابة مباشرة.

عبرا الميدان الصغير، وسارا على الرّصيف في اتجاه الشاطئ. هربت منه الكلمات، وظلّت هي أيضًا صامتة. كانت تمسك بذراعه كلّما عبرا الشارع، وتتركها على الرّصيف الآخر. سارا على الأقدام مسافة. وصلا إلى مقصف صغير أمام الميناء. جلسا على منضدة من المناضد الموزّعة فوق الرّصيف. عند الأفق تجمّعت السحب الدّاكنة، وسقطت فيها الشمس، فأضاءت السّماء بوهج أحمر تخلّلته مساحات سوداء غاضبة. ثمّ هبط اللّيل، وخارج حدود الميناء ظهرت زوارق الصيد المتفرّقة مثل الجواهر الصغيرة تضيء وتختفي في الظلام الدّامس.

رفضت أن تشرب من ربع الزبيب الذي طلبه، لكنّها أثناء الكلام أتت على الجنبري، والجبن المقلي، والزيتون الأخضر، والخيار المخلّل. كانت تأكل وهي سارحة، فلمّا علّق على شهيّتها احمرّ وجهها، وقالت إنّه يلاحظ الأشياء التافهة. أحسّ بالضيق. بعد أن أكلت أخرجت من كيسها شريطًا من الأقراص. ابتلعت قرصين، وتلتهما بنصف كوب من الماء. قالت: «لم تسألني عن الأقراص». نظر إليها معاتبًا، فندّت منها ضحكة مثل رنين إناء من الفضّة.

(٧)

تزوّجا في الخريف بعد تسعة شهور من لقائهما. أصبح يغلق الورشة يوم الأحد، والجمعة. في يوم الجمعة يظلّ جرس المنبّه الصاخب صامتاً، يوقظها على مهل عندما تتسلّل الشمس خلال السواتر. يفتح النافذة حتّى لا تعود إلى سباتها. لا يطيق أن تظلّ نائمة، وهو مستيقظ. أن تضيع الساعات التي يمكن أن يتبادلا فيها الكلام، أو العناق. عندما تحتضنه يحسّ أنّه عرف جسدها قبل ذلك، أنّ أصابعه تلمّست منحنياته. تقبل عليه رافعة كلّ الحواجز ببراءة من يدرك أنّ اللذّة ليست آثمة. إنّها قوّة الحياة. تفتح له أبوابها ثم تنظر في عينيه بتلك النظرة الثابتة وتقول:

«يا حبيبي يا «إبراهيم». كم كنت وحيدة قبل أن ألقاك. كأنّك تعود إليّ بعد طول غياب».

أهداها العقد الذي احتفظ به بعد أن رحل من بيت «البدرشين» وتركه لزوجة خاله. يلمحه وهي راقدة على السرير تتدلّى أحجاره السود وجعارينه حول عنقها. يتتبّعه وهو يعلو ويهبط مع نبض الشريان. مع صدرها يتنفّس الهواء. يبثّ حوله سحرًا قديمًا من روح آلهة الفراعنة. منذ أن ترك الصحافة، وأصبح صاحب حرفة، صار يختلط ببعض أصحاب المهن فأحبّ الأشياء القديمة، التي فيها تاريخ، وثقافة، وصنعة توارثتها الأجيال المتعاقبة، وليست مصنوعة

لتلبّي احتياجًا طارئًا ينقضي بسرعة ليبحث صاحبها عن غيرها. أحبَّ تلك الأشياء القادرة على تجاوز الزمن لأنّ فيها جمالاً لا يبلى مع الأيّام.

يتأمّل الشريان المنتفض يبثّ حياته في الأحجار اللامعة. تعيد إليه رجفة قديمة، ومخاوف من قوّة غامضة تتربّص بخطواته. قبل كلّ ذلك تعيد إليه لذّة طاغية يعيشها من جديد في هذا الجسد العاري الممدود أمامه. يخشى أن تكتشفه كما هو، أن تخترقه بنني العين، بتلك النظرة الثابتة تبحث في أغواره. بالضفيرتين تنام بهما الليل، ثم تترك شعرها حرًّا بعد أن تستيقظ في الصباح. بصدرها النافر من فتحة الجلباب، وقبل ذلك بعقلها المتّقد الذي لا يقبل ما يقبله الناس. على خدّها حسنة داكنة اللون تقترب من فمها، وتبعد عنه. تبدو هادئة. فيها براءة مقلقة في بعض الأحيان.

في الليل، عندما ينام إلى جوارها يحلم أنّها اختفت فجأة فيصاب بالرعب. يبحث عنها تحت المناضد، والمقاعد والسرير، وفي الدواليب. يخرج من باب البيت ويبحث عنها في الحوش، بين الأشجار، وعند الترعة، وفي الغيط. يسأل أمّه إن كانت تعرف مكانها فتنظر إليه صامتة. جلبابه ممزّق من الخلف، والبرد يلسعه على إليتيه. يتوسّل إلى أمّه حتّى تساعده في العثور عليها. لكنّها تستدير لتهبط بفأسها على الأرض مولية ظهرها إليه، يشعر أنّها تكرهه لكنّه لا يعرف سببًا للكراهية، ولا يجرؤ على سؤالها، فهو لا زال طفلاً يتعثّر في الكلمات التي يريد أن ينطق بها. يزحف على ردفيه فوق الأرض الترابيّة ويلمح أمّه وهي تتسلّل من باب البيت، وتختفي في الليل. يصرخ في نومه ويستيقظ على صوت فيه بحّة عميقة. يشعر بذراعيها تلتفّان حوله وهي تقول:

«مالك يا «إبراهيم»؟ أنا هنا يا حبيبي».

تضع رأسه على صدرها. يشعر بدفء اللحم على خدّه، ويلمح العقد متدلّيًا قرب أنفه. لم تكن تتخلّى عن العقد أبدًا. لا تخلعه من حول عنقها حتّى عندما تستحمّ، أو تأوي إلى فراشها. كأنّها إن خلعته ستخلع جزءًا من جسمها، من نفسها.

في إحدى أمسيات الخريف جلسا في مقهى يديره رجل من البدو. أقامه في خيمة دقّها وسط الرمال البيضاء بعيدًا عن مباني المدينة الزاحفة حولها. يقفز أطفال البدو، وصغار الماعز، والخراف، وطيور ملوّنة جاءت من الشمال بحثًا عن أرض دافئة.

سقطت أشعّة الشمس الغاربة من بين غصون النخيل على سطح الرمل الأبيض. أضاءت الشظايا الزجاجيّة الرفيعة، وانعكست فيها ألوانها. لمعت في العقد الذي كانت ترتديه فجذب انتباهه. أخذ رشفة من الشاي، واستغرق في الصفاء المتألّق. سألها:

«ترى ما سرّ تمسّكك بارتداء هذا العقد في النهار والليل؟».

ضحكت:

«أليس جزءًا منك يا «إبراهيم». فكيف أخلعه؟»

«جزء منّي، أم منك».

«منّا نحن الاثنين. ألست أنت الذي أهديته إليّ. من أين اشتريته؟»

«لم أشتره. عثرت عليه صدفة».

«أين... في صندوق؟»

فوجئ. صمت لحظة، ثم قال:

«نعم، وجدته في صندوق بعد وفاة أمّي. عندما تركت منزل

الأسرة. لكن لماذا قلت صندوق؟»

«قلتها صدفة. جاءتني كفكرة طارئة. فأين يمكن للمرء أن يعثر على عقد بهذا الجمال إلاّ في صندوق. هل ارتدته من قبلي امرأة أخرى؟».

ارتبك، تردّد قبل أن يجيب.

«امرأة. المرأة الوحيدة في حياتي هي أنت. ربّما فيما مضى كنت أنت امرأة أخرى».

ابتسمت ابتسامة فيها سخرية. نظرت إليه بالنّني الأسود يخترقه مثل طرف السيف المدبّب. قالت:

«ربّما، فأنا في لحظات كثيرة امرأة أخرى. لكن ألا ترى أنّه عندما تضعف العواطف نستعيض عنها بالهدايا، بالأقراط، والعقود، وباقات الورد؟، أنّه كلّما غلا ثمنها أحاطها الظنّ بأنّها تخفي قلّة العاطفة؟».

أثناء النوم، كانت حلقات العقد تتشابك بخصلات شعرها. تفتح عينيها ويحسّ بنظراتها في الظلام. بعد لحظة تغلق جفونها. يدرك أنّ وراء الجفون المغلقة ما زال ذهنها يطحن الأفكار. أصبح العقد يثير فيه الغيرة. أصبح جزءًا من لحمها، من كيانها، ملتصقًا بجلدها، لا تتركه في الليل أو النهار. يشاركها الفراش وتتلمّسه أصابعها وهي نائمة كأنّه يغزو أحلامها. يتساءل: ترى بماذا يذكّرها؟ برجل آخر؟ يشعر أنّه يعيش على هامش حياتها. بينه وبينها مسافة. إنّها مسافة تفصله عن عنقها الصاعد. عن رأسها المرفوع وهي سائرة. عن السحر الغامض في صوتها، عن رائحة وحركة جسمها. يشعر أنّها من نوع آخر غيره، يصعب عليه أن يقترب منها، أن يكون مثلها. فتزحف عليه الغيرة عندما يلمع العقد حول جيدها كأنّ له حياة في ذاته. يلمحه راقدًا على

صدرها، أو وهو يرقص مع جسمها فوق أمواج العناق، كأنّ روحها تتوق إلى الخلاص من جلدها، من كلّ ما يقهرها، من كلّ القيود، والأختام في حياتها.

في أحد الأيّام خلعت العقد، ووضعته على الرفّ في الحمّام. كان يقرأ في ضوء المصباح بعد أن تناولا طعام العشاء، دخلت في الفراش، واستعدّت للنوم، لكنّها اكتشفت أنّ العقد لم يعد يتدلّى حول عنقها. ألقت بالغطاء جانبًا، وقفزت من السرير لتبحث عنه في الحمّام. خرجت منه وهي تخطو صامتة. أحسّ بها تقترب من المقعد الذي جلس فيه، فرفع عينيه عن الكتاب. وجدها واقفة أمامه عارية. مدّت إليه يدها بالعقد، وقالت:

«أرجوك، أوثقه حول عنقي» واستدارت لتعطيه ظهرها. تأمّل البريق الأحمر يتسلّل من بين خصلات شعرها. أمسك بطرفي العقد بين أصابعه، وأسقطه حول عنقها. جسمها يقترب منه، ويبتعد عنه، فاهتزّت يده، ووقع العقد على الحصيرة. فوجئ بثديها يرقد في كفّه مثل العصفور في عشّه.

في تلك الليلة طال العناق بينهما كأنّهما يغسلان فيه الماضي وآلامه. كأنّهما يبحثان في قمّة اللذّة عن الضياع. وبعد تسعة شهور ولدت لهما طفلة اسمها «عزّة».

أثناء الولادة بقي إلى جوارها. عندما جاء الطلق أمسكت بيده. تضغط على عضلات بطنها فيضغط على عضلاته معها، كأنّه يشعر أنّ الطفل محشور في حوضه. يمسح العرق من جبينه، وجبينها بمنشفة صغيرة مبلّلة بالماء المعطّر. ينظر في عينيها فيرى ملامحه المشدودة

فيهما. ثمّ صرخت صرخة واحدة بعدها ظهرت الطفلة دائرة من الشعر تتّسع، وتتّسع، ثم الحاجبان، والأنف، والفم، والذقن المدبّب يشبه ذقنها، والعنق طويل مثل عنقها. عيناها مفتوحتان كأنّهما تنظران إليه، والشعر يطلّ منه البريق الأحمر. وعند أسفل البطن الشقّ الصغير كالوردة بين الساقين. هتف «بنت»، فلمح البريق في عينيّ أمّها. قالت: «أريد أن أراها» فحملتها الممرّضة إليها. رفعت نفسها قليلاً ونظرت في وجهها لحظة طويلة، كأنّها تحفر ملامحها في ذهنها ثم أسندت رأسها على الوسادة ونامت.

حملاها من المستوصف إلى السبت المصنوع من القشّ الملوّن بطّناه بلحاف صغير من القطن الأبيض. صعدا بها إلى شقّتهما على سطح العمارة. خلفها تمتدّ الرمال وتتمايل رؤوس النخيل فيأتيهما همسها. وأمامها يمتدّ شريط العمران تظهر أعلاه زرقة البحر المتوسّط.

مرّت ستة شهور وجاء الشتاء. نوّة الساحل اشتدّت في تلك السنة. الأمواج غطّت الكورنيش في أماكن كثيرة، والأمطار هبطت فوق سطح العمارة، وتسرّبت من تحت باب الشقّة وأغرقت أرضها. أخرجا المياه بمكنستين من التيل المضفّر، وبطّنا الفجوة أسفل الباب بجوال من الخيش، وبالورق المقوّى. عينا الطفلة تدوران في رأسها كلّما سمعت السماء ترعد، فأخذت «فاطمة» تغنّي لها على وقع المكنسة.

بعد يومين هدأت العاصفة. عندما جاء الليل تناثرت النجوم في السماء كتلاً صغيرة من الثلج الأبيض. أضاء شمعة في ركن الحجرة، وجلسا يحتسيان قنينة من «الكيانتي الإيطالي» أهداها له أحد الزبائن، ثم دخلا إلى الفراش. نامت في حضنه وظلّ هو مستيقظًا يتأمّل وجهها

إلى أن انطفأ اللهب، وأخذ يستمع إلى أنفاسها تتردّد في الظلام، وقبل الفجر بقليل راح في سبات عميق.

*

يوم شمّ النسيم قرّرا أن يقضيا اليوم على شاطئ البحر. كان سنّ الطفلة ثلاثة شهور ونصف الشهر. وضعوها في السَبَت المستطيل المبطّن بلحاف صغير. حملا معها الملوحة والليمون، والبصل الأخضر، والجرجير، وترموس كبير من الشاي. استقلاّ الترام حتّى محطّة سيدي بشر، ثم ركبا الأوتوبيس ليهبطا عند آخر شارع خالد بن الوليد.

كان الجوّ دافئًا، والأمواج تكاد لا يسمع لها صوت. افترش الرمال بحصيرة ملوّنة. أرقدت الطفلة عليها حتّى تحرّك أطرافها وتتعرّض للشمس وجلست إلى جوارها. وخلع هو ملابسه، واندفع ليلقي بنفسه في البحر. بعد قليل نادت «فاطمة» عليه حتّى يحلّ محلّها وتأخذ هي فرصتها للسباحة في المياه التي أغرتها بصفائها. كانت تجيد السباحة فقرّرت أن تجتاز المسافة إلى الصخرة التي كان يقف عليها بعض الصيّادين. عندما وصلت إلى الصخرة تسلّقتها، وصعدت حتّى الهضبة التي ارتفعت فوق طرفها الممتدّ داخل البحر. عندما استقرّت عليها استدارت ناحية الشاطئ ولوّحت بيدها إليه كأنّها تسجّل النصر الذي حقّقته، وتريد أن تشهده عليه. كان يتبعها بنظرات قلقة وهي تجتاز المسافة بين الشاطئ والصخرة. أحسّ بالراحة عندما وصلت، وبشيء من الضيق عندما رآها تلوّح إليه. لأنّها تكاد تتفوّق عليه دائمًا.

بدت عليها السعادة عندما خرجت من البحر. أخذت تجري وتقفز إلى أن وصلت إليه. لم يبد أنّه يشاركها فرحتها. انشغل بمداعبة

الطفلة، بهزّ سلسلة مفاتيحه أمامها حتّى تمدّ ذراعها، وتقبض عليها بيدها الصغيرة.

اغتسلا من المياه المالحة والرمل تحت الأدشاش القريبة منهما. بسطت مفرشًا من النيلون فوق الرمل. فتحت لفف الأكل، وانقضّا عليه بشهيّة ضاعفت منها المساحات الزرق، ونقاء الجوّ. لم يبق منه بعد أن أكلا سوى رؤوس الملوحة، والعظم، وقشر الليمون، وشواشي البصل الأخضر جمعها في كيس من الورق ألقى به في سلّة القمامة، دار حول الشاطئ حتّى اهتدى إليه.

شربا الشاي، وأرضعت الطفلة من ثديها وهو راقد في الشمس. قالت إنّها اشتاقت إلى البيرة لم تتذوّقها منذ شهور، فعبرا الكورنيش وسارا على الرصيف حتّى اهتديا إلى مقصف به صالة مفتوحة دخلا إليها. كانت الطفلة غاطسة في النوم فوضع السبت على مقعدين بعيدًا عن تيّار الريح، وطلب زجاجتين من البيرة. أخذت رشفتين من كوبها ثم طلبت منه أن يبتاع لها علبة سجائر قائلة «عندي رغبة في التدخين». اندهش فهو لم يرها وهي تدخّن لكنّه لم يقل شيئًا. أحسّ أنّها تفكّر في أمر ما جعلها تتأمّله بين الحين والحين وفي عينيها سؤال.

ذهب ليحضر علبة السجائر وعاد بعد قليل. دخّنت منها لفافتين الواحدة بعد الأخرى. ثم قالت فجأة:

«ابحث عن سيّارة أجرة لنعود إلى البيت». ظلّت صامتة طوال الطريق، وفي تلك الليلة لم تتناول العشاء. جلست على المنضدة وظلّت تكتب إلى أن انتصف الليل، ثم دخلت في السرير. أحسّ بها تبحث عن يده لكنّه تظاهر بالنوم، فسحبت يدها وركنت إلى السكون.

*

يتركها تفعل به ما تشاء؟ أثناء الغداء لمح ابتسامة ساخرة تتحرّك فوق شفتيها. ترى ماذا تعني هذه الابتسامة؟

مرّ الوقت وهو مشغول بالخواطر تتوالى في ذهنه ثم سقط في النوم. استيقظ على رنين التليفون فانقلب على جانبه بسرعة، ورفع السمّاعة، جاءه صوتها كأنّها تتحدّث من مكان بعيد. سألته:

«هل تحبّ الرقص؟»

فوجئ بالسؤال. بماذا يجيب؟ إنّه لا يعرف سوى خطوة واحدة، يروح ويجيء بها فوق الحلبة. قرّر أن يلقي بنفسه في الخضمّ. لن يخسر شيئًا، والمخاطرة ليست كبيرة. حتّى إذا ضاقت به لن تستغني عن خدماته فهو يتحمّل جزءًا أساسيًّا من العمل في المؤسّسة. ثم أحيانًا يعجب هذا النوع من النساء المرفّهات بالرجال الخام أمثاله. سئموا نعومة الطبقات الموسرة، يبحثن عن شيء من البدائيّة، من الوحشيّة. يهيّأ إليهنّ أنّهنّ سيجدن ما لا يجدنه في أوساطهنّ. ابتسم برضى إزاء ما جاء على باله.

قال:

«سأحاول أن أكون عند حسن ظنّك في كلّ شيء بما فيه الرقص».

ضحكت في سرور:

«حسنًا.. فلنلتق في البار عند الساعة العاشرة».

عندما دخل البار وجدها جالسة تحتسي قدحًا من القهوة، وتدخّن. قامت من جلستها عندما رأته قادمًا، وقالت:

«لم يعجبني هذا البار. إنّه قاتم أشعر أنّني سأختنق فيه. هيّا بنا».

استقلاّ السيّارة من أمام الفندق. قادتها مسافة قصيرة في شارع

«صفيّة زغلول» حتّى الموقف قرب سينما «مترو»، وتركتها للمنادي. اخترقا ممرًّا طويلاً مضاءً بالكشّافات الصغيرة وهبطا على السلالم إلى بدرون مترو أسفل المبنى. توقّفت عند باب خشبيّ سميك سلّطت عليه بعض الأضواء الملوّنة. ضغطت على جرس فانفتح الباب، وظهر رجل يرتدي سترة حمراء مغلقة بأزرار نحاسيّة، وبنطالاً أسود. ابتسم عندما رآها وقال:

«أهلاً وسهلاً يا افندم. تفضّلي».

دخلت، ودخل وراءها. وجد نفسه في صالة صغيرة معتمة حول جدرانها عدد من المناضد وضعت عليها زجاجات، وفي كلّ زجاجة شمعة. قادتهما فتاة ترتدي «الميني جوب» إلى منضدة في الركن وضعت عليها لافتة مكتوب عليها «ريزرفد» بالحروف الإنكليزيّة. جلسا متقاربين موليين وجهيهما للصالة التي احتلّتها حلبة مربّعة للرقص.

كان المكان مزدحمًا بالروّاد يكادون يلتصقون ببعضهم. في البداية لم تكن عيناه تعوّدتا الظلام، ولكن بالتدريج أصبح يرى الجالسين في حلقات حول الشموع التي ينعكس لهبها بحركة بطيئة في المرايا الموزّعة على جدران الصالة القاتمة، فبدا كأنّ عددهم كبير ولمعت في عيونهم ومضات.

على مائدتهما تبدّلت زجاجة المشروب الذي طلبته دون أن يشعر بمن يأتي بها أو يرفعها عندما تفرغ من محتوياتها. عنقها طويل، وجزؤها الأسفل منتفخ تلتفّ حوله ورقة سوداء اللّون طبعت عليها كلمات بالأحرف اللاّتينيّة الرّفيعة المذهّبة تشبه الثعابين تتلوّى حول بعضها. يتأمّل السائل الورديّ ينسكب في كأسه. يتتبّع الفقاقيع

مرّت الأيّام هادئة بينهما. يذهب هو إلى ورشته ويعود قبل موعد العشاء. وتذهب هي إلى المجلّة، وتعود في أوقات مختلفة تعوّدا أن يتركا الطفلة «عزّة» عند الجارة، زوجة كمساري الترام نظير مبلغ عشرة جنيهات تدفعها لها في بداية كلّ شهر.

نشرت مقالاً في عدد خاصّ من المجلّة عن «التسلّط والسلطة كان عنوانه «الحاكم بأمر الله». نبّهها إلى مخاطر ما تكتبه فاشتعل بينهما الخلاف، وتبادلا كلامًا جارحًا. قالت له «أنت خوّاف تريد أن ننحني أمام الحكّام، أن نضعهم في برواز، ونسجد أمامهم». خرجت من الشقّة دون أن يتصالحا. تركت الطفلة عند الجارة قبل أن تنصرف، وهبطت بسرعة على السلالم.

أغلق باب الشقّة وذهب إلى الورشة. بعد أن انتهى من العمل، وفي طريق العودة عرج على صالة «البلياردو» ووقف يشاهد اللعب. اندسّ وسط الأجسام، والدخان، ورائحة الزبيب، باحثاً عن وسيلة لدفن القلق. هرب إلى جوّ الرجال لعلّه يجد فيه سندًا لكبريائه، وبلسمًا يداوي به نفسه أو كلمات من المديح تؤكّد له مهارته، وامتيازه. على الأقلّ في اللعب. هرب ليبدّد الكراهية التي تستولي عليه عندما ترفض أن تخضع له.

راهن على أحد اللاعبين بخمسة وعشرين جنيهًا خسرها. فتردّد. هل يعود إلى البيت أم يستمرّ في الرهان على اللّعب.. وفي تلك اللّحظة لمح رجلاً يرتدي معطفًا كاكي اللّون يشبه معاطف العسكر. كان يطلّ على اللّعب من فوق الرّؤوس. أنفه كالمنقار، طويل، مدبّب، لوّح له بيده عندما استدار ناحيته كأنّه كان ينتظر الفرصة

المواتية. هيّء له أوّل الأمر أنّه كان يلوّح إلى شخص غيره فالرّجل كان مصابًا بالحول لكنّه تحرّك نحوه شاقًّا طريقه وسط الزحام. عندما أصبح إلى جواره مال عليه. سمع صوته الخشن يتردّد في أذنه سائلاً:

«حضرتك الأستاذ إبراهيم مصطفى سالم»

قال:

«نعم»

«أريد أن أتحدّث معك في موضوع يهمّك»

تبعه إلى منضدة صغيرة تنتصب في ركن من أركان المقهى قرب المدخل المطلّ خلال الزجاج على الشّارع. أشار إليه بالجلوس، وجلس هو في مواجهته، موليًا ظهره للصالة المزدحمة بالنّاس. وجد نفسه أمام وجه يشبه وجه التمساح. العينان الصغيرتان خاليتان من الرّموش، والفم الكبير تنفتح شفتاه الرّفيعتان عن أسنان طويلة صفراء اللّون متساوية.

تفاصيل تلك الجلسة لم تنمح أبدًا من ذهنه، وإن بدت أحيانًا كأنّها لم تحدث. بعدها كلّ شيء في حياته انقلب. . كأنّ الرّجل كان يراقبه منذ زمن منتظرًا اللّحظة المناسبة ليتدخّل في مصيدة.

بدأ كلامه بالإشارة إلى أنّهما جاران فهو يسكن في حارة موازية لشارع وردان الذي يسكن فيه هو. بيته من أربعة أدوار ترتفع خلف العمارة العالية التي يقيم في الشقّة على سطحها. قال عنها إنّها تسدّ الشمس، وتجعله يعاني من آلام المفاصل. نطق الجملة بغلّ وهو يتفرّس في وجهه كأنّه يبحث فيه عن علامات الندم. يشعر بعين واحدة تنغرس فيه كالمسمار بينما تبقى الأخرى سارحة بعيدًا قبل أن تقترب بحركة بطيئة كأنّها تحاصره بين فكّي كمّاشة.

أوضح له أنّه يعمل في الأمن العام، ويريد أن يوجّه إليه بعض الأسئلة عن زوجته «فاطمة محفوظ». متى جاءت إلى الاسكندريّة، ومتى تزوّجها؟ عن المجلّة التي تعمل بها. . من هم أصحابها، ومن هم المشاركون في إصدارها، فعلى الغلاف وفي الترويسة لا يوجد سوى اسم واحد فوق اسمها؟ وما هي معلوماته عنهم؟

أحس بقلبه يدقّ، وبريقه يجفّ. خطر في باله ألاّ يردّ على أسئلته. أن ينصرف تاركًا الرّجل يجترّ غيظه. لكن بعد هذا الخاطر رأى نفسه جالسًا على دكّة في حجرة جدرانها من الإسمنت، وأمامه ضابط المخابرات يفحصه من بين جفونه نصف المغلقة. ثمّ اختفى الضابط، وحلّ محلّه رئيس تحرير «مجلّة الحرّيّة» الذي تحوّل إلى قزم يرتدي عوينات إطارها الأسود سميك فتبدو كالفوهات سيطلق منها سهم يخترق صدره. رأى كلّ حياته كالقطار يمرّ أمامه. استولى عليه شعور بتلك القوى الغامضة تلاحقه. لن يتركوه حتى في هذه البقعة الصغيرة التي لجأ إليها هربًا منهم ليقف أمام «البنك» ويصنع البراويز بعيدًا عن أنظارهم. في أعماقه يقين بأنّهم فتحوا له صفحة في أرشيفهم وسيظلّون يطاردونه إلى الأبد. ألم يحذرها؟ لماذا لم تسمع كلامه؟ إنّه يعرفهم أناسًا بلا رحمة.

عاد إلى البيت بعد منتصف اللّيل. خلع ملابسه وتسلّل تحت الأغطية. في الخارج كانت تصفر الرّيح لكنّها كانت تغطّ في النّوم كالطفل المتعب. مدّت إله يدها دون أن تفتح جفونها، وتمتمت ببعض الكلمات الغامضة. في الصباح لم يقل شيئًا. إنّها متهوّرة لا تزن كلامها، ولا أفعالها. يمكن أن تكشف ما جرى، أن تكتب عن

الرّجل. تقول دائمًا «يجب أن نكشف المستور، أن نعلنه. يجب ألاّ نساهم بأيّ شكل في إخفاء الحقائق». الأفضل أن يتصرف هو في الأمر. أن ينقذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان، أن يساومهم. ألم يقل الرّجل إنّه يقدّم له خدمة أخويّة. إنّها مجرّد تحرِّيّات، وإنّ السّلطات ليست مهتمّة بزوجته وإنّما بالرّجال الذين يصدرون المجلّة، ويقودون المنظمة التي تتستّر وراءها، إنّها ليست سوى امرأة ساذجة وقعت في براثنهم، وغدًا ستفيق. أن يتأكّد منذ الآن أنّ لديه صديقًا في أجهزة الأمن، أنّه صاحب حرفة لها سوق في المصالح الحكوميّة، والهيئات الرسميّة.. فما أكثر الصور التي تؤخذ للرّؤساء وأعوانهم، وما أكثر المناسبات والحفلات التي يتمّ تصويرها. ثمّ ابتسم الرّجل تحت الشارب المصبوغ وأخرج رزمة من الأوراق النقديّة الجديدة رافضًا أن يسدّد هو حساب الكونياك الذي أحضره لهما «الجرسون» قائلاً:

«هذا لا يصحّ. نحن جيران، وأنت ضيفي. الاسكندريّة بلدتي أمّا أنت فنازح من «البدرشين».

في اليوم التالي عندما عاد، كانت واقفة على السطح تستنشق نسيم البحر. أطلّ عليهما البدر يلقي ببريقه على مساحات الرّمل، ورؤوس النخيل تميل من ناحية إلى ناحية كأنّها ترقص. أخذت تغنّي أغنية من تأليفها عن فتاة فقدت بصرها. جلس في الصالة وخلع حذاءه. كلمات الأغنية تتسلّل إليه كأنّها تأتي من شاطئ بعيد.

«لمستي الحسّاسة
شافت في عينيك
أنّ الحبّ انطفأ.
قولي الحقيقة بأه

يا قمر
وحياة عينيك».

في الصباح توقّفت عند باب الشقّة قبل أن تهبط. نحل وجهها فاتّسع سواد العينين. بحث فيهما عن البريق. لم يهتد إليه، فأدرك أنّها تعاني، وتكتم معاناتها. قالت:

«لا نريد أن تفتر العواطف بيننا. إذا كانت هناك أسباب للخلاف فلنصارح بعضنا. لكن دعنا الآن من هذا. غدًا عيد ميلادك ويجب أن نحتفل به».

أخذ مفاتيحه من فوق رفّ الشمّاعة، وحقيبة صغيرة فيها أدوات ابتاعها لحفر الخشب. وضع ذراعه حول كتفيها، وهبطا معًا على السلّم. في الطريق اتفقا على أن يستقلاّ زورقًا يملكه أحد أصدقائه من الصيّادين، وأن يقوما برحلة إلى جزيرة «نلسون» عند شاطئ «أبي قير».

استيقظا في الفجر. بعد أن أعدّا الطعام ووضعاه في سلّة مربّعة ابتاعها لرحلات الصيد. تركا «عزّة» في الحضانة الجديدة التي افتتحتها جمعيّة التوفيق القبطيّة قرب محطّة «كامب شيزار». قالت له «فاطمة» إنّها ذاهبة لتسلّم مقالها في المجلّة، وإنّ المشوار لن يستغرق أكثر من ساعة ونصف ساعة.

انتظرها في الشقّة. مرّت أكثر من ساعة ونصف الساعة فاستبدّ به القلق. ترى ما الذي جعلها تتأخّر؟ كيف تتأخّر هكذا في عيد ميلاده؟ اليوم سيضيع عليهما. عندما تنهمك فيما تفعل تنسى كلّ ما عداه. وفي مرّة من المرّات نسيت موعدها معه في المقهى، وعادت مباشرة إلى البيت لتراجع بعض الرسوم، عندما دخل من الباب وجدها منكبّة على

المنضدة، وأمامها الورق، وأدوات الرسم. نظرت إليه، وابتسمت ثم فجأة تذكّرت. قالت «يا خبر. أنا نسيتك» وبدا عليها الخجل. لكن بعد قليل انفجرت ضاحكة فغضب منها، وظلّ يردّ عليها باقتضاب كلّما تحدّثت إليه، فتركته وعادت إلى الرسوم كأنّها نسيت وجوده.

ضاق من الانتظار فألصق ورقة على باب الشقّة يخبرها فيها أنّه ذهب ليبحث عنها في المجلّة اختصارًا للطريق. سار جزءًا من المسافة ثم أدرك أنّه تسرّع فعاد من حيث جاء. أحسّ أنّه سيحرج نفسه أمام زملائها بهذا التصرّف. ثم ربّما سلكت طريقًا مختلفًا في العودة عمّا تعوّدت. جلس في المقهى قرب محطّة الترام، وطلب كوبًا من اليانسون لعلّه يهدّئ من التوتّر الذي أحسّ به. وفي تلك اللحظة لمحها. كانت تسير مع شاب طويل القامة يرتدي عوينات ومعطفًا أزرق قصيرًا مثل الذي يرتديه العاملون في المطابع وورش التجليد. رآه من قبل سائرًا إلى جوارها، أو جالسًا على الكورنيش، أو رافعًا طرفيْ بنطاله ليخوض بقدميه في المياه عند شاطئ البحر بينما يرفرف شعره في الريح كالجناح الطائر. إنّه صاحب المطبعة التي يطبعون فيها المجلّة.

كان يحمل كيسًا من اليوسفي أخرج منه حبّة، ثم قشّرها وأعطاها نصفها واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه. ثم التهمه بسرعة فطار منه فصّ وانسكب على القميص، فاسترسلا في الضحك. أخفى نفسه خلف كشك السجائر إلى أن سبقاه بمسافة ثم سار وراءهما. لمحها تشدّ على يد الشابّ، وتربّت عليها قبل أن تنطلق في اتّجاه البيت. أحسّ بالضيق. تركته ينتظر في الشقّة يوم عيد ميلاده وراحت تتنزّه، وتتضاحك مع هذا الشابّ الغريب. سار كالأعمى لا يلوي على

شيء. أحسّ بالضياع، برغبة في الانتقام. خياله يتصوّرها مع الشابّ وسط آلات الطباعة التي توقّفت عن دورانها، وأخذ يشرح لها كيف تعمل. يضحكان، يتحدّثان، يتلامسان. نظرات العيون تتحدّث، تصعد معه إلى شقّته. ترقد إلى جواره على السرير. ينزع عنها ملابسها. تتلوّى تحته كالثعبان تشهق يا حبيبي مع أنفاسها.

الصورة تتكرّر في ذهنه. يلعنها بألفاظ بذيئة. يكاد يصرخ. يطرد الصورة من ذهنه لكنّها تعود. تملأه بالكراهية. إنّها امرأة منحطّة لا علاقة لها بما تقوله، أو بالأفكار تخفي وراءها ما تفعله مع هذا الشابّ كلّ يوم. إنّه يكرههما. يكره الدنيا كلّها. لكن يجب أن يهدأ فكلّ هذا الغليان لن يفيده في شيء. لا بدّ أن يفكّر بهدوء. أن يذهب إليها. سيتركها في الشقّة وحدها تنتظر قدومه. لن ينطق بكلمة. سيطردها هي والطفلة التي جاءت بها إلى الدنيا. سيتحرّر منهما لينطلق وحده.

النساء في كلّ مكان يمكن أن يحصل على أيّ واحدة إذا كان في جيبه نقود. ولكن جيوبه ما زالت خاوية. هذا هو بيت القصيد. هذه هي الحقيقة الكبرى التي غابت عنه طوال السنين. لو كان معه نقود لما هربت «فاطمة». هذا الشابّ المخنّث يملك مطبعة وشقّة واسعة فيها أثاث، وتحف، ولذلك تسعى وراءه.

وجد نفسه أمام مقهى «البلياردو». دفع الباب بحركة فيها يأس ودخل. بحث عن المنضدة الصغيرة المنزوية في الركن. كانت خالية فتوجّه إليها. جلس على المقعد موليًا ظهره للجالسين وأخذ يتتبّع حركة الشارع من خلال الزجاج. مرّت الساعات وهو جالس في ركنه كأنّه انفصل تمامًا عمّا يدور. ثم أخرج من جيبه ورقة وقلمًا، وأخذ

يكتب أرقامًا ويجمع، ويطرح كأنّه يحسب تكاليف مشروع. لم يأكل أو يشرب شيئًا، ما عدا قدح كبير من القهوة ارتشفه ببطء إلى أن أتى عليه، ثم طلب فنجانًا ثانيًا من «الجرسون» وعلبة سجائر «كنت كنج سايز». أخذ يدخّن منها دون توقّف، وحتّى فرغت العلبة من اللفائف، طلب من الجرسون أن يأتيه بعلبة ثانية. مرّ عليه بائع الجرائد ابتاع منه جرائد الصباح كلّها واستغرق في قراءة الإعلانات. أخذ يسجّل في نوتة صغيرة أخرجها من الجيب الداخليّ للسترة الجلديّة، ثم عاد يحملق من النافذة دون أن يتحرّك أو يلتفت للروّاد الذين صاروا يلقون إليه بنظرات فيها فضول.

عندما هبط الظلام، وأُضيئت المصابيح وقف رافعًا ذراعيه فوق رأسه منحنيًا إلى الوراء بظهره كأنّ جسمه تيبّس من ساعات الجلوس. كرّر الحركة عدّة مرّات قبل أن يجلس من جديد، ويلوّح «للجرسون». طالباً زجاجة براندي صغيرة ووعاء من الثلج، وطبقًا من الجبن المقليّ والزيتون الأسود، وخبزًا رفيعًا محمّصًا في الفرن.

في ساعة متأخّرة من الليل قادوه إلى مبنى كبير وهو يترنّح في سيره. تركوه في حجرة للانتظار واسعة وأغلقوا عليه الباب. مرّت ساعة أو أكثر ثم حضر رجل يرتدي عفريتة، وبيريه، ونظّارة سوداء قاده خارج الحجرة ثم صعد به على سلالم من الرخام إلى الدور الأعلى. اجتاز ممرًّا طويلاً ثم نقر الرجل على باب من الخشب الداكن ثم فتحه. وجد نفسه واقفًا في حجرة ضخمة غارقة في الظلام إلاّ في طرفها البعيد حيث كان يسقط ضوء أبيض قويّ على مكتب كبير. فوق المكتب لمح ملفّات، وأوراقًا، ويدين تشابكت أصابعهما

السمراء المتورّمة. وبعد لحظات تعوّدت عيناه على الضوء الذي صدمه فتبيّن أنّه خلف المكتب يجلس رجل. كان يميل بجسمه إلى الوراء، فلم يستطع أن يرى وجهه.

دفعته يد في ظهره إلى أن وقف أمام المكتب. كان الصمت مخيّمًا على الحجرة. التقط أصوات تنفّس كأنّما هناك عدد من الناس مختبئين في أركان الحجرة. لمح الضوء منعكسًا في عيني الرجل الجالس خلف المكتب فلمعتا مثل عيون القطط. ثم أمسكت اليد بذراعه وقادته خارج الحجرة.

وجد نفسه في الشارع. أحسّ كأنّه مفرغ من الداخل، فاقد القدرة على أيّ شيء حتّى الإحساس بالخوف، أو الكراهية. إنّ قواه الحيويّة تسرّبت، وتركته كتلة من اللحم مصابة بالوهن. أخذ يبكي في صمت وهو سائر.

لم يعرف كيف وصل إلى البيت، وكيف صعد. عندما دخل من الباب كانت جالسة على السرير تقلّب بعض الكتب. رفعت رأسها، ونظرت إليه. قال: «صباح الخير» فلم تجب. تفرّست في وجهه لحظة بعينين ملأهما حزن بلا أمل. أدرك أنّه سائر في طريق غير طريقها لأنّ طريقها فيه خطر. فكّر في أن يحكي لها، لكنّه صمت. انشغل بخلع ملابسه ثم دخل إلى الحمّام، وترك الماء البارد يسقط على جسمه. عندما خرج كانت قد دفنت وجهها تحت الأغطية. رقد في السرير إلى جوارها. سمع صوتًا كالبكاء الخافت. أنزل الغطاء برفق من على وجهها. كان كالتمثال المنحوت في الحجر الأبيض

سال فوقه رذاذ المطر. تنظر إليه كأنّها لا ترى. فظلّ إلى جوارها لا يتحرّك. سمع آذان الفجر يتردّد. طارت أصداؤه في الفضاء.. سقطت بين الجدران، وفوق الأسطح، ثم ساد الصمت.

جاؤوا بعد آذان الفجر بقليل، في تلك السّاعة التي يجيئون فيها دائمًا. سمع الباب يدقّ بعنف. تعثّر في الظلام إلى أن اصطدمت يده بمفتاح النّور. سأل: «من بالباب».

لم ينتظروا حتى يفتح لهم. كانوا مثل كلاب الصيد يتعجلّون الانقضاض على الفريسة. فتحوا كالون الباب بأدوات كانوا يحملونها، واندفعوا إلى الصّالة. أحاطت بهما دائرة من الأجسام، والعيون، والمسدّسات كأنّهم نماذج متعدّدة لشخص واحد، فالملامح واحدة، والنظرة واحدة، والخوف واحد يخفونه خلف العدوان المباغت.

انتصب أحدهم أمامها. طويل القامة يطلّ عليها من عليائه. سألها. لم يسمع السّؤال، ولا ردّها. لوّح بالمسدّس في وجهها الذي تطلّ منه عينان سوادهما الأسود يحملق في الرّجال وهم يقلبون في الفراش، أو يفرغون أكياس الأرز، والفول المدشوش، والعدس الأصفر.

لم يلتفتوا إليه كأنّه لم يكن موجودًا، أو انتهوا من أمره. ظلّت عيونهم تحملق فيها. بعد أن فرغوا من تفتيش الحجرة وضعت بعض حاجاتها في الحقيبة ثمّ ارتدت جلبابها الأزرق وشالاً من الصوف بينما وقف أحدهما على بابها. عادت إلى الصّالة وفي يدها الحقيبة. خلعت العقد من حول عنقها، ووضعته في سرير الطفلة التي ظلّت تتبع أمّها في رواحها ومجيئها كأنّها تحفرها في ذهنها. مالت عليها وقبّلتها قبل أن تمسك بالحقيبة في يدها قائلة:

«أنا جاهزة»

سارت نحو الباب. توقّفت عنده لحظة كأنّها تذكّرت شيئًا. استدارت لتتأمّل الطفلة في سريرها، وتقابلت عيونهما فكأنّ الحياة كلّها توقّفت، ثمّ استأنفت سيرها فوق السطح. وفجأة صرخت الطفلة صرخة واحدة فجمدت في مكانها. لمح يدها تقبض على الدرابزين بقوّة كأنّها تتشبّث به، وجسمها يرتعش. تردّد صوت رجولي خشن يزعق:

«لا تتوقّفي. أمسك ذراعها يا حضرة الضابط».

أنزلت قدمًا على الدّرج وتبعتها بالأخرى ثمّ جمدت في مكانها. شدّ الضابط على ذراعها فأخذت تهبط. لمح شعرها كشعلة في ضوء النّهار أخذ يتسرّب من زجاج المنور، ثمّ اختفت.

عاد إلى الشقّة. ظلّت الطفلة تنظر إليه بعينيها الواسعتين كأنّها تريد أن تسأل عمّا جرى. بحث عن زجاجة اللّبن المعدّة لرضعة الصباح. وضعها في فمها لكنّها رفضت أن ترضع. بعد قليل وضعت يدها تحت خدّها، ونامت. جلس على المقعد، ومال إلى الأمام مسندًا وجهه إلى كفّيه. لمح شيئًا يبرق في سرير الطّفلة فتذكّر العقد. نقله من السرير ووضعه في المهد المصنوع من القشّ، والمبطّن بالقطن حتى لا يخدش جلدها وهي نائمة. لم يدرك كم من الوقت مضى. صعدت الشمس في السماء، وأضاءت الكون. كانت «عزّة» لا تزال نائمة. نقلها بحرص من سريرها إلى المهد، ودفن العقد بين القشّ، والبطانة. أفرغ زجاجة اللبن من محتوياتها. أشعل موقد الغاز ووضع عليه وعاءً معدنيًّا ملاه بالماء، ثمّ أسقط فيه الزجاجة الفارغة. انتظر حتى غلى الماء ثمّ أخرجها، ولفّها في منشفة بيضاء ووضعها في

المهد أسفل قدميّ الطّفلة، ومعها علبة فيها مسحوق اللّبن.

فتح باب الشقّة، ووضع المهد بالطّفلة إلى جواره. خرج، وأغلق الباب وراءه. حمل المهد، واجتاز السطح إلى الشقّة المجاورة. وضعه أمام بابها، وهو يلقي بنظرات خاطفة حوله ثمّ أسرع إلى السلّم. هبط عليه، وخرج من باب العمارة. توجّه إلى محطّة الترام. عندما جاء صعد فيه إلى الدّور الثاني، وانزوى في ركن العربة خلف امرأة بدينة كانت ترتدي قبعة كبيرة فيها ورد. هبط في محطّة الرّمل وسار في شارع «صفية زغلول». ابتاع حقيبة من الفبر رماديّة اللون، وبعض الملابس، وأدوات للحلاقة، وفرشاة للأسنان، ومنامة، ومنشفة، وخفّ. وضع هذه الأشياء في الحقيبة ثمّ واصل سيره. وجد نفسه أمام مقهى كبير. توقّف أمام الواجهة الزجاجيّة التي كتب عليها بالحروف اللاّتينيّة البيضاء المربّعة «زوتوس الأصلي». حملق فيها لحظة ثمّ دخل. اخترق سحب الدخان، وضجيج الأصوات، وطرقعات النرد ليجلس على منضدة مستديرة رخامها محاط بحلقة من النحاس الأصفر. أحسّ بالرّخام باردًا تحت مرفقيه. لوّح بيده فجاءه «الجرسون». ظلّ يحملق في «الفيونكا» السوداء تبرز كالذبابة الكبيرة من ياقة القميص الملتفّة حول عنقه. نفخ الرّجل في ضيق وسأله بلكنة يونانية:

«تلبك إيه يا إكسلانس؟»

«ربع زجاجة زوتس، وثلج كثير».

«حاضر يا إكسلانس. آيز حاجة ثانية؟»

قال: «لأ». وأسند الحقيبة على الجدار المنتصب خلفه.

مسح الرّجل على المنضدة بالمنشفة التي كان يحملها على ذراعه،

ثمّ انصرف. عاد بعد قليل يحمل صينيّة على يده ويميل بها من جانب إلى جانب وهو يسير بخطىً بطيئة. وضع زجاجة الزبيب على المنضدة، وتبعها بكوب قوامه نحيل، ووعاء من الثلج، وقنّينة مياه، وطبق من الترمس. ظلّ يتتبّع حركاته كأنّ أهمّ ما يحدث في العالم هو هذه الأشياء التي توضع على الرّخام أمامه. صبّ لنفسه كمّيّة من الزبيب، أضاف إليها قطعتين من الثلج، وقليلاً من الماء، وانتظر حتى تحوّلت إلى لون اللّبن. ابتلع رشفة طويلة مرّة واحدة، وتبعها برشفات متتالية كأنّه يعاني من العطش. أخرج من جيبه بعض الأوراق الخاصّة بالورشة فحصها باهتمام. ثمّ أعادها إلى مكانها.

في الساعة الثامنة مساء استقلّ القطار السّريع من محطّة الاسكندريّة متّجهًا إلى القاهرة.

الجزء الثاني

(٨)

مدّت يدها من أعلى زجاج السيّارة المغلق حتى المنتصف. بين أصابعها علبة كبريت صفراء اللّون رسمت عليها نجمة حمراء، ومفتاح كبير. الإسفلت السّاخن يلسع بطن قدميها، فوقفت وهي ترفعهما الواحدة بعد الأخرى من على الرّصيف. عيناه تحتويان القوام النحيل، والوجه برزت عظامه تحت الجلد، والعينان السوداوان الواسعتان في أعماقهما بقايا الرّوح تقاوم كالشعلة في مهبّ الرّيح. تأمّل الأنف البارز في تحدٍّ بين الخدّين. أحسّ بمسحة الجمال الباقية في وجه أكله الجوع. كالزهرة البرِّيّة في أرض بلا ريّ. سألها:

«كم يوم مرّ عليك بلا طعام، يا بنت؟»

فتحت فمها لكن لم يخرج منه صوت. ظلّ مفتوحًا كأنّها نسيت أن تغلقه. جاءته رائحة عفونة مع أنفاسها. فوق الشفتين بثور صغيرة رماديّة اللّون. قاوم النفور الذي استولى عليه، ليلبّي احتياجًا غامضًا في أعماقه يشبه احتياج المرأة الوحيدة التي تلتقط كلبًا، أو قطّة شاردة سارت وراءها. أو ربّما شيء آخر لم يدرك كنهه هو الذي حرّكه، وجعله يهبط من سيّارته ويدور حولها ليفتح بابها ويقول:

«اركبي يا بنت».

أطاعته دون أن تفكّر فيما تقدم عليه. أيّ شيء أفضل من هذه الوقفة البائسة فوق الإسفلت. وجدت نفسها جالسة داخل السيّارة.

المقعد يلين تحت عظامها، لكنّها تظلّ مرتكزة بجسمها على حافّته كأنّها لا تستطيع أن تطمئنّ إليه. صفير العجلات يختلط بصفير آخر في أذنيها لا تعرف مصدره. الصفير ظلّ ينظم حياتها، يقسمها إلى أفعال تتكرّر كأيّام حياتها.

نظراتها مثبتة أمامها. ترى رأسه أعلى المقعد يتطاير حوله الشعر. لا تنظر من النافذة كأنّه لا يهمّها شيء. حركة عينيها تنتقل ما بين رأسه وقدميها ترتكزان على أرض السيّارة كأنّها تتأهّب للعودة إلى الشارع.

أوقف السيّارة أمام عمارة عالية. هبط منها وفتح بابها ثمّ شدّ على المقعد الأمامي حتى تخرج منها. لم تلتفت إليه. ظلّت جالسة مكانها، رأسها محنيّ نحو الأرض. أمسك بذراعها وشدّ عليها. فسمع طقطقة العظام مثل البوص الجافّ عندما ينكسر. قال «انزلي» فمدّت ساقًا ثمّ الأخرى وانزلقت بجسمها من المساحة المفتوحة أمامها.

ارتفع بهما المصعد وهي تلتفت حولها. لمحت وجهًا في المرآة. فيه عينان واسعتان، وأنف بارز، وحفرتان ترسّب فيهما تراب أسود. أهذا هو وجهها؟ كانت تراه في زجاج النافذة عندما تنعكس عليه أشعّة الشمس. بدا طويلاً، نحيلاً وبشرته كالحة.

توقّف المصعد. فتح بابه وجذبها من ذراعها. نزع سلسلة مفاتيح من حزامه، وفتح الباب الذي توقّف أمامه. كانت الشقّة تغطّ في الظلام، فالسواتر مغلقة. تبعته بخطوة القطّ تعوّد اللّيل الأسود. أضاء النّور. لمحته ينظر إليها كأنّه لم يرها من قبل ففوجئ بشكلها. أحسّت بالكراهية كالدودة السوداء تتحرّك في أعماقها. سألها.

«كيف ينادونك يا بنت؟»

تملّكتها رغبة في أن تغرس أسنانها في لحم ذراعه العاري تحت الكمّ المرفوع. لم تردّ عليه فأعاد عليها سؤاله. ظلّت تحملق في السجّادة المفروشة على الأرض دون أن تنطق. لمح دوبارة مربوطة حول معصمها تتدلّى منها قطعة معدنيّة بيضاويّة الشكل. أمسك بذراعها فانتزعتها منه بعنف. انفصلت القطعة المعدنيّة، وسقطت على الأرض. التقطها من بين قدميها بسرعة. قرأ الأرقام المتعرّجة ٣٥٦ منقوشة على صفيحها، التفت إليها وسأل:

«ردّي علي يا بنت. ما اسمك؟»

لم تردّ. أمسك بيدها تركتها له دون أن تقاوم، وقال:

«اتبعيني».

أضاء النّور في الممرّ الممتدّ داخل الشقّة. ثمّ ضغط على مفتاح في الجدار فتسرّب إليها ضوء قويّ. تبعته ببطء كأنّها تتحسّس طريقها. سمع رفرفة ثوبها يلمس الأرض، ويحتكّ بساقيها، فالتفت ليجدها توقّفت إلى جواره قرب باب الحمّام. أخذت تطلّ منه إلى بريق الكروم، والقيشاني المزخرف. دخل إليه، وفتح الصنبور فتدفّقت منه المياه الساخنة في المغطس، وارتفع منها بخار أبيض. خرج ثمّ عاد حاملاً جلبابًا أزرق بهت لونه، وعلّقه على شمّاعة خلف الباب. أغلق صنبور المياه الساخنة وفتح الصنبور البارز إلى جواره فانهمرت منه المياه الباردة. أخرج منشفة من الخزّان المنتصب في الرّكن، وقطعة من الصابون المعطّر.

ظلّت ملامحها السمراء النحيلة جامدة لا يبدو عليها شيء. أغلق صنبور المياه. جذبها برفق داخل الحمّام وقال:

«سأغلق عليك الباب. ألقي بملابسك في هذا السبت، وتحمّمي ثمّ ارتدي هذا الجلباب. إنّه جلباب صبي لكن لا فرق. إن كان طويلاً يمكنك رفعه حول الخصر بهذا الحزام. بالنّسبة للمرحاض هذه هي حنفية الشطف، وهذه اليد تضغط إلى أسفل لإفراغه من محتوياته. يمكنك إغلاق الباب من الداخل بهذا «الترباس». أمّا الزجاجة الموضوعة في هذا الركن ففيها غاز ربّما احتجت إليه لتطهير شعر الرّأس. لكن أرجو ألاّ تعبثي بالأشياء الموضوعة على الرفوف، أو في الخزّان».

توقّف عن الكلام لحظة ثمّ أضاف:

«من الآن فصاعدًا سأناديك «عزّة». نظر إليها طويلاً كأنّه يطمئن على أنّها فهمت كلامه، ثمّ خرج من الحمّام مغلقًا الباب وراءه.

وقفت في منتصف الحمّام دون حركة. أحسّت بالبلاط رطبًا تحت قدميها. دارت بعينيها على الأشياء المرصوصة فوق الرّفوف، على الصنابير، والدشّ، والمغطس المملوء بالماء المخضرّ. لمحت نفسها في المرآة سمراء، نحيلة. شعرها المنكوش يبرز من تحت المنديل. أحسّت بالدّهشة. كلّ شيء في هذا المكان، وكلّ ما يحدث لها غريب. تذكّرت الصالة الكبيرة تتدلّى فيها رؤوس الأدشاش وأجساد البنات العاريات تتزاحمن تحت المياه الضئيلة تتساقط من خرومها، والصرخات، والألفاظ البذيئة. خمس دقائق لدعك الجسم بالصابون، وثلاث دقائق لإزالتها تحت المياه قبل أن تندفع وسط عشرات الأجساد المرتعشة إلى الصالة المجاورة لتجفّف نفسها بمنشفة كالخرقة القديمة، وترتدي ملابسها المعلّقة على مسمار يبرز من «الحيط».

رقمها ٣٥٦، مكتوب بطلاء أسود فوق مسمارها، ومحفور على

القطعة المعدنيّة المربوطة في معصمها. تتحرّك هنا، وهناك مع البنات، مثل حيوان في القطيع. لا تصرخ مثلهنّ، ولا تحتجّ. تستنشق رائحة العطن والعرق في الحمّام، وتصارع من أجل بروة صابون تحصل عليها. تزيل به القذارة المتراكمة على جلدها. لكن هنا في الجوّ رائحة ذكيّة. المنشفة كبيرة بيضاء، ناعمة الملمس. أحاسيس كانت تراودها وهي راقدة على سريرها في العنبر الكبير. كأنّها عاشتها من قبل. عطر الجسم النظيف، والحليب، والصابون، وأشياء أخرى لا تستطيع أن تحدّدها تصعد إليها من ماض مدفون في أعماقها. عطر يختلف عن ذلك الذي كانت تستنشقه عندما يمرّ المدير في مولد النبي ليوزّع عليهنّ قطعة من الحمصيّة ملفوفة في ورق السيلوفان فتشعر بنظراته، تتسلّلان من تحت قميصها، بنني العين تدور دورة كاملة حول حلمة الثدي كأنّه يتحسّس طريقه إليها، يغتصبها في الخيال ثمّ يبتعد بالخطوة البطيئة لصاحب السلطة الذي أدّى مهامه.

خلعت المنديل من حول رأسها، وتأمّلت شعرها المنكوش القذر الذي تشابكت خصلاته. أرهفت سمعها فلم يجئها إلاّ الصّمت كأنّ الشقّة ليس فيها أحد غيرها. خلعت ملابسها، وألقت بها على الأرض. تأمّلت المغطس الذي امتلأ بالماء الذي أعدّه لها. أخذت تعبّ منه بين يديها، وتلقي به على رأسها، وصدرها، وساقيها. ثمّ أسندت عجزها إلى طرف المغطس، وانزلقت داخله لتجلس القرفصاء في المياه الدافئة. ظلّت ساكنة، مستسلمة قبل أن تمسك بقطعة الصابون وتشرع في دعك رأسها داسّة بأصابعها بين خصيلات شعرها حتّى تفكّكها عن بعضها. خرجت من المغطس ووقفت على البلاط. تناولت اللّيفة التي تركها لها وشبّعتها بالصابون قبل أن تمرّ بها على

جسمها عدّة مرّات، ضاغطة عليها بقوّة كأنّها تحاول أن تنزع جلدها. أزالت الصابون بالماء مستعينة بكوز من الصاج وجدته عند آخر المغطس فتكوّنت بركة من المياه تحت قدميها أزاحتها بيديها حتى «البالوعة» المفتوحة في ركن الحمّام. جفّفت نفسها بالمنشفة ملقية نظرات خاطفة في المرآة، ثمّ وقفت أمامها تتأمّل قوامها النحيل وضلوعها البارزة، وتتحسّس بكفّيها الكرتين الصلبتين المتلصقتين بصدرها. هذا هو جسمها لم تره من قبل واقفًا على هذا النحو أمامها. كيف نما إلى هذا الحدّ ومتى؟ كأنّها تكتشفه الآن، للمرّة الأولى. تتأمّله في فضول، مستطلعة. ثمّ تنتقل لتستغرق في وجهها، في المقلتين السوداوين، والأنف الحادّ، البارز. قرب الفم حسنة صغيرة تائهة، وعلى عنقها ندبة كالزهرة البيضاء لم تنفتح بتلاتها. تنظر إلى نفسها باندهاش. كأنّها ليست هي الفتاة التي تراها أمامها. . كأنّها لا تعرف من هي ومن أين جاءها هذا الجسم الذي تراه الآن أمامها. كأنّه ولد في هذه اللّحظة ولم يكن له وجود من قبل.

خرجت من الحمّام مرتدية الجلباب الأزرق الذي يخفي قدميها، ويحفّ ذيله بالأرض. شعرها ينسدل حرًّا على ظهرها وكتفيها. يختفي في أعماقه وهج أحمر يشعّ كلّما تحرَّكت خصلاته. رفع عينيه عن الجريدة فوجدها تقف عند الطرف الآخر للصالة كأنّها توقّفت عندما لمحته جالسًا. تأمّلها نحيلة، طويلة القوام مثل الساق الرفيعة تميل في الريح. الجوع يناديه في همس العينين، وفي عظام الوجه البارزة، فيها وحشيّة القطّ المحاصر. وحشيّة اختفت قليلاً في ثنايا الجلباب الواسع، وخصلات الشعر هذّبتها فلم تعد تتعارك. خطر في باله أنّ هذه هي أوّل مرّة يشاركه إنسان آخر مسكنه منذ أن عاد ذلك

اليوم ليجد المظروف المختوم بالشمع الأحمر ينتظره على المنضدة الصغيرة في الصالة.

*

لم تعرف لنفسها أبًا، أو أمًّا، كأنّها ولدت من بطن الأرض، مثل النباتات الشيطانيّة في الأرض الفضاء المحيطة بالمبنى الكبير الأصفر الذي لم تخرج منه طوال حياتها، شأنها شأن البنات في هذا المكان المطلّ على الصحراء. في الليالي الباردة ينمو فيها حنين جارف إلى دفء الأمّ التي لم تعرفها أبدًا، إلى رحم الأرض التي خرجت منه كأنّ الإحساس بالحياة والموت، بالولادة والفناء، شيء واحد عندها.

عندما يصعد القمر في السماء تزحف على أطراف أصابعها حتّى النافذة لتطلّ من بين القضبان على المساحات الموحشة، تحيط بها من بعيد بعض أشجار النخيل كالرموش حول عين فاقدة البصر. أحيانًا عندما ترهف السمع تجيئها همهمات محمولة فوق الريح، أو ضحكات أو بكاء. وذات مرّة جاءتها نغمات راقصة انجذبت إليها، فلمّا سألت جارتها قالت لها إنّه «فرح» فلم تفهم ما قصدت إليه، لأنّها لم تكن تعرف معنى الفرح.

في ليلة من الليالي القمريّة زحفت ضابطة العنبر بيدها إلى الجزء الأسفل من بطنها. كانت امرأة بيضاء اللون أسنانها الكبيرة بارزة، وعيناها كالمسمارين المدفونين في وجهها. بدا لها أنّ الضابطة تبحث عن شيء ظنّت أنّها تخبّئه تحت سروالها. لكن بعد قليل أدركت أنّها تعبث بجزء من جسمها، لم يصل إليه أحد، ولا حتّى هي نفسها فعضّتها في ذراعها بعنف، غارسة أسنانها في لحمها. أخرجت المرأة

مطواة من جيبها، وطعنتها في العنق حتّى تتخلّص من قبضة أسنانها. لم تصرخ. كانت تدرك ما ينتظرها إذا فضحت أمر الضابطة التي سحبت يدها وأسرعت نحو باب العنبر لتختفي وراءه.

أحسّت بشيء لزج يسيل على عنقها. رفعت يدها إلى الجرح الصغير الذي تركته الطعنة وظلّت تضغط عليه بإصبعها إلى أن توقّف النزيف، ثم لفّت خرقة حوله أخفتها خلف ياقة جلبابها. فلمّا التأم الجرح ترك ندبة بيضاء اللون تشبه البرعم. بعد ذلك كلّما صعد القمر في الليل، وانتشر ضوؤه، لم يكن يغمض لها جفن. تظلّ مفتوحة العينين. تعوّدت أن تتأمّله وهي راقدة في سريرها. أصبح يبعث في أعماقها إحساسًا بجماله يتسلّل إلى أغوارها فكأنّه يضيئها بنوره النقيّ. تتبعه وهو يزحف إلى سريرها ليكشف عن قدمها، أو يدها، أو ساقها عندما ترفع جلبابها. اكتشفت أنّ ساقها جميلة، منسابة في خطوطها، أنّ أصابع قدمها منحوتة بدقّة، إذا حرّكتها تشبه السمكة السابحة في الضوء الفضّيّ، وإذا رفعتها تشعر بالعضلات الصلبة تحت الجلد، تستطيع إن جاءتها الفرصة أن تحملها بعيدًا خارج الجدران التي حاصرتها طوال حياتها.

في إحدى الليالي أرادت أن ترى جسمها في ضوء القمر. أن تتعرّف على الشيء الذي به تحسّ، وتفكّر، وتتحرّك، وتمارس حياتها. ألاّ يبقى لغزًا مخفيًّا تحت ثيابها. خلعت جلبابها فتكشّف أمامها يضوي كالمعدن اللامع في ضوء القمر. أحسّت أنّها تملك شيئًا ثمينًا. بشيء كالنشوة كأنّها وقعت على كنز لا يشاركها فيه أحد، أخذت تمرّ بأصابعها على خطوطه، ومنحنياته كأنّها تكتشف أسراره. ثم أخذت تبحث في أركانه وفتحاته لتتعرّف على ما وراءها.

لم يكن بها عالم تنشغل به. تأكل، وتشرب، وتغتسل، وتتعارك أحيانًا، وينتهي النهار لتنام راقدة في سريرها. الحياة بالنسبة إليها مجرّد بقاء كالحيوان يقضي أيّامه في قفص. فلمّا اكتشفت جسمها انشغلت به، بالشيء الذي تملكه دون سواها، بالكيان الذي وجدته أمامها، وتستطيع أن تنفرد به، أن تتأمّل أسراره. أخذت تنقّب فيه فنمت حواسّها، ومع حواسّها نما إدراكها. لم تكن تفكّر كثيرًا. كان إحساسها هو الذي يقودها. لا يحول دونها والتوغّل في اكتشافاتها سوى الخوف من الضابطة تنقضّ عليها وهي خالعة ثيابها، أو عين تراها فتفشي أسرارها.

أثناء محاولات التعرّف على جسمها أخذت تتلمّس تجويفًا وجدته بين ساقيها. كان مسدودًا بشيء كالغشاء خشيت أن تجرحه فابتعدت عنه بعد أوّل لمسة، لكن عندما وجدت هذا السدّ أمامها زاد الفضول المستولي عليها، أو ربّما أصابها الضيق بما يحول دون مواصلة البحث في جسمها، خصوصًا ذلك الجزء المحاط بالغموض والتستّر. فوجئت ببروز مستطيل أعلى الشقّ الذي تراجعت أمامه. وعندما لمسته أحسّت بشيءٍ كالوخزة الكهربيّة فتردّدت خشية أن تضرّ نفسها. لكنّها بعد قليل عادت إليه. ظنّت أنّه نوع من الورم أصابها في المكان الذي تتبوّل منه، فتملّكها الخوف. لكنّها أخذت تتلمّسه في حرص ومع الحرص لم تشعر بالوخز. حلّ محلّه إحساس غريب. رجفة هادئة، غامضة تبدأ منه، وتصعد كالأمواج الدافئة تعلو، وتتّسع وتزحف على جسمها.

خشيت أن تلمحها إحدى البنات فأنزلت جلبابها ورقدت على سريرها دون حركة. عيناها السوداوان الواسعتان يلمع فيهما ضوء القمر،

وأنفاسها تروح وتجيء بسرعة. حسّها ينبئها أنّها عثرت على شيء يجب أن يحتويه السرّ. إنّهم إذا اكتشفوا سرّها سيحرمونها منه، بل سينالها أذى بلا حدّ. نشأت في العذاب فأدركت بغريزتها أنّ اللذّة محرّمة.

مرّت الليالي وراء الليالي. عرفت أنّ القمر يكتمل بعد ثماني وعشرين ليلة. تعلّمت أن تعدّها على أصابعها حتّى تحصي ما مرّ وما تبقّى. تعدّ أصابع اليد الواحدة خمس مرّات، وتترك إصبعين عندما تعدّ على الثانية. أوّل درس في الحساب تعلّمته وحدها. عندما تنتهي الدورة يصبح القمر بدراً، ويملأ الدنيا بسحره وجسمها بالنشوة. تنتظره. تتتبّعه وهو يزحف على سريرها. يغزوها بتلك الرغبة الملحّة في أن تلمس ذلك البروز الموجود أسفل بطنها.

لأوّل مرّة في حياتها لم يعد جسمها مصدراً للألم. لم يعد كتلة من اللحم تضرب. أصبح مصدراً للذّة هلاميّة تصيبها برغبة متجدّدة في ترويضها. فكلّما مرّت دورات القمر علت موجاتها. وكلّما تدرّبت أصابعها على لمسها صارت الرجفة أعمق، والموجات الدافئة أعلى، وأصبح البروز الذي اكتشفته ينتصب، ويفرض وجوده في حياتها.

بالتدريج زالت عنها الكراهية التي تملّكتها إزاء جسمها. كان هو السبب في كلّ إهانة، كلّ لكزة، كلّ صفعة توجّه إليها. أليست بنتاً؟ أليست لقيطة لا أهل لها، ولا أسرة؟ متاع تنهال عليه الضربات الموجّهة إليها؟ موضوع اللعنات والشتائم الموجّهة لأعضائها تطفئ اللمعة في عينيها السوداوين.

لم تعد تحنّ إلى الموت، إلى الأرض تدفن في أعماقها. لم تعد تفكّر في ما فعلته البنت ذات العينين الخضراوين التي سكبت الغاز

على سريرها في حجرة التأديب، وأشعلت فيه النار وهي راقدة لتشوي نفسها مثل خروف الضحيّة. لم تعد تنتظر صعود القمر. أصبح الظلام ملاذها تستر فيه نفسها بعيدًا عن العيون المتربّصة. أحسّت بأعماقها تتدفّق مثل عين الماء الدافئة في الصحراء المجدبة. أحسّت بالحياة تدبّ وتنتفض، وتنمو في أعماقها، فقد أصبحت فيها لحظات من الفرح.

لكنّها كانت بنت حوّاء. فعندما استيقظ جسمها تحرّك معه عقلها. كرهت أن تظلّ حيوانًا أبكم. وفي ليلة من تلك الليالي القمريّة التي شغفت بها، جلست على السرير المجاور الذي كانت ترقد فيه بنت اسمها «أمل». عاشت الكلمات محبوسة في صدرها لا تعرف كيف تنطق بها لتعبّر عمّا يجول في نفسها. فما بال الكلام على هذا الشيء الذي هزّ كيانها؟ التساؤل عن أيّ شيء يحمل معه الخطر، فما بال هذا الشيء الذي لا يتحدَّث عنه أحد؟!

حاولت أن تأخذ البنت في حضنها لكنّها ابتعدت عنها بحركة غريزيّة فيها حذر. أحسّت بالحيرة. ألقت البنت إليها بنظرة متشكّكة وسألتها:

«عايزة إيه؟»

«عايزة أسألك في حاجة».

«بلاش أسئلة. خلّينا في حالنا».

«دي حاجة في جسمي أنا».

«مالها؟»

«بتوْجعني».

«طب وانا مالي؟ عايزة أنام».

«أنا خايفة أموت منها».

«ما تموتي ياختي، وانا حاعملّك إيه؟»

«إخص عليكي يا «أمل». مش إحنا أصحاب؟»

لمحت نظرتها تتذبذب في تردّد:

«هه. طبّ ورّيني».

رفعت جلبابها، ثم أنزلت السروال لتكشف عن بطنها. اعتدلت «أمل» في سريرها، وقالت:

«فين يا بت؟»

أمسكت بيدها وقادتها إلى أسفل بطنها مبعدة ما بين ساقيها لكنّها سحبت يدها بسرعة من بين أصابعها الممسكة بها. صرخت:

«إيه ده يا بت. أنت عايزة إيه؟»

انزعجت للصوت العالي. همست:

«هس. أنت عايزة تصحّيهم».

أمسكت بيدها من جديد. وقالت:

«هنا تحت. الورم اللّي بيوجعني أهه. أيوه أنت لامساه. عندك حاجة زيّ دي؟»

رقدت البنت على ظهرها ودسّت يدها تحت سروالها. قالت بصوت فيه فرح:

«أبدًا. الحمد لله. ما عنديش ورم خالص. أنا كويّسة».

دقّ قلبها. ظلّت راقدة إلى جوار البنت تفكّر ثم تنبّهت إلى أنّ رقدتها طالت، فعادت إلى سريرها. لم تغلق جفونها طوال الليل. أحسّت بفرحة عارمة. عندها جزء في جسمها ليس عند «أمل». وهذا الجزء مصدر اللذّة التي صارت تستمتع بها، أحسَّت لأوّل مرّة أنّها

مميّزة قادرة على أن تصل إلى ما لا تستطيع أن يصل إليه غيرها.

في تلك الليلة لمست نفسها. تدفّقت فيها الرجفة قويّة عارمة أحسّت بعدها بعقلها صافيًا. فأخذت الأفكار تتزاحم في ذهنها. أدركت أنّ مكانها خارج الأسوار، وليس هنا.

لكنّها ظلّت تعيش متكوّرة حول سرّها كالمرأة التي أحبّت رجلاً هجرها، ولم يترك لها سوى جنينها تحميه في أحشائها. تتلمّس ذلك الجزء الحسّاس من جسمها فتصعد اللذّة فيه أمواجًا تمتدّ حتّى نقطة هلاميّة في أعلى رأسها. عشقت جسمها، وأحبّت نفسها، فنمت فيها رغبة لا تقاوم في أن تطير بعيدًا عن القبح الذي يحيط بها، عن قطيع البنات يصرخن، ويتصارعن، ويتعاركن حول قطع الشغت الراقدة في قاع الأوعية المعدنيّة التي تقفن طوابير أمامها ليحصلن على نصيبهنّ من الحساء تسبح فوق سطحه طبقة من الدخان الأسود. فعلى بعد قليل من الملجأ كان ينتصب صفٌّ من المداخن العالية تندفع منها سحب الدخان الأسود تحملها الرياح إليهم من كلّ فتحات المبنى. فمنذ الصباح الباكر إلى بعد غروب الشمس كانت تمطر السماء تلك الجزيئات الصغيرة تشبه الزغب أو الريش الطائر الأسود. تتسلّل إلى المغسل، والمطبخ، إلى كلّ عنابر المبنى وردهاته وحجراته.. تستقرّ على الملابس، والأغطية، وعلى الأسرّة. تتسلّل إلى أنفها، وحنجرتها، وأذنيها، وعينيها، وشعر رأسها، وتحت جلبابها إلى صدرها، وبطنها، تلتصق بجلد الأجسام، وسطح الجدران، ومربّعات البلاط مثل طوابير من النمل الأسود.

في الليل تحلم بنفسها طائرة مع الحمام يرفرف حول النوافذ في

الصباح، ويحط على أعتابها قبل أن ينطلق. تطلّ عليه من بين القضبان. ترى زرقة السماء الممتدّة فوق الأرض تسير معها حتّى الخطّ الرفيع للأفق يتأرجح بين الحقيقة والوهم. فهي تشعر أنّها رأتها من قبل. رأت السماء أكثر زرقة، ورأت الأرض تميل فوقها الخضرة. تتهادى هذه الصورة القديمة أمام عينيها فتستولي عليها الدهشة. تفرك عينيها بيديها حتّى تتأكّد ممّا تراه فتختفي الزرقة الممتدّة لتحلّ محلّها الأرض القاحلة تبعثرت فوقها نباتات قليلة تحمل أوراقًا صفراء.

*

أقام المدير ليلة ذكر. كان يحبّ أن يشاهد أجسام البنات وهي تهتزّ، وتتمايل. فأمر بتجميعهنّ في الحوش تحت أضواء المشاعل. أحاطت بهنّ الضابطات، والملاحظات، والفرّاشات، وعضوات مجلس الإدارة، وقد ارتدين جميعًا جلاليب خضراء وقباقيب، أو صنادل. وجلس هو على مقعد مرتفع.

أخذ الجميع ينشدن في حبّ الله ورسوله وهنّ يطوّحن بأجسادهنّ من ناحية إلى ناحية، ويحرِّكن أذرعهنّ ورؤوسهنّ في كلّ الاتجاهات. بالتدريج زادت وتيرة الإنشاد، ومالت الأجساد في نشوة معذّبة كأنّها تريد أن تخرج من جلدها. دارت الشعور الطويلة حول رؤوسهنّ، ولمع العرق على الوجوه في ضوء المشاعل. استولى على بعضهنّ حالة من الهذيان فسقطت إحداهنّ على الأرض مغشيًّا عليها وهي تضرب على الأرض بيديها.

لمّا انتهى الذكر أمسكت الضابطات بالعصي الكهربائيّة وسقن البنت حتّى العنابر. انزوت في ركن مظلم من الحوش، وبعد أن خلا تمامًا

أخفت نفسها في دورة المياه. انتظرت حتّى أُطفئت الأنوار في المبنى الكبير وسكنت جميع الأصوات ما عدا شخير الحارس يرتفع من الكشك الخشبيّ حيث ينام فيه عند البوّابة التي لا تفتح إلاّ مرّة في الصباح ليدخل منها لحم الحمير، والجمال، والكرمب أو الكرات، وصفائح العسل الأسود، والخبز الأسمر الجافّ، ومرّة أخرى آخر النهار لتخرج منه الفضلات.

تسلّلت إلى الحوش في نصف الظلام. أعلى البوّابة وعند أركان الجدران العالية أُضيئت مصابيح تلقي نوراً ضعيفًا يكاد لا يبدّد الظلام، فبدا كأنّ الحوش مسكون بأجسام هلاميّة تتحرّك هنا، وهناك. مرّت إلى جوار الكشك وفي اللحظة نفسها توقّف شخير الحارس كأنّه أحسّ بخطواتها خلال الباب الموصد الذي يرقد وراءه. سمعت أزيز سلوك السرير وهو ينقلب عليه ثم عاد شخيره أعلى ممّا كان، فهدأت دقّات قلبها. خطت بسرعة على قدميها الحافيتين متّجهة بعيدًا عن البوّابة، وتسلّلت محتمية بالمساحات التي لا يصل إليها شعاع المصابيح. عند الركن البعيد توقّفت لحظة ماسحة بيدها على الجدار لتكتشف الثغرات بين أحجاره، ثم أخذت تتسلّقه واضعة أصابع يديها، وقدميها في الفواصل. عندما وصلت إلى أعلاه رفعت نفسها بحرص لتتفادى قطع الزجاج البارزة المغروسة فيه. هبطت في الناحية الأخرى مولية وجهها للجدار، حتّى تهتدي إلى الأماكن التي يمكن أن تستند إليها أثناء النزول. عندما أحسَّت بالأرض تحت قدميها انطلقت تجري.

عثر عليها البوليس نائمة على دكّة خشبيّة في محطّة سكّة حديد «حلوان». ربطوا حبلاً حول عنقها، وجرّوها خلفهم حتّى ملجأ الأيتام. أدخلوها في حجرة خالية مطليّة بالجير، وأرضها من القار.

في أحد أركانها مرتبة، ووسادة، وغطاء من الكتّان الغامق. ظلّت في هذا المكان أيّامًا عجزت عن تعدادها، فلا أحد يبادلها الكلام. يفتح الباب ثلاث مرّات في اليوم لإدخال الطعام، وتغيير الماء الموضوع في إناء من النحاس، وإخراج الوعاء المعدنيّ الذي تفرغ فيه فضلات ما بقي من جسمها النحيل.

لكن في صباح أحد أيّام شهر رمضان (عرفته من تغيير مواعيد الطعام) فتح الباب لتجد أمامها امرأة قمحيّة اللون، قصيرة القوام ترتدي زيّ الضابطات. ألقت إليها بنظرة فيها إشفاق وهي راقدة في ركنها القذر تفوح منها رائحة عفونة. وضعت إصبعها فوق شفتيها كأنّها تحذّرها من الإتيان بأيّ تصرّف يمكن أن يلفت إليهما الانتباه، ثم مدّت إليها يدها، وشدّت على ذراعها إلى أن أوقفتها على قدميها. خرجت من الباب، وأشارت إليها بأن تتبعها. سارت أمامها في ردهة طويلة، وتوقّفت عند باب فتحته وأفسحت لها الطريق ثم دفعتها بحركة سريعة من يدها على كتفها لكي تخرج منه. وجدت نفسها تطلّ على سلّم من الحديد. لوّحت لها الضابطة بحركة من يدها توحي بالوداع، وتراجعت بسرعة لتختفي وراء الباب الذي أغلقته وراءها. تردّدت لحظة قبل أن تهبط بحرص فوق الدرجات. عند آخر السلّم وجدت نفسها أمام باب من الصاج. أمسكت بالمقبض وضغطت عليه، فوجدت نفسها فجأة في الفناء وسط المئات من بنات الملجأ هبطن من العنابر. لمحت الضابطات، والملاحظات تفرّقن وسط تجمّع البنات يحملن في أيديهنّ المناديل البيضاء. ثم انفجرت الهتافات صارخة «يسقط الظلم، يسقط الظلم. جعانين، جعانين، يا راجل يا مدير».

اندفع الجمع الكبير نحو البوّابة التي راحت تئنّ تحت ضغط

الأجسام. لمحت الضابطة التي فتحت لها غرفة التأديب، وأخرجتها تهتف بأعلى صوتها، وتلوّح بمنديلها. وفي لحظة التفتت ناحيتها فالتقت عيونهما في رسالة صامتة. ألقت إليها الضابطة بابتسامة فومضت أسنانها البيضاء وسط الوجوه. أحسّت بالفرحة، بان لها وجود. كانت فرحتها كبيرة لم تشعر بمثلها من قبل فأخذت تهتف بحماس: «يسقط الظلم. عاشت الحرّيـة». تردّدت الهتافات في وقع واحد يعلو فوق الرؤوس، ورفرفت مئات المناديل البيضاء. اندفعت الأجسام بقوّة متزايدة تضغط على البوّابة ارتفع أنينها كأنّها لم تعد تحتمل ثم انفتحت بصوت مثل الانفجار، وتدفّق فيضان البنات إلى الشارع.

سارت مع الجمع دون أن تعرف إلى أين تسير. الوجوه كلّها مبهمة، والملامح غامضة. فالمصابيح الكهربائيّة في الشارع مطفأة. كانت الأذرع كلّها متشابكة، وبعد قليل أصبحت الخطوة واحدة ترنّ فوق الأسفلت. وعلى طول الطريق أخذت تنضمّ إليهنّ مجاميع الناس. شعرت كأنّها تسبح في بحر فتركت نفسها للتيّار يحملها معه. أحسّت كأنّها فقدت ثقل جسمها وأصبحت تطير. لم يتملّكها القلق أو الخوف رغم الهتافات التي غدت كالرعد، ورغم الظلام. أحسّت بالاطمئنان، بأنّها لم تعد وحدها. بأنّ جسدها محميّ بأجساد البنات. فهذه القوّة الجبّارة تحميها بعد أن كانت تصارع وحدها.

بين الحين والآخر كانت تضوي الكشّافات في الظلام، وتسمع صوتًا يقول: «من هنا يا بنات، من هنا». كان الصوت الذي يأتيها يبدو دافئًا، رغم أنّه صادر من ظلّ أو شبح لا تراه. يقترب منها في لحظة، ثم يختفي في الظلام.

مرّ الوقت، وتوقّفت الهتافات فلم يعد يُسمع إلاّ وقع آلاف

الأقدام. وبعد قليل تبيّن لها أنّ ذراعيها أصبحتا حرّتين كالطائر الصغير أطلقته أمّه ليطير وحده في السماء. بدأت جماعات البنات تتفرّق تدريجيًّا لتذوب في الظلام. شعرت بشيء كالضياع إلى جوارها. لمحت صبيًّا صغيرًا ارتدى ما يشبه الجوال، فتحت فيه ثلاث فتحات للرأس، والذراعين. كان يشدّ من ورائه كلبًا صغيرًا ربطه حول عنقه بحبل رفيع. بين الحين والحين يتوقّف الكلب، فيستدير الصبيّ ويقول: «يا الله يا سمسم، يا الله حاشوفلك حاجة تاكلها دلوقت». فيميل الكلب برأسه وينظر إليه بنظرة فيها رجاء قبل أن ينطلق أمامه.

وجدت نفسها واقفة مع الصبيّ والكلب أمام حانوت. خلف مصطبة عالية مغطّاة بالرخام كان ينتصب رجل ملتحٍ يرتدي طاقيّة من القطن فيها ثقوب، وجلبابًا ناصع البياض. فوق رأسه يتأرجح «كلوب» مضاء يصدر عنه صوت كالهمس ويلقي على وجوه الناس ضوءًا أزرق وهّاجًا يضفي عليها شحوبًا كأنّها مصبوبة في الرصاص. كان يرفع ذراعه المفتولة العضلات، المغطّاة بالشعر تظهر أسفل الكمّ المرفوع حاملة وعاءً من النحاس اللاّمع تصبّ منه سائلاً أصفر اللّون، فوّارًا في صفٍّ من الأكواب ليوزّعها على الواقفين حول الباب.

تتبّعت واحدًا يرتدي عفريتة داكنة اللّون وهو يبتلع السائل في جوفه دفعة واحدة، ثم يجفّف شاربه بظهر يده المعروقة. مرّت بلسانها الجافّ من العطش على شفتيها المشقّقتين وتسلّلت بجسمها النحيل بين الأجسام إلى أن أصبحت أمام البائع الذي انشغل بملء الأكواب. همست في صوت مرتعش:

«عطشى يا عمّ. اسقني لأجل النبي».

لم يسمعها، فرفعت صوتها وكرّرت ما قالته بصوت أعلى قليلاً.

حملق الرجل في وجهها غاضبًا وشخط:

«والنبي غيبي عن وجهي بسرعة».

تدخّل الرجل الذي كان يرتدي العفريتة قائلاً:

«اعطيها كوبًا يا حاج، وخذ هذا النصف الجنيه».

مدّت يديها الاثنتين، وأمسكت بالكوب. ابتلعت العصير بسرعة ثم تركت الكوب الفارغ فوق لوح الرخام، وانسحبت متسلّلة وسط الزحام. سارت في الشوارع إلى أن أنهكها السير، فجلست على أحد الأرصفة تستريح. كان ضوء رماديٌّ بارد ينتشر في الأفق. ظلّت مقرفصة على الأرض، واضعة يديها تحت الإبط لتدفئهما، وهي تحملق أمامها. أحسّت بالجوع ينهش بطنها فضغطت بإحدى كفّيها عليه. لاحظت رجلاً توقّف على بعد خطوات، وأخذ يحملق ناحيتها، وهو يشدّ أنفاسًا من سيجارته دون أن يخرج دخانًا. لاحظت أنّ يده منكمشة تشبه المخلب يبرز منها طرف السيجارة مثل العين الحمراء. خطا نحوها خطوتين، وسألها:

«من أين يا بنت؟»

لم تلتفت إليه. وقفت كأنّها قرّرت أن تنصرف. ألقى ناحيتها بنظرة فاحصة فيها ضيق، وقال:

«عندي طعام في البيت اتبعيني».

سار فوق الرصيف. تردّدت لحظة ثم سارت وراءه دون أن تقول شيئًا. ترك الشارع وانحرف في حارة طويلة. انتقل من حارة إلى حارة متخطّيًا أكوامًا من الفضلات، وبركًا من المياه، وهي تخطو وراءه نصف نائمة تكاد لا ترى شيئًا سوى جلبابه الداكن الممزّق عند أطرافه، باذلة جهدًا حتّى لا يفلت من أمام عينيها في الحواري،

والأزقّة التي توغل فيها. تسلّل إلى ممرّ صبّ عند آخره في حوش كبير. لمحت ديكًا يقف فوق جدار. نظر إليها في غضب قبل أن يقفز ويختفي. عند فتحة الممرّ رقد كلب. فتح عينًا واحدة رمقهما بها ثم قام ليفسح الطريق. عبرا الحوش إلى الناحية الأخرى، وأمام أحد الأبواب المتراصّة في صفّ أخرج الرجل من جيبه مفتاحًا طويلاً، وفتحه ثم دخل في الجوف المظلم. ظلّت واقفة حيث هي فخرج وشدّها من ذراعها لتتبعه. أشعل عود ثقاب، وأضاء لمبة غاز فوجدت نفسها واقفة في حجرة ضيّقة، مستطيلة بالكاد تسعهما. الجدران مطليّة بالجير تتخلّله مساحات عارية من الطوب اسودَّ لونها، وسقطت أجزاء منها تاركة فجوات في الجدار. على الأرض فرشت حصيرة وألقي فوقها بوسادة ولحاف. في ركن الحجرة مقعد متهالك من القشّ، وطبليّة صغيرة وضع عليها طبق مغطّى برغيف من الخبز، وكوب فيه بقايا شاي.

جلس على المقعد رافعًا جلبابه ليكشف عن ساقين رفيعتين جلدهما أملس خال من الشعر تمامًا. حملق ناحيتها وهي تقف قرب الباب كأنّه يفكّر في الخطوة التالية. مال فوق الطبليّة ورفع رغيف الخبز من على الطبق ليكشف عن بعض أقراص الطعميّة، وقطع من الباذنجان، والبطاطس المقليّة. سألها:

«ما اسمك يا بنت؟».

لم تردّ، فأعاد الرغيف إلى مكانه. تتبّعت حركاته بعينيها السوداوين الواسعتين يطلّ منهما بريق كالحمّى الغارقة في الأعماق. ظلّت صامتة لا تنطق بشيء. انفرجت شفتاه الرفيعتان لتكشفا عن أسنانه المدهونة بلون التبغ:

«يبدو عليك أنّك ذكيّة يا بنت. اجلسي. هذا الطعام لك».

اندفعت نحو الطبليّة، وجلست إليها مقرفصة. مدّت يديها الاثنتين وأخذت تلتهم الأكل سريعًا إلى أن أتت عليه.

سألها:

«أتشربين؟»

هزّت رأسها بالإيجاب، فقام من جلسته وتناول قلّة موضوعة عند نافذة صغيرة مربّعة مغطّاة بالقضبان يتسلّل منها ضوء ضعيف. مالت برأسها إلى الخلف وسكبت الماء من فتحة القلّة في فمها المفتوح. لمح النبض في عنقها ينتفض أسفل الفكّ، وعظام الكتفين بارزة تحت الجلباب. رفعت ياقة الجلباب بحركة سريعة كأنّها تريد أن تخفي شيئًا. أزاح الطبليّة جانبًا وسحب من تحتها صندوقًا من الورق المقوّى ألصقت عليه بطاقة صفراء اللّون في منتصفها رسم لمفتاح أسود كبير، ونجمة حمراء.

أشعل الرجل سيجارة بعود ثقاب أخرجه من إحدى علب الكبريت المرصوصة في الصندوق. أخذ نفسًا عميقًا ابتلع به كلّ الدخان. سمعت كلماته تخرج منه مثل الحشرجة في الحلق:

«من الآن فصاعدًا ستقومين بما أطلبه منك. أوّل شيء هو بيع الكبريت الذي ترينه في هذا الصندوق. العلبة بقرش صاغ. وكلّ لفّة فيها عشرون علبة. سأعطيك في كلّ يوم ثلاث لفّات أي ستّين علبة. عليك أن تقومي ببيعها عن آخرها. وإلاّ لن يحدث لك خير. سأحدّد لك الأمكنة التي يمكنك الوقوف فيها. وسأمرّ عليك فيها في أوقات مختلفة وأنصحك ألاّ تحاولي الهروب فسألحق بك أينما تكونين».

أخرج سكّينًا طويلاً من غمده المربوط في ساقه ولوّح به أمامها، ثم استطرد: «إذا لم تفعلي ما أطلبه منك بحذافيره سأذبحك بهذا السكّين. لكن مقابل جهدك في بيع الكبريت سأعطيك ما يكفيك للأكل، وستنامين هنا على هذا الفراش، وسأحميك من ذئاب الطريق، ولن يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منك. افهمي كلامي جيّدًا إذا أردت أن تسلمي. اسمعيني وقولي حاضر».

لم تردّ فضربها ضربة بكفّ يده على رأسها رنّ صداها في الحجرة. قالت بصوت خفتت نبراته دون أن تتحرّك أو تنظر إليه:

«حاضر».

في صباح اليوم التالي بعد أن تسلّل شعاع باهت من الشمس إلى الحوش، سار بها في الحواري ثم في الشوارع وصولاً إلى مقهى كبير فأوقفها عند الناصية أمامه. تسمع الهمهمة المتّصلة للأصوات وصوت الملاعق يصطكّ بالأكواب. ظلّت واقفة حتّى امتلأ المقهى بالروّاد. تلمح النادل يروح ويجيء بأكواب الليمون، والتمر هندي، والكركديه والشاي، وبزجاجات يسيل منها سائل فوّار، وهي تجري هنا وهناك فوق الاسفلت الساخن، وفي يدها علبة كبريت صفراء اللّون رسم عليها نجم أحمر، ومفتاح. الداخلون إلى المقهى، والخارجون منها، يتأمّلون الفتاة النحيلة ترتدي جلبابًا ممزّقًا حول قوامها الطويل، ومنديلاً تبرز من تحته خصلات شعرها تضوي كالنحاس في أشعّة الشمس، قبل أن يتّجهوا إلى أحد المناضد الموزّعة داخل المقهى تدور فوقها المراوح المثبتة في السقف العالي. تلمح في نظراتهم شيئًا يخيفها، فتستدير معطية ظهرها إليهم، شاخصة إلى السيّارات تسير في سيل لا ينقطع طول النهار.

(٩)

قام من جلسته وأشار إلى المائدة البيضاويّة حيث أطباق الطعام. أمسك بذراعها وأجلسها على مقعد أمامها. لم تمدّ يدها إليها فتركها وانسحب إلى مكان ما داخل الشقّة. التفتت حولها كأنّها تتأكّد أنّه غاب، وبدأت تأكل ببطء. ولكن بعد قليل أخذت تملأ فمها بمحتوياتها، وهي تكاد تبتلعها دون أن تمضع.

عندما عاد كانت قد أتت على أغلب الطعام. لكنّها لم تقترب من البطيخ أو اللّحم. قادها إلى الحمّام حتى تغسل يديها. اصطدمت نظراته ببركة الماء، والصابون، تراكمت فوق بلاط الأرض، وبكوم الملابس القذرة التي خلعتها، وألقت بها قرب المرحاض. لم يقل شيئًا. أزاح بركة الماء نحو البالوعة بزحّافة من المطّاط أخرجها من دولاب في الطرقة. وضع ملابسها في كيس من القطن. حمل الكيس إلى المطبخ وألقى به خارج الباب الجانبي للشقّة ثمّ عاد. أشار إليها لتتبعه وسار إلى حجرة ينفتح بابها على الطرقة. الحجرة متوسّطة الحجم، جدرانها بيضاء فيها سرير، ودولاب، ومنضدة مربّعة صغيرة لها درج وضع عليها مصباح كهربائي، ومقعد موضوع في ركن. ضغط على مفتاح يبرز من قاعدة المصباح فأضاء ملقيًا دائرة من الضوء على مفارش السّرير الورديّة اللّون.

أخذ يتحدّث إليها عن بعض الأشياء الخاصّة بإقامتها في الحجرة،

لكنّها لم تكن ملتفتة إلى ما يقوله. كان ذهنها مشغولاً بالسّرير، برغبة ملحّة في أن ترقد عليه، وتستسلم للنّوم. تشعر بجفنيها ثقيلين يكادان يسقطان فوق عينيها، بجسمها يكاد يهوى من تحتها. لكن بدا وكأنّه لا يحسّ بحالها.

عاد بها إلى المطبخ، وعرّفها بمكان الخبز يحتفظ به في علبة من الصفيح مستديرة لها غطاء، بأنواع الشاي المرصوصة على رفّ من الخشب، وبأصناف الطعام الموضوعة في المبرد الذي فتح بابه ليستعرض محتوياته.

سار بها مرّة أخرى إلى حجرة النّوم فوقفت إلى جواره شاخصة إلى السّرير وهي تكاد تترنّح من شدّة التعب. قال لها إنّه سيغادر الشقّة ويغلق بابها بالمفتاح، فإذا دقّ أحد على الباب عليها ألاّ تفتحه، وإذا رنّ الجرس يجب أن تتجاهله تمامًا. إنّه لن يغيب. سيبتاع بعض الأشياء من السوق المجاور ويعود على الفور. كرّر عليها هذه التنبيهات مرّة أخرى دون أن تستوعب أيّ شيء من الكلام الذي وجّهه إليها. تهزّ رأسها بين الحين والآخر دون أن تنطق. بدا لها أنّه سألها عن اسمها قائلاً «ما اسمك يا بنتي» وأنّها ردّت عليه. ثمّ غابت عن الوعي تمامًا كأنّها غرقت في بئر عميق ولم تعد تشعر حتّى بالسواد الذي احتواها.

عندما استيقظت وجدت نفسها راقدة على السّرير وجسمها ممدود تحت الغطاء. أحسّت بالدهشة وهي تنظر إلى الغرفة فهي لا تذكر كيف وصلت إليها. تذكر فقط أنّها سقطت في بئر عميقة وبعدها غاب عنها كلّ شيء، ثمّ سمعت نقرة خفيفة على الباب ووجدته واقفًا

أمامها. كان شعاع رفيع من الشمس يتسرّب إليها من شقّ في الساتر. لاحظت أنّه ظلّ واقفًا يتأمّلها في صمت. التقت عيناها السوداوان بعينيه. لم تتبيّن لونهما في نصف الظلام المحيط بسريرها. لم تشعر بالخوف، وفركت عينيها منتقلة من النّوم العميق إلى اليقظة الكاملة بتلك القدرة التي تدرّبت عليها في العنبر الكبير الذي عاشت فيه أغلب سني عمرها. لم تكن تعلم ما يمكن أن يباغتها في أيّة لحظة. سمعته يقول:

«صباح الخير يا «عزّة». هل كنت مرتاحة في النّوم هذه اللّيلة».

اندهشت عندما سمعته ينطق بالاسم الذي خاطبها به، من هي عزّة هذه؟ إنّها ليست «عزّة». إنّها لا تعرف لنفسها اسمًا، ففي الملجأ لم يكن لها اسم. كان لها رقم هو ٣٥٦ ينادون عليها به. فإذا سمعته تتنبّه كالقطّ سمع صوتًا يتهدّده في الظلمة. تدور برأسها وعينيها إلى المكان الذي جاء منه الصوت. ترتعش بحركة فيها توتّر. تحاول أن تتنبّه إلى ما يطلبونه منها، أو ينذرونها به قبل أن تسقط العصاة على ظهرها، أو ردفيها أو أيّ مكان آخر في جسمها. هناك لم يكن أحد يسألها إن كانت ارتاحت في نومها. لذلك لم تعرف بماذا يمكنها أن تردّ، رغم أنّها ارتاحت إلى صوته، وليس فيه عدوان أو نبرة خفيّة تخشى منها. صوت مدير الملجأ لم يكن يرتفع عاليًا عندما يسأل عن شيء، أو يصدر أوامره عندما يمرّ. يكاد يهمس عندما يتحدّث إليهنّ. لكنّها كانت همسة تثير قشعريرة تحت جلدها. مثل فحيح الثعبان أو الحيّة. أمّا صوته هو فواضح فيه عمق، ونبرة أقرب إلى الحزن.

عاشت طوال حياتها مثل الحشرة في الظلام. تعوّدت التمييز بين الأصوات، والتقاط طبقاتها، أو رنينها، فنمت قدرتها على إدراك

خصائصها، وتفسيرها. نغمة الانكسار تبعث فيها شعوراً بضرورة الحذر. فالضعيف لا يؤمن جانبه. لكن صوته هو رغم هدوئه ليس فيه ضعف. ظلّ التفكير عندها بدائيًا، لكن إحساسها نما نتيجة ظروفها. أنثى لقيطة ليس لها أهل تدافع عن نفسها في كلّ وقت بأحاسيسها تحدّثها عن أشياء تجري تحت السطح.

تأمّلته بنظرة ثابتة. عيناها واسعتان يبدو سوادهما كبيرًا مخيفًا في الوجه النحيل البارزة عظامه. تبثّان فيه الرّهبة كأنّ عيون الموت تنظر إليه. ابتعد عنها، وجلس على المقعد يتطلّع إليها. كيف يستطيع كسر جدران الصّمت التي انبنت حولها منذ أن كانت طفلة في المهد. سألها:

«كم عمرك يا «عزّة»؟».

نظرت إليه كأنّها لم تفهم سؤاله. عالم الملجأ كان واضحًا ربّما بسبب قسوته فتعلّمت كيف تتصرّف إزاءه. أمّا هذا الرّجل فما الذي يجعله يهتمّ بها؟ ما الذي يريده منها؟ ما الذي يختفي وراءه؟ ولماذا يسألها عن عمرها؟ يجب أن تردّ عليه حتى لا يغضب منها. خطر في بالها رقم. تردّدت ثمّ قالت:

«إحدى عشرة سنة».

أشعل سيجارة ونفث دخانها. ابتسم ناحيتها مشجّعًا فزاد حذرها. استطرد سائلاً:

«ومتى يقع يوم عيد ميلادك؟»

بدت عليها الحيرة. تشابكت أصابع يديها بحركة متوتّرة فاحتار بدوره. إنّها أوّل مرّة يتعامل مع فتاة في سنّها. قال:

«سأهبط لشراء بعض الأشياء. أنا سعيد بوجودك هنا في الشقّة ولا بدّ أن نحتفل بهذه المناسبة. أموافقة أنت؟»

هزّت رأسها. لم يعرف معنى الهزّة. لم يسألها. لكنّها كانت تدلّ على أنّها سمعت الكلام الذي وجّهه إليها.

عندما عاد وجدها جالسة في الصالة. بدا عليها أنّها غسلت وجهها، ومشّطت شعرها. وضع اللّفائف التي أحضرها معه على مائدة الطعام وأخذ يفتحها الواحدة بعد الأخرى. أخرج منها كعكة شيكولاتة مستديرة الشّكل، ووضعها على طبق من الصيني الأبيض. ذهب إلى المطبخ وعاد حاملاً قدحين، وبرّادًا للشاي، وإبريقًا للّبن، ووعاء للسكّر وضعها على المائدة قائلاً:

«يالله نحتفل بمجيئك يا «عزّة». أنا أعشق الموسيقى، والرّقص لكنّني لم أمارسهما أبدًا. سأسمعك بعض الموسيقى الشعبيّة التي أحبّها. ربّما أعجبتك. ثمّ أذهب لعمل الشّاي».

اقترب من دولاب منخفض في الصالة يمتدّ بطول الجدار. فوقه كانت ترقد علبة سوداء اللّون، اقترب منها وضغط على شيء فيها. أضاءت عين خضراء صغيرة على ناحية وأخذت تنبعث منها أنغام راقصة. طرقع أصابعه عدّة مرّات وتقدّم ناحيتها على وقع ضربات الطبل ثمّ دار حول نفسه مرّة قبل أن يتوقّف على بعد قليل منها. أحسّت بالفرحة تصعد في صدرها، بجسمها يتحرّك بحركة بسيطة تحت جلبابها. تزاحمت وجوه البنات من حولها. رأت عشرات العيون وهي تبرق، وسمعت عشرات الأصابع تدقّ على لوح من الخشب والأصوات تلحّ عليها «يالله يا بت ارقصي. يالله يا بت». تبدأ

في الرّقص بحركة بطيئة متموّجة ثمّ تسرع. تشعر أنّها ولدت لكي ترقص. يتحرّك جسمها مع الموسيقى، مع صوت الصاجات، ودقّ الطبول كأنّها تعبّر عن أشياء عميقة تريد أن تخرج. تشعر أنّ الأنغام تقودها، تجعل جسمها يتحرّك وحده، تجعله يدور، ينحني، يتلوّى، ويرفع قامته للسماء. وتجعل الأمواج في جسمها ترتفع أعلى، وأعلى، ممتلئة بالنغم، عنيفة، متمرّدة، صاعدة من أعماقها. تنتشر في اللّحم تحت جلدها. تنتقل إلى البنات المحيطات بها برسالة فيها غضب، أو حنق، أو حبّ، أو حزن، أو يأس، أو فرحة الحياة نفسها، ونبضها. توقظ الآلهة، والشياطين الراقدة في أعماقها. فعندما تبدأ في الرّقص لا شيء يستطيع إيقافها. تحملهنّ بعيدًا مع الأحلام الغامضة التي ماتت واستيقظت مع التحدّي المنبعث من جسمها.

عجزوا عن تأديبها. ربطوها في الفلكة، وانهالوا على بطن قدميها بضربات العصا. أرادوا أن يجعلوها عاجزة على الرّقص. لكن جروحها كانت تلتئم بسرعة كأنّ الطبيعة وهبت قدميها القدرة على أن تتحمّل ما لا تتحمّله أقدام البشر عادة. كانت تصرّ على المشي رغم الآلام التي تعاني منها. تعود إلى الرقّص قبل أن تشفى منه. تستجيب لإلحاح البنات «يا الله يا بنت، ارقصي يا بنت». ففي أعماقها رغبة لا يمكن ترويضها، رغبة ظلّت أقوى من كلّ العذاب الذي يفرض عليها.

مع ذلك وقفت أمامه جامدة. في قلبها إرهاصات الفرحة التي لم تولد. وفي جسمها، وقلبها ثقل التجارب التي عاشتها، وخوفها ممّا يمكن أن يحدث لها إذا تجاوبت مع هذا الرّجل المجهول الذي لا تعرفه.

ظلّ يصفّق بيديه، ويدقّ بقدميه دون جدوى. عيناه تستجديانها

لكنّها تقف جامدة دون أن تتحرّك من مكانها. وفجأة توقّف وحملق ناحيتها بنظرة غريبة. أصبح شاحب الوجه. تراجع إلى الوراء وسقط جالسًا على المقعد. أصابعه تتلمّس رأسه خلف أذنيه، ثمّ تهبط على عموده الفقري كأنّه يبحث عن جرح قديم مازال ينبض. نظراته أصبح فيها حذر، وعداء، كأنّ هناك سرًّا يسعى إلى إخفائه.

صرخت صرخة مدوّية، وانطلقت نحو باب الشقّة تضرب عليه بقبضاتها. علا صوتها بالصراخ كمن حاصرته النيران. «أريد أن أخرج من هنا. أريد أن أخرج».

انتزعها من عند الباب، وأخذ يهدّئ من روعها، وبعد قليل كفّت عن الصراخ. جفّف دموعها بمنديله. أدرك أنّ وجودها عنده يمكن أن يجلب له المتاعب. لكن احتياجه إلى وجودها كان قويًّا. عندما رآها، رغم كلّ ما كان يبدو عليها من قذارة وبؤس، أحسّ أنّها يمكن أن تساعده على الخروج من حالة اليأس التي سقط فيها. إنّها ستخرجه من ذاته، من دائرة حياته المغلقة.

سقاها كوبًا من اللّبن الدافئ. شربته عن آخره، ثمّ تطلّعت إليه في صمت إلى أن أحضر لها كوبًا ثانيًا ارتشفته واضعة يديها الاثنتين حوله.

أدرك أنّ الطفلة فيها ربّما أعطته ما يبحث عنه. إنّ المرأة فيها يجب أن يبتعد عنها. ستخربشه بأظافرها إن اقترب منها. لا تحتاج منه سوى أن يفتح فرصة للحياة أمامها. هكذا يستطيع كلّ منهما أن يهب الآخر أشياء يبحث عنها. صفقة أتاحتها لهما الصدفة، ففي فوضى الحياة توجد صدفٌ علينا أن نبحث عنها. الاستقرار الدائم لا ينتج عنه

شيء. لا يصقل النّاس، ولا يترك للمهمّشين فرصة التقاط أنفاسهم، أو الخروج من الحصار الذي يخنقهم.

هكذا استقرّ بها الحال في مسكنه، لتبدّد الوحدة التي عانى منها. تأكل، وتشرب، وتنام، وتساهم في تنظيف الشقّة. في غسل المفارش وفي كيّها، وفي طهي الطعام. علّمها كلّ هذا بصبر. ففي البداية كانت الأطباق، والتحف تسقط من بين يديها، أو «يشيط» منها الطعام لأنّها تعلي الشعلة إلى أقصاها، أو تنشغل وتتركه. أو تنسى المكواة الكهربائيّة فوق القميص وتحرقه، أو صنبور المياه مفتوحًا فيمتلئ الحوض ويفيض بما فيه على الأرض. وفي مرّة من المرّات سكبت الزيت على شعلة الموقد فهبّ النّار في وجهها. سمع صرختها وهو يحلق ذقنه في الحمّام، فأسرع إلى المطبخ وأطفأ اللّهيب بمنشفة حمّام كبيرة بلّلها بالماء.

كانت حياته منظّمة بدقّة شأن الذين تعوّدوا الوحدة، وكانت هي ذكيّة تعلّمت منه بسرعة رغم ميلها إلى الفوضى التي نشأت عن ظروف القهر التي عاشتها. تغلب على لحظات الضيق التي كان يحسّ بها إزاءها. كانت كالحيوان البرّي سريعة الانسحاب داخل كهفها. التقطها من الشّارع وكان عليه أن يتحمّل نتائج المجازفة التي أقدم عليها. لكن مع الأيّام صار يستمتع بالتجربة ويندمج فيها. يتملّكه الفضول فيفكّر أن يسألها عن أشياء في حياتها، ثمّ يدرك أنّه من الأفضل أن يترك للزمن فرصته لكي يظهر ما تخفيه في نفسها.

في ذلك اليوم، جلس على الشرفة في الشمس وأخذ يتطلّع إلى حديقة الأورمان. كان يحتسي من كوب شاي وضعه على منضدة

صغيرة إلى جواره، ويفكّر بشيء من الاندهاش في التطوّر الذي حدث في حياته، في.. وجود فتاة لا يعرف عنها شيئًا تنام، وتأكل، وتروح وتجيء في شقّته. أدرك أنّه عندما التقطها من الشارع استجاب لرغبة دفينة من نفسه إلى كائن يصبّ نحوه العواطف المختزنة فيه منذ زمن، إلى طفلة يملأ بها الخواء المحيط به، لتتحرّك فيه من جديد حيويّة الحياة وانفعالاتها.

أحسّ بحركة على مقربة منه فالتفت. كانت تقف على الشرفة التي خرجت إليها دون أن يشعر بها. ترتدي جلبابها الأزرق، وخفًّا من المطّاط الملوّن. مالت فوق الدرابزين. جسمها الضئيل ضائع في الجلباب الواسع، وضفيرة الشعر تسقط على ظهرها، وتلمع في الشمس بلون كالنحاس الأحمر. استدارت كأنّها أحسّت بعينيه على ظهرها، فلاحظ لأوّل مرّة أنّها ترتدي عقدًا حول عنقها أحجاره السوداء تفصل بينها جعارين صغيرة زرقاء منحوتة بدقّة. خطر له أن يسألها من أين جاءت به، ثم انشغل بفكرة أخرى جاءته وهي أنّها تبدو بائسة في الجلباب القديم الواسع يرفرف حول جسمها. قال:

«أنت في حاجة إلى بعض الملابس. هيّا بنا نهبط من الشقّة. توجد بعض المحلاّت القريبة منّا».

سارت إلى جواره فوق الرصيف الذي تناثرت فوقه كتل من الحجارة والأسفلت. ترفع رأسها فوق عنقها الطويل، وتسير ناظرة أمامها. تدور حول الأحجار كأنّها تتمتّع بحاسّة الأعمى للطريق. لا تتعثّر في المطبّات، أو العقبات المتناثرة. بين الحين والحين تتلفّت حولها بحركة بسيطة من رأسها. توقّفت عند إحدى النواصي،

وأخذت تحملق في وجه طفلة تبيع اللبان والنعناع، والكبريت أمام أحد المقاهي. تمسك بين أصابعها بعلبة كبريت صفراء اللون رسم عليها نجم أحمر، ومفتاح. حملقت في علبة الكبريت، وتتبّعت الطفلة حتّى دخلت في شارع جانبيّ، واختفت. ظلّت جامدة في مكانها كأنّها تفكّر في شيء ثم واصلت سيرها. لحقت به حيث كان يقف في انتظارها على بعد خطوات خوفًا من أن تضيع وسط الزحام. لمح وجهها أصبح كالحجر المصنوع من الجير الأبيض.

عادا إلى الشقّة بعد ساعتين. كانا يحملان معهما أكياسًا من الجلاليب ذات الألوان المختلفة، ومنديلين للرأس، وجوارب قصيرة من القطن، والصوف، وملابس داخليّة، وقميصين للنوم، وحذاءً أسود بتوكة فضّيّة ارتدته في المحلّ، ولكنّها خلعته في الطريق، وارتدت بدلاً منه خفًّا من الجلد ابتاعه لها من محلّ صادفاه في طريق العودة. تردّدت طويلاً، وبدت عليها الحيرة، قبل أن يقع اختيارها عليه. كان حذاءً مفتوحًا من الخلف له كعب مربّع.

أعدّ وجبة الغداء بسرعة، وطلب منها أن تضعه على المائدة، وأن تشاركه الطعام، ولكنّها أصرّت على أن تأكل وحدها. لمح ما يشبه الاستياء أو الغضب في عينيها عندما ردّت عليه. في الصباح كانت هادئة تشعّ ملامحها شيئًا قريبًا من الرقّة، والآن تغيّر حالها فجأة كأنّها تذكّرت شيئًا.

انسحب إلى حجرته لينام نومة القيلولة. استيقظ على صوت الأطباق والأواني، وهي تقوم بغسلها، وترتيبها في المطبخ. تجنّب الحديث إليها. ارتدى ملابسه، وغادر الشقّة مغلقًا الباب وراءه

بالمفتاح دون أن يقول لها شيئًا. خرج من باب العمارة، وقد قاربت الشمس على الغروب. أشجار حديقة الأورمان تتحرّك أوراقها في النسيم الذي هبّ مع اقتراب الغسق. أصبحت المدينة هادئة انتظارًا لاستئناف الضجيج مع هبوط الليل، وعودة الزحام إلى الشوارع.

عاد نحو الساعة العاشرة. فتح باب الشقّة بالمفتاح، ودخل. ترك بعض المأكولات التي ابتاعها في الصالة، ونادى عليها، لكن.. ظلّ الصمت مخيّمًا على الشقّة. كرّر النداء مرّتين دون أن يسمع شيئًا سوى صوت المصعد يعلو في العمارة. ظنّ أنّها نائمة فعبر الطرقة متّجهًا إلى حجرتها. دخل من الباب فوجد سريرها مرتّبًا، وكلّ شيء في مكانه. دار حول الشقّة دون أن يعثر لها على أثر. سمع أصواتًا ترتفع في شجار يأتيه من الشقّة المجاورة خلال باب المطبخ، وصراخ امرأة يعلو قائلاً: «أنت كذّاب، وطول عمرك بتكذب عليّ». أغلق الباب المفتوح بين المطبخ وغرفة الطعام، وعاد أدراجه. دار حول الشقّة مرّة ثانية، وأخذ يفتّش في الدواليب، وتحت الأسرّة، وخلف الأبواب. أخذ السلّم وصعد ليفتح الصندرة. لمح فيها حقائب السفر وعددًا من الوسائد بلا أكياس، أخرج من تحتها حقيبة صغيرة هبط بها على السلّم. دخل إلى حجرتها من جديد لعلّه يجد شيئًا تركته وراءها. الملابس التي ابتاعها لها مرتّبة في الدولاب ما عدا الجلابيّة الزرقاء التي كانت ترتديها عادة. لكن الحذاء المفتوح من الخلف اختفى.

وضع الحقيبة أسفل سريرها وخطا نحو الباب ثم توقّف. لاحظ أنّ النافذة لم تكن مغلقة. شدّ الضلفة إليه وخرج إلى الشرفة. وجد مقعدًا عاليًا له قرص سميك من الخشب وضع في ركنها. تأمّله لحظة

كأنّه يفكّر في شيء. استدار وسار بضع خطوات على الشرفة. قبّة الجامعة تلمع في ضوء القمر، وأوراق الشجر ترفرف كالأصابع المتوتّرة. تملّكه حزن دفين كأنّ جمال الليل أثار فيه الأشجان. ما الذي دفعه إلى إيوائها؟ لحظة اندفاع للعواطف في مواجهة الجوع المطلّ في عينيها، أم شيء آخر، تصرّف جاء عفو الخاطر، بلا تفكير. عاد إليه وجهها يطلّ عليه من أعلى زجاج نافذة السيّارة. شيء فيها جذب انتباهه. مسحة جمال تحت القذارة؟ لا ليس هذا. شيء أعمق من هذا. شيء يطلّ من عينيها الواسعتين أثار انتباهه. لكنّها مجرّد طفلة مشرّدة في الشوارع. أم أنّه رأى فيها ما أراد أن يراه لسبب يتعلّق به هو، بظرف حياته؟

هبط على سلالم إلى الشارع. ربّما لم تبتعد كثيرًا عن موقع العمارة. دار حول حديقة الأورمان، وحديقة الحيوان، وسور الجامعة. اجتاز المسافة حتّى شاطئ النيل، وسار بمحاذاته. ظلّ يجوب الشوارع في المنطقة حتّى كاد أن ينتصف الليل. ثم استقلّ سيّارته إلى حيث كانت تقف أمام المقهى تبيع علب الكبريت. ربّما عادت تجوب المنطقة التي التقطها منها.

وجد أبواب المقهى نصف مغلقة، واثنين من العاملين يجمعان الأكواب، ويمسحان المناضد الرخاميّة. لم يجرؤ على سؤالهما فمثل هذا السؤال سيبدو لهما مثيرًا للريبة. أدرك أنّ البحث بهذه الطريقة لن يقوده إلى شيء. خطر في باله أن يقوم بتبليغ البوليس ثم طرد هذا الخاطر. سيسألونه عنها، وعن علاقته بها. فبماذا يمكنه أن يجيب؟ إذا حكى لهم القصّة بحذافيرها سيشكّون فيه، أو ربّما ظنّوا أنّه فقد عقله. سيصبح موقفه حرجًا للغاية. فما الذي يجعل رجلاً مثله يلتقط

فتاة مشرّدة في سنّها من الشارع، ويأويها في بيته؟ مسألة تثير الريبة. كلب أو قطّة ممكن، بل مسألة عاديّة. لكن طفلة مشرّدة، جائعة بلا أهل؟!! كيف يمكن أن يتقبّل أيّ شخص عاقل هذا؟!.

يتخيّل العيون الباردة يطلّ منها التساؤل تفحصه من خلف المكاتب، ورجال البوليس يتحدّثون في التليفونات، ويتبادلون السجائر ويمدّون سيقانهم أمامهم. يحكي أحدهم حكاية فينفجرون بالضحك. يتجاهلونه لبعض الوقت. يتركونه ينتظر السؤال القادم. يرتشف الضابط النوبتجي من كوب الشاي الموضوع على المكتب إلى جواره، ثم يعود إلى استجوابه قائلاً:

«حضرتك قلت إنّك ضابط سابق تركت الجيش بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، فلماذا؟»

الصور تمرّ في ذهنه في سباق مضطرب. أحسّ بقشعريرة في جسمه. أشعل سيجارة ويداه ترتعشان. جلس خلف عجلة القيادة، وقاد سيّارته ببطء عبر الشوارع الخالية. كلّ شيء من حوله هادئ، والسيّارة تنساب تحت الأضواء. أحسّ بالتوتّر يتلاشى وبعقله يصبح صافيًا.

كانت الساعة قاربت الثالثة صباحًا عندما فتح باب الشقّة ودخل إلى الصالة. خلع ملابسه، واستلقى على السرير دون أن يرتدي منامة. ظلّ مستيقظًا يتقلّب على جانبيه، مرهفًا أذنيه للأصوات. رأى ضوء القمر يتسلّل خلال السواتر. مرّ الوقت، وبدأت الحركة تدبّ في العمارة. يصل إليه صوت المصعد، أو باب يفتح ويغلق ثم أقدام تتحرّك أو تهبط على السلالم، فقام من رقدته.

تناول إفطاره. الشقّة الغارقة في الصمت تضاعف صمتها. نحّى طبق البيض المقلي أمامه دون أن يأكل منه وسار نحو باب الشقّة. فتحه وانحنى ليلتقط جريدة الصباح ثم عاد. جلس يتصفّح العناوين في حجرة المكتب. سمع شيئًا كالدقّة الخافتة على الباب. رفع رأسه وانتظر ليتأكّد ممّا سمع. جاءته الدقّة مرّة ثانية. بدا له أنّها آتية من داخل الشقّة. ترك الجريدة على المقعد، وتوجّه إلى المطبخ. توقّف عند بابه الخارجي وسأل:

«من بالباب؟»

جاءه صوتها كالشهقة المخنوقة من خلف الباب:

«أنا «عزّة»».

فتح الباب. كانت واقفة في نصف الظلام كالشبح الغامض. عيناها مساحتان من السواد يطلّ منهما وهج الجوع. تحت إبطها لمح الحذاء ضغطت عليه قرب صدرها.

أفسح أمامها الطريق لتدخل. تقدّمت إلى الصالة وأسقطت جسدها في أحد المقاعد كأنّها لم تعد تحتمل أن تبقى واقفة. أحنت رأسها فوق عنقها بحركة فيها انكسار. وضع إصبعه تحت ذقنها ورفع وجهها إليه. نظرة عينيها مليئة بحزن يائس. لم يشعر أنّه في حاجة إلى سؤالها. ظلّ ينتظر حتّى تقول شيئًا لكنّها ظلّت صامتة. أسندت رأسها على المنضدة ولأوّل مرّة منذ أن صعد بها إلى شقّته بكت. تركها إلى أن توقّفت عن البكاء ثم أمسك بيدها، وقادها إلى حجرتها. كانت لا تزال ممسكة بالحذاء تحت ذراعها. وضعته على الأرض ورقدت على السرير. بعد لحظات سمع أنفاسها تتردّد بانتظام فرفع فوقها

الغطاء، وخرج مغلقًا الباب وراءه.

*

ظلّت تهرب من الشقّة في الليل بين الحين والآخر عندما يكون هو في الخارج. في كلّ مرّة كانت تعود وحدها بعد ثلاثة أو أربعة أيّام. في إحدى المرّات غابت أسبوعًا بكامله. أرهق من البحث عنها، وتملّكه اليأس من الاهتداء إليها. أحسّ أنّها لن تعود. جاء يوم الجمعة، وبدلاً من أن يذهب إلى المقهى كما كانت عادته مكث في البيت. بعد منتصف الليل أطفأ التليفزيون، ودخل في فراشه، وفي اللحظة التي انقلب فيها على جانبه الأيمن لينام سمع دقّاتها على باب المطبخ، فأزاح الغطاء وقام مسرعًا على قدميه الحافيتين. وجدها وهي تقف على العتبة خارج باب المطبخ مسندة نفسها على الجدار. جلبابها الأزرق ممزّق عند الكتف فلمع جلدها الأسمر في ضوء المصباح كأنّ أحدًا حاول أن يمسك بها فانتزعت نفسها من بين يديه، وسارعت بالفرار. تحمل حذاءها تحت إبطها كالعادة وتطلّ عليه بذلك الخليط من اليأس والتحدّي الذي يلمحه في عينيها كلّما عادت من جولاتها الغامضة.

بعد تلك الليلة دأب على غلق الباب الأماميّ، والباب الجانبيّ للشقّة بالمفتاح كلّما غادر الشقّة وتركها وحدها بين جدرانها. مع ذلك في بعض الأوقات عندما يعود كان يجدها وقد هربت منها دون أن تترك أيّ أثر وراءها فتأخذه الحيرة. طالما أنّه يغلق الأبواب فمن أين تتمكّن في كلّ مرّة من مغادرة الشقّة والنزول إلى الشارع؟ لكن في أحد الأيّام بينما كانت واقفة على الشرفة لتزيل التراب من الساتر الخشبيّ

لنافذة حجرتها لمحها وهي تتأمّل الماسورة الصاعدة إلى سطح العمارة. وفي مساء ذلك اليوم أعطاها المفاتيح وطلب منها أن تحتفظ بها حتّى يمكنها إغلاق الباب الرئيسيّ والباب الخلفيّ للشقّة كلّما خرج منها، وتركها وحدها. أخذتها منه ودسّتها في جيب الجلباب دون أن تعلّق. ومنذ ذلك اليوم كفّت عن الهروب تمامًا. وأصبحت تتحرّك في الشقّة بحرّيّة بدلاً من الانسحاب إلى حجرتها بعد أن تنتهي من أعمال البيت التي كان يشاركها فيها، ما عدا في الأيّام التي يقضي النهار في الخارج. لكن إذا استقرّ في البيت كان لا يكفّ عن الانشغال بشيء. ترى أصابعه وهي تقلّب في كتاب بحثاً عن الأجزاء التي تلفت الانتباه، أو تدير مفتاح المذياع ليسمع نشرة الأخبار، أو تدعك بلاط الحمّام، والمطبخ بالفرشاة والصابون، تتأمّلها طويلاً. تجد ما يجذبها إليها. قويّة لكن فيها رقّة، وانسياب. في بعض اللحظات تنتابها رعشة، وتصبح شاحبة كأنّه يعاني من ألم مفاجئ، فإذا نظرت إلى وجهه تكتشف أنّ بشرته أصبحت هي أيضًا شاحبة، وأنّ ملامحه أصابتها تقلّصات. بعد قليل يرفع يديه إلى ظهره ويركع على ركبتيه واضعًا جبهته على الأرض كأنّه يصلّي. تسمع أنفاسه تتلاحق وأنينًا خافتاً يصدر عنه، يرتفع فجأة ليتحوّل أحيانًا إلى صراخ. ثم يمدّ جسمه فوق الأرض ويذهب في سبات عميق لا يستيقظ منه إلاّ بعد ما يقرب من ساعة ليعود إلى حالته الطبيعيّة، ويستأنف ما كان يفعله كأنّ شيئًا لم يحدث. لكنّها إذا نظرت في عينيه تكتشف أنّ الشظايا الخضراء الصغيرة التي تسبح في المقلتين العسليّتين تحوّلت إلى اللون الأسود، وأنّ البريق الذي كان يطلّ منهما انطفأ تمامًا.

في البداية، كانت تشعر بالفزع إزاء هذه النوبات من الألم المفاجئ،

فتظلّ شاخصة إليه للحظات، كأنّ حركتها غدت مشلولة ثم تندفع إلى حجرتها وتغلق بابها. لكن مع مرور الوقت كانت تجلس على مقعد وتنتظر حتّى تنتهي النوبة التي يعاني منها. وعندما يقوم تحضّر له منشفة يمسح بها حبّات العرق المنهمرة على جبينه.

أصبحا يشاركان في إعداد الطعام. يجلسان على طرفيْ المنضدة في المطبخ ويقشّران الخضر معًا أو يقومان بتنقية الأرزّ أو الفول يحضرهما في جوالين من بلدته عندما يسافر إليها في الأعياد أو في موسم جني المحصول. يتناوبان في طهي الطعام. تستمع إليه وهو يحكي عمّا رآه في المقهى أو السوق. تتبّع أصابعه وهي تمسك بالمفكّ لتصليح بريزة التليفون أو ترفع خصل شعره الغزير عندما تسقط فوق أذنيه. فيبدو لها كأنّ فيها قدرة على إنجاز أيّ شيء بمنتهى السهولة، بينما أصابعها هي تتعثّر كلّما حاولت أن تقوم بما كان يقوم به من أعمال مختلفة في البيت. لكنّه أخذ يدرّبها على كلّ هذه الأشياء وسرعان ما صارت قادرة على إنجازها وأحيانًا على نحو أفضل منه. فزادت ثقتها بنفسها وحرص هو على تشجيعها بكلمات الإطراء والتقدير كانت تستقبلها في صمت متفادية النظر إليه.

امتلأ وجهها قليلاً وكسته حمرة خفيفة أضفى عليه جمالاً. مثل أشعّة الشمس الغاربة على بيوت من الطين. ومع الأيّام أصبحت الكلمات تخرج من بين شفتيها لتكسر الصمت الرابض عليها منذ سنين. أخذت تكتشف مع حركة الجسم، ونموّ قدراته، قدرة على التعبير عمّا تفكّر أو تحسّ به. فلأوّل مرّة أصبح معها إنسان يشاركها الحياة. عاشت في وحدة كاملة طوال السنين رغم وجود عشرات من البنات معها في العنبر الكبير الذي لم تعرف مكانًا غيره إلى أن خرجت

إلى الشارع في تلك الليلة. تراه أمامها يروح ويجيء. يتعاونان في مختلف الأعمال. في لحظات تأنس إليه، لكنّها في اللحظة التالية يتراجع هذا الإحساس تحت وطأة الحذر الوحشيّ الذي تدرّبت عليه في حياتها. أو تجيئها رغبة في أن تمدّ إليه يدها لكي تمسح حبّات العرق من على جبينه عندما تنقضّ عليه نوبات الألم، أن تمرّ بأصابعها على وجهه فتعيد إليه السكينة، وتجري الدماء في وجهه من جديد فيختفي شحوب الموت الذي حطّ عليه أحيانًا.

عندما يأتي الليل تجلس على الشرفة. تتأمّل النجوم فوق رأسها، والقمر يتحوّل من هلال رفيع إلى بدر مكتمل يضيء أوراق الشجر في حديقة الأورمان. يجعلها ترتعش مثل آلاف الأسماك الصغيرة التي صعدت إلى سطح البحر وركبت فوق الأمواج.

إن كان خارج البيت تملأ روحها بمناظر الليل. ثم تغلق السواتر. تخترق الصالة التي تعوّد أن يقرأ فيها. تجلس على المكتب. تخرج فروخًا من الورق الأبيض، وترسم عليها أشكالاً مختلفة بأحد الأقلام التي وضعها في وعاء من الفخّار، ثم تمزّق الأوراق قطعًا صغيرة، وتسقطها في المرحاض. تضغط على اليد المعدنيّة اللاّمعة لتغرقها المياه.

في إحدى الليالي دخل إلى الشقّة متأخّرًا فوجدها جالسة خلف مكتبه وفي يدها القلم تخطّ به على الأوراق الموضوعة أمامها. فوجئت به يقف إلى جوارها ويطلّ على الأشكال التي رسمتها. لم يقل شيئًا. مسح على رأسها وتركها متّجهًا إلى غرفته. خلع ملابسه وارتدى إحدى الجلاليب القطنيّة التي تعوّد أن يرتديها بعد أن انتهى

فصل الشتاء. عاد إلى المكتب فلم يجدها. سار حتّى حجرتها. كانت جالسة على طرف سريرها شاخصة أمامها. سألها:

«لماذا تركت الرسوم التي كنت تقومين بها. سأقرأ قليلاً في حجرة المكتب، ولن يزعجني أن تعودي إلى ما كنت تقومين به».

هكذا أصبحت تجلس خلف مكتبه عند آخر النهار. ترسم على الورق وينشغل هو بالقراءة في مجلّة، أو كتاب. ترفع رأسها فتلمحه مستغرقًا. في أحد الأيّام جذبتها ألوان المجلّة التي كان يقرأها فسألته:

«ما هذا الشيء المرسوم بالألوان؟»

قال:

«إنّها دبّابة».

بدا عليها أنّها لم تفهم فأضاف:

«إنّها مثل السيّارة لكن جدرانها سميكة قويّة لا يخترقها الرصاص، فيختفي داخلها العسكر أثناء القتال، ويوجّهون قذائف المدفع إلى العدوّ، ليقتلوه».

سألته:

«ولماذا يريدون قتله؟»

يقول:

«لأنّه عدوّهم. ألم يكن لك أعداء؟»

بدا عليها التفكير لكنّها صمتت، ولم تواصل الكلام. عادت إلى الرسم فوق الأوراق. بعد قليل سألته من جديد:

«من أين جاءتك هذه المجلّة؟»

قال:

«من استوكهولم في السويد».

«السويد؟»

قام من جلسته واقترب من الكرة الأرضيّة المضاءة فوق مكتبه ثم أشار إليها بالاقتراب:

«الأرض التي نحيا فوقها كرويّة. هذه هي الكرة الأرضيّة و«السويد» في هذا المكان».

في الأمسيات أصبح يشرح لها توزيع البلاد على الكرة الأرضيّة، وأسماء القارّات، والبحور، والمحيطات. سألته:

«إذا كنّا نعيش في هذا المكان لماذا لا نسقط من على هذه الكرة الأرضيّة»

أمسك بالمغناطيس الموضوع قرب المصباح وقال:

«يوجد شيء مثل هذا المغناطيس يجذبنا إلى سطحها ويجعلنا نلتصق به. سأشرح لك في كلّ يوم شيئًا عن الكرة الأرضيّة، والقمر، والشمس، والنجوم المعلّقة في السماء».

هكذا بدأت تتفتّح بشكل تلقائيّ إلى عوالم جديدة. كانت تظهر شغفًا للمعرفة، جعله يشعر بمسؤوليّة جديدة إزاءها. لكن سرعان ما أدرك أنّ الكثير ممّا كان يحدّثها عنه ظلّ بالنسبة إليها كالألغاز. فرغم الانبهار الذي كان يظهر عليها أحيانًا عندما يحدّثها عن الكون والبلاد، ورغبتها الواضحة في معرفة ما يدور في العالم، كان يشعر أنّها تكدح ذهنها دون جدوى لتفهم معنى ما يشرحه لها، فتبدو عليها علامات الإحباط. عندما تأوي إلى فراشها تدفن رأسها في الوسادة وتبكي

بدموع صامتة. أدرك أنّ جهوده تذهب هباء، وأنّه ليس مؤهّلاً لكي يعطي دروسًا لهذه الفتاة. أو ربّما هو الموضوع يصعب عليها أن تستوعبه قبل مرحلة من الإعداد. قرّر أن يتوقّف، حتّى لا يصيبها الإحباط. لم يكن العيب فيها، تعلَّمت أشياء كثيرة منذ أن أقامت معه. كانت تلتقط الأشياء بسرعة فائقة، لذلك قرّر أن يبدأ معها بطريقة مختلفة.

في يوم جمعة استيقظ مبكّرًا. صنع لنفسه كوبًا من الشاي ودخّن سيجارة ثم دخل في حجرة المكتب، ليتصفّح الجريدة. استيقظت بعده بساعة. سمعها وهي تحكّ خفّها الجلديّ على عتبة الباب، حتّى يتنبّه. رفع رأسه عن الجريدة وتأمّلها حيث توقّفت، على بعد خطوات. الطفولة مازالت تطلّ في نظراتها لكنّها أخذت تتوارى في ثنايا الجسم الأنثويّ الذي تدوّرت خطوطه، وفي الجسم القويّ البنيان الذي أصبح يخفي الزوايا الحادّة، والعظام، ويعلن بأعلى صوته «فليلتفت إليّ الناس. سأبثّ في الجوّ قلق الانطلاق كالسفينة الراسية في الميناء جاءتها الأوامر بالإبحار».

قال:

«أريد أن أصطحبك لشراء بعض الملابس. كبرت بسرعة، والملابس القديمة لم تعد تصلح لقوامك بعد أن نما بهذه السرعة».

فوجئ بها تقول:

«لا أريد ملابس. أريد أن تستمرّ في التحدّث إليّ عن دوران العالم. لماذا توقّفت؟ أتظنّ أنّني غبيّة؟»

لمح في عينيها السوداوين بريق الغضب. قال:

«لا . . . لست غبيّة. لكن أنا لا أصلح لتعليمك. هناك أناس مدرّبون على هذا».

قالت:

«لكن أنا أريد أن تعلّمني أنت، وليس سواك».

قال:

«سأفكّر في الأمر. ربّما الأفضل أن نبدأ الدروس بأشياء أخرى غير تلك التي بدأنا بها. ولنذهب الآن لشراء بعض الملابس».

«أتعدني؟»

نظر إليها في اندهاش كأنّها كبرت فجأة. قال:

«أعدك. هيّا ارتدي ملابسك حتّى نهبط لشراء ما تحتاجين إليه».

عادا محمّلين بالأكياس التي وضعتها في دولابها. لكن في اليوم التالي تركت الكرانيش، والدانتلاّ، والحرير اللاّمع الذي افتتنت به أثناء جولتهما على المجلاّت، وعادت ترتدي الجلباب الأزرق الواسع، ومنديلاً للرأس يزيّنه صفّ من الترتر الأسود عند الأطراف. لكن قبل أن تنحّي الملابس الجديدة جانبًا، وترتدي الجلباب والمنديل، وقفت عارية أمام المرآة تاركة شعرها الطويل يتدفّق حتّى خصرها في أمواج. لاحظت أنّ على صدرها نما ثدياها مثل البراعم عندما تتفتّح. فأحسّت بالاضطراب.

عندما ذهبت إليه في الصباح كان كعادته منهمكًا في قراءة الأخبار. وقفت خلفه، وأخذت تحملق في الحروف المطبوعة تزحف صفًّا بعد صفٍّ مثل طوابير النمل الأسود. سألته في ضيق:

«لماذا لا تحدّثني عمّا تقرأه في الجريدة؟»

نظر إليها كأنّه مازال منشغلاً بشيء في ذهنه انتزعته منه. قال:
«وما فائدة ذلك بالنسبة إليك؟»
«وأنت.. ما الذي تستفيده من قراءة الجريدة كلّ يوم. هل هناك جديد؟»

صمت لحظة قبل أن يجيب:
«أتعرّف على ما يدور في بلادنا، وفي العالم».
«وأنا أيضًا أريد أن أعرف مثلك ما يدور. ما هذه الصورة؟»
«هذا هو الرئيس جالس في اجتماع مع قادة الجيش لمناقشة موضوع السلام».
«أنت كنت في الجيش أليس كذلك؟»

بدت عليه الدهشة.
سألها:
«كيف عرفت؟»
«رأيت سترة الضابط معلّقة في دولابك. وعلى الكتف ثلاث نجوم».
لمحت شيئًا كالانكسار في نظرة عينيه فأحسّت بالضيق.
قال:
«نعم كنت ضابطًا بالجيش لكنّي تركته».
«لماذا؟»
«لم تعجبني أشياء فيه فتركته. أو بالأحرى طلبوا منّي أن أتركه».
تأمّلته لحظة طويلة كأنّها تفكّر، ثم قالت:
«في الملجأ عندما كنت أقول إنّ الطعام رديء كانوا يضربونني.

هل الجيش مثل الملجأ؟»
«ربّما. . . كم سنة عشت في الملجأ؟»
«لا أعرف».
«من وضعك هناك؟»

نطقت بسرعة وفي ضيق:
«لا أعرف».

لم يعلّق. تنفّست بعمق ثم سألته:
«لماذا لا تصلّي؟»
«ما علاقة الصلاة بكلّ هذا؟»!

سرحت قبل أن تقول:
«ربّما خاصمت الله بسبب ما حدث لك».

ضحك، وقال:
«لا، لم أخاصمه. أنا مسيحيّ. عندما أصلّي أصلّي في الكنيسة».
«تأخذني معك؟ لم أرَ كنيسة في حياتي. أهي مثل الجامع الذي أراه من نافذتي بجوار الكوبري»
«إلى حدٍّ كبير. كلّها بيوت الله يصلّي فيها الناس».

تذكّرت أنّه في الملجأ كانوا يشيرون إلى إحدى البنات ويقولون عليها إنّها مسيحيّة، عظمة زرقاء. كانت سمراء نحيلة، وكان اسمها «نسمة». تظلّ قابعة وحدها في ركن الحوش بعيدًا عن الشمس، احتلّ مساحتها البنات، أو صامتة في سريرها لا تكلّم أحدًا، ولا أحد يتحدّث إليها. كانت تشعر نحوها بالإشفاق، وفي مرّة من المرّات في الدشّ تنازلت لها عن قطعة من صابونها. اختفت في يوم من الأيّام

ولم تعد. لم يسأل عنها أحد. نسيها الجميع.

أحسّت أنّه بدأ يضيق بأسئلتها. أو ربّما زحف عليه ذلك الألم المرهق الذي يجيئه دون ميعاد. لمحت حول عينيه التجاعيد، والعضلة الرفيعة في عنقه وهي تنبض مثل صدر العصفور، فتركته وتوجّهت إلى المطبخ لتعدّ الطعام. في ذهنها مازالت تحلّق صورة البنت «نسمة». جسمها كالظلّ يختفي وسط الأجسام. عيناها اللّوزيّتان تطلّان في وداعة من الملامح السمراء. عندما ترقد في سريرها لتنام ترفع على وجهها الغطاء. تستيقظ مبكرًا في الصباح لتذهب إلى الحمّام قبل البنات الأخريات.

دخل عليها وهي منهمكة في تقليب حساء العدس على موقد الغاز. لم تلتفت إليه. سألها:

«ما رأيك إن علّمتك الكتابة، والقراءة؟»

تركت الإناء على النار، وانطلقت نحوه. أحاطته بذراعيها، وتعلّق جسمها به كأنّه طوق للنجاة.

بعد أن تناولا طعام الغداء هبط من الشقّة. عاد ومعه صاحب ورشة نجارة بالقرب من ميدان الجامعة. وبعد أسبوع عاد النجّار ومعه أحد العمّال. كانا يحملان منضدة مستطيلة ومقعدًا مصنوعين من الخشب الزان. كان للمنضدة درجان أحدهما على اليمين والآخر على اليسار بحيث تستطيع أن تدخل ساقيها بين الاثنين. وضعا المنضدة، والمقعد في حجرة المكتب، بعد أن أفسحا لها مكانًا قرب النافذة المطلّة على حديقة «الأورمان». أجلسها على المقعد أمام المنضدة حتّى يطمئنّ على ارتفاعها.

في اليوم التالي عاد آخر النهار ومعه شلتة ملوّنة وضعها خلف ظهرها، ومصباح له عنق طويل بحيث تستطيع أن تقرّب الضوء إليها أو تبعده عنها. وكان معه أيضًا كيس أخرج منه عددًا من الكرّاسات، وكتاب على غلافه صورة لفتاة ترتدي ثوبًا أبيض وتجري في الحقول خلف الفراشات، وآخر عليه صورة أخرى لفتاة تجلس على دكّة من الخشب في حديقة الحيوان أمام جبل القرود وتكتب شيئًا في كشكول، بينما تتابعها القرود بنظرة فيها استطلاع.

تناولا عشاءهما بسرعة، وغسلا الأطباق ثم انتقلا إلى حجرة المكتب. جلست خلف المنضدة، وأخذ يقرأ معها الحروف الأبجديّة المطبوعة على الصفحة الأولى للكتاب.

(١٠)

أصبح بينها وبين المنضدة، التي تقرأ وتكتب عليها، شيء من العلاقة الجسديّة. في الصباح عندما تستيقظ تندفع إلى حجرة المكتب وتجلس إليها. قبل أن تفعل أيّ شيء تمرّ على سطحها بأطراف أصابعها كأنّها تتعرّف على ملمسها. تستنشق رائحة «الجومالكا» الهنديّ، والسبرتو والغراء مزجهما «الأستورجي» في علبة معدنيّة قبل أن يبدأ في دهن المنضدة باللون البنّي الذي اختارته. ظلّ يروح ويجيء عليها بقطعة من القطن مدّة طويلة ثم عكف على تلميعها حتّى أصبحت تشعّ ببريق جميل. تتأمّل صبغتها الداكنة أضفت عليها دفئًا وثراءً تتحسسهما كلّما جلست إليها. تفحصها في بداية كلّ يوم لكي تتعرّف على ملمسها من جديد وتكتشف كلّ خطّ، كلّ خدش، كلّ تغيير غير مرئي طرأ عليها.

على هذه المنضدة تعلَّمت الحروف الأبجديّة. تعلّمت القراءة والكتابة، وموسيقى اللغة العربيّة تتردّد على شفتيها في صمت الظهيرة، أو قرب منتصف الليل، والناس غارقون في النوم. أصبحت هذه المنضدة شاهدة على كلّ نقطة عرق، على كلّ خطوة خطتها في التعبير البدائيّ، على كلّ جهد بذلته لتتعلّم ما كان في البداية عسيرًا. لذلك عندما عرض عليها أن تترك المنضدة وتنتقل إلى المكتب لأنّه سيتيح لها مساحة أكبر رفضت في إصرار. أحسّت بالوفاء للمنضدة

التي شهدت خطواتها الأولى نحو المعرفة. تحمّلت ضغط الكتب والأوراق، وثقل جسمها عندما تستند بمرفقيها عليه، وتضع وجهها بين يديها وهي تتبّع حركة شفتيه وهو يعلّمها نطق الكلمات ويصحّح لها مخارج الألفاظ، أو خطأ ارتكبته في النحو أو الإعراب، أو في استخدام الكلمات.

كانت تمتصّ المعرفة الجديدة التي أتاحها لها كما تمتصّ الأرض «الشرقانة» المياه. تتتبّع خطوط الإرهاق وهي تزحف حول ملامحه، أو رعشة أصابعه عندما يزيح خصلات شعره أو يرفعها من على أذنيه، أو اختفاء البريق من عينيه لتطلّ منهما تلك النظرة العليلة المطفأة التي تسبق النوبات.

كانت تحسّ أحيانًا أنّ حاجته إليها أصبحت أكبر من حاجتها هي إليه. فيتملّكها شعور بالحصار، برغبة في أن تضع بينه وبينها أكبر مسافة ممكنة قبل أن يلفّ ذراعيه حولها، ويسحبها معه إلى القاع. لكنّها أدركت أنّها لن تجد الخلاص إذا عادت تجوب الطرقات، لن تجد سوى الوحوش الذكريّة المستعدّة للانقضاض.

ظلّت مشاعرها إزاءه متناقضة. في لحظات تبعدها عنه، وفي أحيان أخرى تقرّبها إليه. تحبّه عندما يعلّمها القراءة والكتابة، أو يقرأ لها من كتاب. يزداد هذا الحبّ كلّما كتبت، أو قرأت، أو نطقت الكلمات وحدها دون أن تحتاج إليه.. يزداد حبّها له عندما يخرج العود من مكانه ويعزف على أوتاره، أو عندما يتسابقان للحاق بالكرة في حديقة الأورمان، أو عندما تشعر بملمس أصابعه القويّة حول ذراعها وهو يسير معها في الطريق وسط الزحام. وتكرهه عندما تلمح

في عينيه تلك النظرة الباحثة عن الإشفاق إذا ما انسحبت وتركته جالسًا على الشرفة، أو خلف مكتبه كأنّه يتأهّب لعمل هام، بينما تدرك أنّه سيبقى هكذا جالسًا يحملق في الفراغ، أو عندما يأخذ مكانه إلى جوارها ليساعدها على مراجعة الدروس فيحرص على إبعاد ضوء المصباح عن وجهه، وتسليطه على الأوراق والكتب الموضوعة أمامها كأنّه يريد أن يبقى محاطًا بالظلال.

إنّه دائم التوتّر، ومع ذلك لا يرفع صوته أو يغضب منها عندما تتعثّر في حلّ التمرين، أو تخطئ في التعبير، حتّى إن كرّرت الخطأ عدّة مرّات.

لكن في إحدى الأمسيات لمحت التجاعيد العميقة تزحف حول عينيه، فأدركت أنّه مقبل على نوبة من نوبات الألم التي تصيبه. أحسّت بالتوتّر يتجمّع في جسده القويّ القابع في المقعد. كان الحيّ من حولهما صامتاً والأضواء في البيوت لم تعد تتلألأ، وهي مستغرقة في كتاب عن جغرافية إفريقيا تنتقل بين الخرائط كأنّ أبواب العالم تتفتّح أمامها. تتبّع الأنهار والغابات وتضاريس البحيرات، وتنطق أسماءها. لكن الأحرف بدأت تتراقص أمام عينيها. جاءها صوت عربة «كارو» تصطكّ عجلاتها بإسفلت الشارع، وتتردّد مع دورانها دقّات حوافر الحصان تجري بوتيرة متسارعة، ثم ساد الصمت من جديد فأغلقت جفونها، ومالت على المنضدة مسندة جبينها على ظهر يديها. سمعته يصرخ فجأة:

«تنامين دون أن تنتهي من الدروس؟! لا فائدة منك. لن تتعلّمي أبدًا. ستظلّين كما أنت جاهلة. ضقت منك، ومن دروسك. ضقت من وجهك ومن شكلك».

هبطت الكلمات مثل المطرقة الثقيلة على رأسها المحنيّ. سقطت دمعة على ورق الكتاب، وسالت بين الحروف. اهتزّ المصباح المائل قرب رأسها وهي تحاول أن تتحكّم في النشيج الذي أخذ يصعد من صدرها. فجأة علا بكاؤها، وأخذ يمتدّ بلا توقّف كأنّ ما يخرج منها هو ألم قديم تريد أن تتخلّص منه، أن تطرده من جسمها. . ألم تراكم في أعماقها منذ أن ولدت بنتاً يتيمة في الدنيا. ظلّ جالسًا في مقعده، مشدوهًا، عاجزًا عن التصرّف. لكنّها صمتت كأنّ قدرتها على البكاء استنفدت. رفعت رأسها، ونظرت إليه بتلك النظرة الثابتة في عينيها التي يخشى منها. تجمّعت على جبينه حبّات من العرق لمعت في ضوء المصباح. يداه ترتعشان وهو يخرج علبه سجائر من جيبه، ويسحب لفافة منها. أغلقت الكتاب وقامت كأنّها عزمت على شيء، وبخطوات بطيئة عبرت الصالة إلى غرفتها. خلعت ملابسها ودسّت نفسها في الفراش. ظلّت مفتوحة العينين تحملق في الظلمة. بعد قليل سمعته يتحرّك في الشقّة كأنّه يبحث عن شيء ضاع منه.

في اليوم التالي لم تخرج من غرفتها إلاّ عندما نادى عليها لتتناول إفطارها. لم يتحدّث إليها، أو يسألها عن شيء. ولم تفاتحه هي فيما حدث. لكن منذ ذلك اليوم كفّ عن محاولة تعليمها. تركها حرّة تفعل ما تريده كأنّه قرّر ألاّ فائدة منها، وأنّ الأفضل أن يتركها لحالها. ظلّت تقوم بكلّ الأعمال في البيت، لكنّها أصبحت تتناول وجبات الطعام وحدها ثم تنسحب إلى غرفتها، وتغلق الباب وراءها. لمحها مرّة وهي تحملق في الكتب والكرّاسات الموضوعة فوق المنضدة كأنّها تحنّ إليها. وفي ساعة متأخّرة من الليل رآها وهي تنظّف الكتب بعناية وتصفّفها بترتيب حجمها على قرص المنضدة. ثم اكتشف أنّ

الكتب بدأت تختفي الواحد بعد الآخر، فأدرك أنّها أخذت تنقلها من غرفة المكتب إلى غرفتها الخاصّة.

لكن بعد أن مرّ أسبوع أو ربّما أكثر اقترب منها وهي جالسة تتناول إفطارها وجلس إلى جوارها، ثم فاتحها في أن يحضر لها مدرِّسًا خاصًّا ليعاونها في مواصلة جهودها. هزّت رأسها بالموافقة دون أن تنظر إليه. أحسّ أنّها متأثّرة ممّا حدث بينهما، أنّ قلبها مليء بالحزن، وأنّه لا بدّ أن يفعل شيئًا ليخفّف عنها. أدرك أنّها ترغب حقًّا في مواصلة الدروس التي بدأتها معه.

اتفق مع مدرِّس يسكن في حيّ «السيِّدة زينب» على الحضور يوميًّا إلى الشقّة ليتولّى أمرها. اكتشف أنّها أصبحت تجلس كلّ يوم على الشرفة وتنتظره. تراه وهو يقترب من العمارة سائرًا فوق الرصيف، في يده يحمل حقيبة قديمة منتفخة بالكتب والأوراق وعدد كبير من الأقلام ألوانها وأحجامها متباينة، فهو لا يتخلّص من أيّ قلم مهما صغر حجمه. تلمح صلعته في أشعّة الشمس دائرة سمراء يحيط بها الشعر الأسود المصبوغ بالحنّاء، والبنطال يرتفع مسافة فوق الحذاء الميري الغليظ، الذي يبدو كأنّه احتفظ به من أيّام الخدمة. لكنّه كان مدرِّسًا متميّزًا، معتزًّا بمهنته، وأنّ على يديه تعلّم الكثيرون. كان يبدي فرحته بذكائها، بكلّ خطوة تخطوها في دروسها. تشعّ السعادة في عينيه وهو يتتبّع الأحرف التي تضعها في إتقان فوق ورق الكرّاسة التي خصّصتها لموضوعات الإنشاء، وقد برزت قدرتها في صياغتها بسرعة.

كان يقف عند مدخل العمارة ليلمّع حذاءه بقطعة من الصوف الأصفر يخرجها من جيبه، واضعًا قدمه اليمنى فوق سلّم مدخل

العمارة، ثم رافعًا قدمه اليسرى مكانها. تسمع همس المصعد، ثم خطواته فوق البلاط. تفتح الباب قبل أن يتوقّف رنين الجرس، كأنّها مقبلة على حبّها الأوّل، تجده واقفًا فوق ممسحة الحذاء في وضع الانتباه، وتفاجأ بالنظرة الصافية المطلّة من خلف زجاج العوينات تجعلها تنسى دمامة الأنف الكبير، والبشرة المغطّاة بالحفر الصغيرة والنقاط السوداء.

بعد خمس سنوات حصلت على الابتدائيّة ثم الإعداديّة من المنزل، فأدخلها في مدرسة «الحرّيّة» لتواصل تعليمها الثانوي على نحوٍ يضمن لها الانتظام، ويسمح لها بالحصول على وضع قانوني باعتبارها ابنته من زواج عرفيّ انتهى بالانفصال وبموافقة الزوجة على أن يتولّى هو مسؤوليّتها. أصبحت تكتب اسمها بخطّها المربّع الواضح على غلاف الكرّاسات «عزّة الجندي». في الصيف عندما تذهب إلى المدرسة ترتدي مريلة مربّعاتها الصغيرة حمراء اللّون مطبوعة على قماشها القطنيّ الأبيض. وفي الشتاء سترة صوفيّة أزرارها من البرونز منقوش عليها كلمات: «مدرسة الحرّيّة للبنات». على ظهرها تنسدل ضفيرتان طويلتان من الشعر يشعّ منهما لون أحمر كأنّه صبغ بحنّاء طبيعيّة قبل أن تخرج من رحم أمّها. حول عنقها عقد جميل تخفيه تحت القميص عندما تدخل من البوّابة الحديديّة. أحجاره السوداء اللاّمعة تفصل بينها الجعارين الزرق المنحوتة بدقّة. لا يفارقها أبدًا حتّى عندما ترقد في السرير لتنام، أو تذهب إلى الحمّام لتغتسل، أو تقف تحت الدشّ وتدعك جسمها، أو عندما تخلع ثياب الخروج. أحيانًا وهي نائمة يتشابك مع خصلات شعرها فتستيقظ. تتلمّسه كأنّها تطمئنّ عليه. وعندما تسقط في النوم تحلم بامرأة تشبهها وتسير

وراءها. تنادي عليها باسمها. فإذا استدارت والتفتت تختفي في شبورة الصباح، أو في ظلام الليل.

مرّت عدّة سنوات قبل أن تعرف أنّ اسمه الثلاثيّ هو «يسري أمين الجندي» تعوّدت أن تناديه «خالي يسري» ثم اكتفت بيسري، فبعد أن كبرت وتجاوز سنّها ستة عشر عامًا أصرّ على أن تسقط وصفها له بخالي. لم يبد لها أن أسرته ذات أهميّة بالنسبة إليها، فهي أيضًا بلا أسرة، ولا تعرف لنفسها لقبًا يضاف إلى اسمها «عزّة». وكان من الطبيعي عندما اتفقا على أن تذهب إلى المدرسة أن تبحث عن وسيلة لكي يستقرّ وضعها الرسمي. ولم يكن هناك حلّ سوى أن يتحايل ليعطيها لقبه هو. هكذا أصبحت تعرف في المدرسة باسم «عزّة يسري الجندي».

كانت تنصرف من المدرسة في الساعة الثالثة بعد الظهر فتجده منتظرًا على الجانب الآخر من الشارع بعيدًا عن زحام السيّارات. يجلس خلف عجلة القيادة في سيّارته الفولكس الصغيرة، التي تلمحها على الفور عاجيّة اللون متوارية قرب محطّة البنزين. تخطو مسرعة بين البنات بخطواتها الليّنة الطويلة تشبه حركة الناقة صغيرة السنّ فوق رمال الصحراء. أمامه مجلّة مفتوحة يقرأ فيها باستغراق واضعًا يده على خدّه لكن عينيه تلتقطانها لحظة خروجها. يبتسم إليها فتجتاز ابتسامته المسافة بينهما. يتسلّل إليه الإدراك بأنّه سعيد برؤية هذه الفتاة التي كبرت وأصبحت شابّة وهي تقترب من السيّارة. يشعر أنّه صنع شيئًا بحياته بعد سنين من الضياع. يلقي بالمجلّة على المقعد من ورائه، وتأخذ هي مكانها إلى جواره. لا ينظر أحدهما إلى الآخر. في العيون شيء كالجمر المدفون في الأعماق يمكن أن يشتعل مع أيّ نسمة. ترقص الشظايا الخضراء الدقيقة السابحة في مقلتيه حول النني

كأنّها تحتفل باللقاء، وتظلّ عيناه تتفرّسان في الشارع الممتدّ أمامه، وفي السيّارات الزاحفة فوق الإسفلت الأسود.

إنّها لحظة تتكرّر في حياتها كلّ يوم ما عدا يوم الجمعة. في الصباح يصطحبها إلى المدرسة سيرًا على الأقدام. يقول إنّ المشي رياضة تفيد الجسم، والعقل. فالجسم يسير فوق القدمين بينما العقل يتأمّل ويفكّر. قبل أن يتركها يقفان لحظة على الناصية. تشعر بأصابعه تضغط على يدها وهو يودّعها: طويلة وقويّة ومربّعة عند الأطراف. فيها خشونة تبثّ فيها الاطمئنان. تحسّ أنّهما قريبان قرب الجسمين المتلامسين المتأهّبين للاحتضان، بعيدين مثل الكواكب والأجرام، كالنجمين في الفراغ يدوران حول بعضهما. كلّ دورة تقرّبهما من بعضهما، لكن يظلّ بينهما فاصل مثل لوح من الزجاج، كأنّهما يخشيان المساس بالوضع الذي استقرّا عليه. فهي مغلقة على سرّ أصلها وولادتها، سرّ تعجز عن الوصول إليه. وهو مغلق على شيء يتستّر عليه ويتخلّص من آثاره بالاستغراق في المشاكل اليوميّة.

يأكلان، يشربان، يتحدّثان، ويقرآن الكتب والمجلّات معًا. يجلسان على الشرفة ويتأمّلان الشمس تغرب خلف قبّة الجامعة وتضيئها بلمعة نحاسيّة، أو يراقبان القمر يسكب ضوءه في الليل فترتعش أمواجه كأنّها أصداف سمكة فضّيّة ضخمة. يسقيان أعواد الياسمين التي زرعاها على الشرفة في صندوق مبطّن بالإسمنت، ومملوء بالطين الأسمر. يقليان السمك، والبيض، والباذنجان، ويطهوان السبانخ مع الشبت، والجبهان، والحمّص، وصلصة الطماطم المستوردة من إيطاليا. ينظّفان البيت، ويلمّعان زجاج النوافذ، ويغسلان الأطباق، والأوعية، والشوَك، والسكاكين، والملاعق بالصابون السائل المعطّر.

يرقدان متجاورين في السرير، ويتحدّثان عندما تأوي إلى فراشها. فإذا سكت الكلام، وانتظمت أنفاسها ينسحب إلى حجرته على أطراف الأصابع مغلقًا بابها وراءه. وفي الصباح تذهب إليه حيث ينام وتوقظه بلمسة من يدها خفيفة كالفراشة فتنقبض أساريره وهو نائم بحركة عصبيّة.

امتلأ عودها، وتدوّر نهداها. ترى الحلمة بارزة عندما تقف أمام المرآة تشعر بها تحتكّ بنسيج الجلباب، أو بصدر صديقتها «نسمة» تحتضنها في الصباح عندما تدخل من باب المدرسة، أو ساعة الانصراف قبل أن تتّجه إلى السيّارة الواقفة على الجانب الآخر من الشارع. ارتبطت بتلك الفتاة الرقيقة ذات العينين السوداوين المسحوبتين كثمرة اللوز ارتباطًا قويًّا. تشبه الملكة «نفرتيتي» بأنفها المدبّب، وعنقها الطويل، وبشرتها السمراء مثل طمي النيل، تطلّ من الصورة التي علّقتها مدرِّسة التاريخ على جدار الفصل. وأثناء أحد دروس التاريخ أوضحت لهنّ المدرِّسة أنّ «نفرتيتي» كانت أخت أخناتون، وأنّها تزوّجته فأصبحت ملكة مصر، وساعدته في نشر أوّل ديانة توحيديّة كان الإلّه المعبود فيها هو رع إلّه الشمس، فقاومهما كهنة المعابد الذين كانوا يعبدون الإلّه أمون وينهبون خيرات البلاد لحسابهم.

أحبّت الملكة «نفرتيتي» لأنّها تشبه صديقتها «نسمة». عندما تحتضنها تحسّ بجلدها مشدودًا، وبأنّ جسمها صنعته يد فيها رقّة. أصبحت تساعدها في دروسها، وتقتسم معها الطعام الذي تحضره في سلّة صغيرة من البيت، فهي تحسّ أنّ ظروفها أصعب منها. تشعر بالحزن عندما تفارقها. وفي الصباح تذهب مبكرًا، وتنتظر قدومها، تجري إليها، وتحتضنها بين ذراعيها. تشعر بجسمها يضغط عليها، بإرهاصات لذّة قديمة ضاعت منها وتريد أن تبحث عنها.

هكذا في الليالي القمريّة عادت تزحف على قدميها العاريتين لتقف على الشرفة، وتطلّ منها على الأشجار تميل، وينعكس ظلّها على سطح الإسفلت الفضّي. يتسلّل ضوء القمر خلال أوراقها، ومن بعيد تأتيها أصوات يحملها الريح. ناس يتحدّثون في مقهى، أو ناي وحيد، أو دقّات الطبل كالنبض البعيد يصل إليها ويذكّرها بما ضاع منها. في قلبها حنين إلى سعادة غامضة لا تعرفها. ترى أين هي، وما السبيل إليها؟ ربّما هي في نفسها، في جسمها، ولم تكتشفها، أو في صدر أمّها التي لم تعرفه، أو في السماء حيث الملائكة والربّ الجالس على عرش، أو في أحضان تضمّها إليها، أو في عقلها ما زالت تصقله، أو في اللذّة التي عرفتها ثم تراجعت عنها عندما أخذت تبحث عمّا في عالمها، فأدركت أنّ هناك آخر خارج الذات في حياتها.

تفتح النافذة ليتسلّل القمر إليها وهي راقدة على سريرها. يضيء قدمها. يعبث بأصابعها مع حركة الغصن يميل ويكاد يلمس شبّاكها. تنفض عن نفسها مشاغل النهار كأنّها تغسل نفسها في ضوئه الفضّيّ. يصعد ببطء على ساقها ثم بطنها. على العري الأسمر للجسم الممدود فوق الفراش يعرض جماله. تتلمّسه مارّة بيديها عليه كأنّه شيء ثمين تكتشفه. تتتبّع منحنياته، وخطوطه، والامتلاء الذي طرأ عليه. تتحسّس عضلاته التي أصبحت صلبة قويّة قادرة على الجهد. تزحف بيدها على ساقيها. تبحث عن العضو الذي لم تقربه منذ أن خرجت من البوّابة إلى المدينة الضخمة المتلألئة الأضواء، فانشغلت بحياتها، بالطريق الذي ستسير عليه، بمستقبلها.

تسعى إلى الرجفة الساخنة تخترقها. تسعى برقّة وحرص ثم بتوتّر

العاجزة عن الاهتداء. لكن هذه المرّة أدركت أنّ اللذّة القديمة التي عرفتها مع ذاتها ضاعت ولن تعود إليها.

*

حصلت على الثانوية العامّة بتقدير «ممتاز» فسألها:

«والآن ماذا ستفعلين؟»

قالت: «أريد أن أرقص».

صمت لحظة طويلة وفحصها بنظرة فيها شيء من الضيق. سألها:

«تريدين أن ترقصي؟»

قالت:

«نعم. أريد أن أتدرّب على الباليه الحديث. أن أعبّر بالرقص عمّا يدور في نفسي، عن أشياء حدثت، وتحدث في العالم من حولي».

أخذها إلى أكاديميّة الموسيقى والرقص في شارع الهرم. صعدا إلى مكتب رئيسة الأكاديميّة في صباح أحد أيّام الخريف. وجدا أمامها امرأة بدينة قصيرة القامة، لها عينان صغيرتان تتحرّكان بحيويّة في الوجه المستدير الأبيض. أحسَّت نحوها بالارتياح منذ أوّل لحظة. سألتها عن أسباب اختيارها للرقص بالذات، فردّت عليها قائلة إنّها عندما ترقص تشعر أنّ جسمها ينطلق من القيود التي أحاطت بها منذ أن ولدت طفلة أنثى. إنّه لا يوجد شيء في الوجود تعجز الحركات الراقصة في التعبير عنه من أدقّ المشاعر وأصغر تفاصيل الحياة إلى الأحداث الجسام التي تهزّ الدنيا. إنّها تشعر بالسعادة والانتشاء، عندما ترقص.

فوجئ بالكلام الذي سمعه، كأنّ التي تجلس إلى جواره على الكنبة إنسانة غير تلك التي عرفها. كأنّها كبرت فجأة وأصبحت تعي

معنى الفنّ، والحياة. أحسّ بالفخر وبنوع من الإحباط لأنّه لم يكتشف شخصيّتها الحقيقيّة رغم أنّها عاشت في كنفه طوال السنوات، قريبة منه في كلّ لحظات الحياة. أمّا رئيسة الأكاديميّة فبدا عليها الانبهار. قامت من جلستها وحضنتها، ثم قالت:

«منذ الآن أنت طالبة في الأكاديميّة. وسأسعى أن تكوني معفاة من كلّ المصاريف. كنت أحلم بأن تكون لي ابنة مثلك».

تنظر إليها بعينين أضاء فيهما الحبّ. أعطتها استمارة، وطلبت منها أن تملأها، وترفق بها صورتين لها وبعض الأوراق، وطمأنتها بأنّها ستبدأ في حضور الفصول الدراسيّة والتدريب بعد أيّام، ثم سارت معها حتّى الباب لتودّعها.

لمّا جلست إلى جواره في السيّارة أحاطته بذراعيها وقبّلته، فتملّكه الاضطراب، وتعثّرت يده وهو يدير مفتاح المحرّك. لكن بعد لحظة انطلقت السيّارة في طريق العودة، وأخذ يغنّي «عطشان يا صبايا دلّوني على السبيل». وكانت هذه أوّل مرّة تسمعه يغنّي.

أصبحت تذهب إلى الأكاديميّة وتعود منها وحدها. تستقلّ الأوتوبيس من شارع الجيزة، وتهبط في المحطّة القريبة من الأكاديمية. كانت تتدرّب على الرقص ساعات طويلة، وتعود مرهقة من التدريبات. تتناول عشاءها معه ثم تنسحب إلى حجرتها لتذاكر دروسها، أو تقرأ قبل أن تنام. حتّى يوم الجمعة كانت تصرّ على الذهاب إلى معهدها لمواصلة التدريبات. أصبحت الأكاديميّة حياتها. وبعد أن مرّت الشهور بدأت تأخذ دروسًا في الرسم. أصبحت مولعة بتصميم الرقصات، فأحسّت أنّ الرسم ضرورة إذا أرادت أن تضع أفكارها على

الورق بشكل مجسَّد.

كان ينتظرها أحيانًا أمام الأكاديميّة لتوصيلها إلى البيت خصوصًا عندما تتأخّر لمواصلة تدريباتها. تعود معه قرب غروب الشمس. لم تعد تثار للشظايا الخضراء الرفيعة حول النني في عينيه كما كانت تفعل من قبل. أصبح في حياتها شيء أهمّ ينافس اهتمامها به، ويأخذها بعيدًا عنه. عند إشارات المرور تتوقّف السيّارة فتلتقي العيون لحظة ثم تفترق دون أن ينتفض ضوء الجمر في أعماقها. كانت في الماضي تشعر بشيء كالخفّة الغامضة في صدرها لكن حتّى هذه الخفّة أخذت تتلاشى مع مرور الوقت. اتّسعت المسافة بينهما. أصبحا كالنجمين اللّذين تغيّر مسارهما في الكون بفعل عوامل الجذب والطرد فأبعد بينهما المدار الذي انتقلا إليه. لكن كان من الصعب أن يخرج أيّ منهما عن المدار الذي ربط بينهما، وإلاّ اهتزّ التوازن الذي خلقته السنوات التي امتدّت منذ أن فتح لها باب السيّارة، وأجلسها على المقعد وراءه. ظلّ الإشعاع المسافر بينهما عبر المسافة التي تفصلهما يصل بينهما ليترك آثاره البطيئة الخفيّة في الجسم والقلب، وفي أغوار الوعي الباطن والتيّارات الدفينة دون أن يتنبّه أحد منهما إليها.

في ذلك اليوم ذهبت كعادتها إلى معهد الرقص. خلعت ملابسها وارتدت القميص والبنطال «الايستريتش»، وحذاء الرقص، لكنّ مدرّبة الرقص الأولى التي تعهّدت بتكوينها لم تحضر في ميعادها، ولم يصعد الطلبة والطالبات الأخريات من الفصول إلى الصالة الكبيرة للرقص. هبطت على السلّم لتبحث عن سبب غيابهم عنها، ففوجئت بهم متجمّعين في الحوش يروحون ويجيئون في توتّر أو يتجمّعون في حلقات، كأنّه حدث شيء غير عاديّ أصيبوا بحيرة شديدة إزاءه.

سألت إحدى الطالبات عن الأمر فمدّت إليها يدها بجريدة الصباح وفتحتها أمامها، فتناولتها منها وجلست على دكّة تقرأ العناوين المطبوعة ببنط أحمر كبير يغطّي النصف الأعلى من الصفحة.

لم تكن تهتمّ بالسياسة، وشؤون الحكم. كانت منشغلة بدروسها وتدريباتها. برقصات جديدة تحلم بها، وتفكّر في تصميمها. لكن المسألة لم تكن عسيرة على الفهم. فقد أصدر الحاكم عدّة قرارات برفع الأسعار. لم يترك سلعة أو خدمة أساسيّة دون أن يشملها. أراد أن يأخذ الناس على غرّة. أن يضرب ضربة واحدة وينتهي منهم. كان يحتقرهم ويظنّ أنّ الخوف عندهم أقوى من أيّ شيء. لكنّهم رأوا الجوع مثل عيون الذئاب في الليل تنتظرهم. هكذا قال لها فيما بعد عندما جلسا يتناولان إفطارهما على الشرفة. فلمحا العسكر وقد احتلّوا المدينة وشوارعها بدبّاباتهم.

وجدت نفسها في الشارع وسط الطلبة والطالبات سائرة ببزّة الرقص. تذكّرت تلك الليلة البعيدة التي بدَّلَت حياتها. فمنذ أن خرجت من بوّابة الملجأ لم تنظر وراءها. سارت مع البنات إلى أفق لم تره من قبل. سارت مع الجموع دون أن تعرف إلى أين. والآن يتكرّر معها ما حدث من قبل. لكن هذه المرّة أصبحت تعلم لماذا انضمّت إليهم. من حولها مئات الآلاف من الناس، صعدوا من كلّ فجّ، من كلّ حارة، وشارع. شباب، وشيوخ، وأطفال، وجموع من النساء جئن من الأحياء الفقيرة بجلاليبهنّ السود. في عيونهنّ بريق الغضب، وفي صراخهنّ ماضٍ مكبوت. كأنّ الأرض انشقّت ليخرجن منها كالنزيف الأسود، كالعرق ينضح من مسام المعذّبين، أو كالأموات في يوم القيامة اختاروا التمرّد.

انحدرت مع الجموع تحت النفق ثم صعدت نحو الميدان. انضمّ إلى الزحف حشد كبير فاضطربت الصفوف. أصبحت كالبحر تتلاطم أمواجه، وارتفع الهتاف كالهدير يملأ الفراغ.

لم تعرف كم من الساعات مرّت، ولا المسافات التي قطعتها. أحسّت فجأة أنّ الزحف يغيّر اتجاهه ليعود إلى قلب المدينة حيث قبع المسؤولون خلف الجدران في انتظار الأوامر من أعلى. عند الأفق صعدت الشمس، وألقت على المدينة سائلاً قرمزيًّا اختلط بمياه النيل، وحوّل النوافذ إلى عيون حمراء تبكي، وعند أطراف الحشود انتشر العسكر وصفوف الدبّابات، لتصنع جدارًا من الحديد يحول دون استمرار الزحف.

سمعت فرقعات متتالية فوق رأسها دون أن ترى شيئًا. لكن بعد لحظات تفرّقت الحشود فاندفعت مع مجموعة من الناس لتجد نفسها على مقربة من حانوت. فوق مصطبة عالية من الرخام لمحت أكوامًا من البرتقال والجوافة والرّمّان، وأوعية زجاجيّة فيها تمر هندي، وكركديه، وليمون، وشباطة كبيرة من الموز معلّقة في الهواء.

لمحته واقفًا أمام المصطبة يميل برأسه إلى الوراء ليبتلع كوبًا من عصير القصب ثم يضعه على الرخام. شعره الطويل يسقط على أذنيه فيرفعه بتلك الحركة المتوتّرة من يديه. استدار فوجدها واقفة أمامه مرتدية بزّة الرقص. الناس حولها يلقون إليها بنظرات فيها ودّ كأنّ لا شيء في هذا اليوم يمكن أن يثير الدهشة. اقتربت منه بخطواتها الليّنة. لمحت في عينيه الفرحة، وحول النني تزاحمت الشظايا الخضراء ترقص كأنّها تحتفل باللقاء. أمسك بذراعها وهتف:

«أنت؟!»

صعدت ضحكاتها مثل فقاعات من الصابون ترتفع في الصباح، فالتفت إليها الناس وأضاءت وجوههم. كانت السيّارة العاجيّة تنتظر قرب الرصيف على الجانب الآخر من الطريق. اخترقا الزحام بخطوات مسرعة. جلست إلى جانبه. أدار المحرّك فانطلقت السيّارة في شارع القصر العيني إلى أن وصلت إلى ميدان التحرير. سألها:
«إلى أين؟»

قالت: «إلى البيت».

نامت طوال النهار، واستيقظت على ضوء القمر الصاعد في السماء والمطلّ عليها من الجزء الأعلى للشبّاك. ظلّت راقدة في السرير تستمتع بالهدوء. سمعته يتحرّك في الشقّة. كان يحتكّ ببعض الأشياء كأنّه يريد أن ينبّهها إلى وجوده فتأتي إليه. قامت من رقدتها وذهبت إلى الحمّام. أخذت دشًّا من المياه الساخنة وارتدت جلبابًا واسعًا من الكتّان. مشّطت شعرها في ضفيرة طويلة وتركتها تسقط على ظهرها ليصل طرفها أسفل خصرها.

كان يقرأ في كتاب عندما دخلت عليه، فرفع رأسه وقال:
«كيف حالك يا «عزّة». وحشتني فنحن نكاد لا نلتقي منذ مدّة. أعددت عشاءً خاصًّا لنحتفل بلقائنا الذي تأخّر. لقد ابتعت زجاجة من النبيذ جئت بها من السوق الحرّة».

تناولا عشاءهما على الشرفة: فروجًا مشويًّا على الطريقة اللبنانيّة، وأرزًّا بالزبيب والمكسّرات، وسلاطة بابا غنّوج وبازلاء مطهيّة في البخار وضع عليها قليلاً من زيت الزيتون. أشعل شمعة وفتح زجاجة

النبيذ. ارتفع القمر فوق الأشجار وأضاء شعرها. حمل الريح صوت المذيع في راديو الجيران، وهو يقول:

«عاد الرئيس من أسوان صباح اليوم، وأصدر عدّة مراسيم بإلغاء القرارات الخاصّة بتحريك أسعار السلع والخدمات».

وفور أن انتهى المذيع من نشرة الأخبار ارتفعت دقّات الطبول في الليل، وأضاءت كلّ الأنوار.. كأنّ في المدينة مهرجانًا ضخمًا.

ارتشفا ما تبقّى من النبيذ في كأسيهما. أطفأت الشمعة ودخلا إلى غرفة نومه. رقدت على السرير إلى جواره، وتشابكت أيديهما. أحسّ بجسمها تحت الجلباب قويًّا ليس فيه طراوة الأنثى التي لا تتحرّك. همست في أذنه:

«أريدك يا حبيبي. أنت الوحيد الذي أستطيع أن أتركه يلمسني. حاول آخرون في المعهد، وفي أماكن كثيرة ذهبت إليها، كدت أمزّقهم بأظافري. لكن أنت، بالنسبة إليّ، أعزّ وأرقّ إنسان أريد أن أعبّر لك عمّا أحسّ به نحوك. لكن الكلمات وحدها عاجزة عن تجسيد الحبّ الذي نما في قلبي. الكلمات رموز، ليست الحقيقة نفسها، جسمي هو الحقيقة المادّيـة، يسكن فيه عقلي وقلبي. ربّما لذلك اخترت الرقص وسيلة للتعبير عن نفسي. عن وجودي في هذه الدنيا. لا أريد أن أنتظر الموت يحوم حولنا في كلّ لحظة. لو كنّا ندرك حقيقة الموت لعشنا بطريقة أفضل. لكنّنا نتهرّب منها، نتجاهلها، نلقي بها بعيدًا، لأنّها تبدو لنا مخيفة. لكنّي عشتها منذ أن ولدت من العدم بلا أب ولا أمّ. منذ أن ولدت وحيدة. أدركت أنّ للموت معنى، فهو يعطي للحياة قيمة. وعرفت أنّ للحبّ قيمة لأنّني ولدت بلا حبّ.

بلا أحد يهبني حبّه إلى أن التقطتني من الطريق، وجعلتني أحيا معك من دون أن تطلب منّي شيئًا. لذلك أنا أحبّك يا حبيبي. الحياة هي لحظات الحبّ نعيشها. انظر إليّ. انظر إلى جسمي. إنّه يريدك. هل تدرك أنّني امرأة حرّة أستطيع أن أرحل في أيّة لحظة، لكنّني أبقى معك لأنّني أحبّك».

رأى البريق في عينيها. أحسّ بأنفاسها دافئة كنسيم الصيف يتسلّل إليه. مرّ على شفتيه بلسانه كأنّ ريقه جفّ. لمحت حبّات العرق على جبينه. وسمعت الكلمات وهي تخرج منه في تعثّر:

«لا أستطيع».

ابتعدت عنه بحركة لاإراديّة. قرّرت أن تفهم ما أدركت أنّه كتمه عنها. ترى مقلتيه تدوران هنا وهناك في يأس كأنّه يبحث عن مخرج. ثم نطق كلمة واحدة رنّت في الصمت:

«الحرب».

أحسّت أنّها ستفهم ما حرص على إخفائه عنها. أدركت فجأة أنّه طوال السنين لم يكن يتحدّث إليها عن نفسه. ربّما لأنّها أصغر أو لأنّه يخشى من شيء لا يريد أن يواجهه. شيء يتعلّق به. أحيانًا كانت تخرج منه كلمات مقتضبة. شذرات بلا تواصل لا يكتمل فيها أيّ معنى. أمّا هي فكانت تحكي له حياتها ما عدا في السنة الأخيرة عندما بعدت بينهما الشقّة. كانت تعود آخر النهار لتقصّ عليه ما حدث في مدرسة «الحرّيّـة»، ثم بعد ذلك في المعهد، فيستمع إليها بإنصات كأنّه يريد أن يستوعب كلّ ما تقوله. وجاءت الأيّام التي أصبحت تحكي له عن حياتها في الملجأ. أمّا هو فشيء في نفسه كالجدار

يفصله عنها. مهما اقتربا تظلّ هناك مسافة لا سبيل إلى اجتيازها. في بعض اللحظات تكاد تبكي، أو تصرخ، أو تضربه بقبضة يدها كمن يضرب على باب مغلق لينفتح أمامه وليكتشف ما يوجد وراءه. قالت في حسم كأنّها قرّرت شيئًا:

ومالها الحرب؟»

الكلمات تخرج من حلقه بصوت بعيد، كأنّها تخترق طبقة وراء طبقة لتصل إليها. تنظر في عينيه مشجّعة:

«شظيّة أحدثت جرحًا في العمود الفقري».

«وهل هذا شيء ممكن أن تخجل منه، وتخفيه؟»

«أصابتني بالعجز الجنسي».

حملقت في وجهه. أخذت نفسًا عميقًا كأنّها ارتاحت من عبء. احتضنته بذراعيها طويلاً ثم تركته. وضعت يديها على جانبيْ وجهه وقبّلته. شعرت بشفتيه تتهرّبان من القبلة فبحثت عنهما مرّة أخرى، قالت:

«أنا أحبّك. لا تهرب منّي».

كلّ ليلة تنام إلى جواره، إذا خرج تظلّ تنتظره حتّى يعود. في إحدى الليالي تأخّرت في تدريبات الرقص. وعندما عادت كانت تحمل معها باقة من الورد، وشهادة التقدير التي حصلت عليها، قالت:

«عيّنت مدرِّسة في تصميم الرقصات. باقة الورد هذه قُدِّمت لي في احتفال خاصّ أقامه طالبات وطلاّب المعهد».

لمح شيئًا كاللّهب الصغير في عينيها. كان راقدًا على السرير يقرأ في كتاب. وضعه جانبًا، وقال:

«لا بدّ أن نحتفل الليلة».

وهمّ بالقيام. لكنّها وضعت يدها على صدره لتوقفه، وقالت: «لا . . . انتظر حتّى أعود إليك».

عندما دخلت من الباب كانت ترتدي بزّة للرقص في لون البحر، وخفًّا. وضعت باقة الورد في إناء زجاجيّ شفّاف، وخرجت لتملأه بالماء ثم عادت ووضعته على منضدة صغيرة بجوار المقعد. دقّت مسمارًا في الجدار فوق السرير وعلّقت شهادة التقدير عليه. ثم بدأت تخلع بزّة الرقص بحركة متأنّية كأنّها تريد منه أن يتأمّل قامتها المشدودة ورأسها المرفوع فوق عنقها، وعينيها السوداوين وهي تطلّ عليه.

كان يحملق فيها مشدوهًا. بنت النيل هبطت من هضاب الحبشة. صبغتها المياه، والشمس بلون الطمي. تأمّل جمالها الأسمر، وحلمة الثدي كالبرعم الورديّ اللون. صعد القمر في السماء. أطفأت النور فلمع شعر العانة عند أسفل بطنها كالتاج الذهبيّ ضفره إلّه الحبّ.

جلست إلى جواره وأخذت تفكّ أزرار المنامة المغلقة عند عنقه. ألقت بها على الأرض. قبّلته على شفتيه واحتضنته. ثم رقدت فوقه. أخذت تلمسه بحركة راقصة من جسمها، بذلك الجزء الذي اكتشفته وكادت أن تنساه. تنظر في عينيه. ترى الشظايا الرفيعة وهي ترقص حول النني. أحسّت به يرحل على أمواج اللذّة فرحلت معه. أخذا يصعدان إلى القمّة ببطء كأنّهما يمتصّان كلّ لحظة. رأت بريق الفرحة يطلّ من عينيه. أحسّت بالعرفان في لمسة يديه على ظهرها قبل أن يهبطا معًا إلى البئر العميق حيث يتلاشى كلّ شيء وكأنّها لحظة موت ثم عادا منها إلى سطح الوعي. قبّلها على جبهتها. أحاطها بذراعيه. وناما هكذا إلى أن طلع الفجر.

(١١)

تزوّجت يسري أمين الجندي في فلوكة استأجرها عند شاطئ روض الفرج. جلس المأذون في مقدّمة الفلوكة ومن خلفه قرص الشمس يهبط بالتدريج نحو سطح الأرض. في السماء سحب خفيفة تدفعها الريح أمامه كالفراشات صبغتها أشعّة الشمس بلون الورد والجنزبيل، والكركم، إلى أن اختفت عند الشاطئ الآخر من النهر خلف مساحات القمح.

جلسا أمام المأذون متشابكي الأيدي. كانت ترتدي بزّة الرقص وكان يرتدي هو جلبابًا من الصوف، وشالاً مطرّزًا ابتاعه من البدو في إحدى رحلاته إلى البحر الأحمر. وشهد على الزواج اثنان من «المراكبيّة» أتى بهما صاحب الفلوكة العجوز.

كانت قد أصبحت نجمة ساطعة في عالم الرقص. عرفت بتصميماتها المبتكرة التي استوحتها من الرقصات الشعبيّة في مختلف أنحاء القطر، وأدخلت عليها تغييرات تعبّر عن صراعات الناس في مصر، عن أحزانهم، وأحلامهم في هذا العصر، وقدرتها على التعبير عن أدقّ خلجات النفس بالرقص. ومن بين الرقصات التي أشهرتها رقصة عن علاقات الحبّ بين الرجال والنساء وتعقيداته. عن العبيد وهم يبنون الهرم الأكبر وما عانوه في العمل وفي حياتهم. ورقصة عن قصّة آدم وحوّاء في الجنّة ولماذا طردا منها. ورقصة سمّتها «الحياة

على الحافة» تعبّر عن حياة راقصة حكم عليها بالحرق، لأنّها رفضت أن تسلِّم جسمها لحاكم البلاد.

كان الناس في كلّ مكان يتوافدون على عروضها ليستمتعوا بفنّها الرفيع الذي يجعلهم يضحكون، ويبكون على أشياء في حياتهم تكشف التناقضات التي يعيشونها. وكان زوجها يرافقها في كلّ تنقّلاتها ليساعدها في إدارة نشاطها، فاتفقا على ألاَّ ينجبا أطفالاً حتّى تتفرّغ لأهمّ ما في حياتها.

في نهاية السنة الخامسة من زواجهما عادا من رحلة طويلة إلى الخارج أصابتهما بالإرهاق. فاقترح عليها أن يقوما بإجازة بعيدًا عن القاهرة. كانت تعشق مدينة الإسكندريّة وتحنّ إلى البحر، إلى مساحات الشاطئ الخالية تسير فوق رمالها غارسة قدميها في المياه، فتشعر كأنّها تستعيد جزءًا ضائعًا من نفسها. تعجز عن تحديده كأنّه دفن بعيدًا في أغوار النفس، ولا سبيل إلى استرجاعه. ربّما الطفولة، أو حتى ما قبل الطفولة، عندما كانت جنينًا في رحم الأمّ. يتملّكها حنين غريب كلّما ذهبت كأنّها يمكن أن تكتشف فيها ذلك الجزء الذي ضاع منها. إنّه إحساس يؤرقها، كأنّها إنسان ناقص، لا بدّ أن تستعيده ليعود إليها التكامل والتوازن اللذان حرمت منهما.

سبقها إلى الإسكندريّة. كان قد اتفق مع أحد السماسرة ليبحث لهما عن شقّة للبيع. فلمّا وصل إلى المدينة أخذه الرجل ليعاين ما عثر عليه. كانت شقّة في الدور الثالث عشر من عمارة أقيمت حديثاً أمام شاطئ ميامي. اشتراها على الفور في اليوم الذي زارها فيه. كان المالك مقاولاً من الصعيد التقاه جالسًا في مقهى في سوق «سيدي

شر» يدخّن الشيشة. وبعد أن تسلّم المفاتيح ودفع للسمسار ما يخصّه شرع في تجهيزها بالأشياء الضروريّة لإقامتهما ثم اتصل بها تليفونيًّا. قال لها إنّها شقّة واسعة وجميلة تطلّ جميع نوافذها على البحر وكأنّك في سفينة. سمع رنين صوتها في التليفون هاتفًا: «جميل، جميل، سأحضر يوم الجمعة في القطار السريع الذي ينطلق من محطّة رمسيس في الساعة السادسة صباحًا».

كان يعشق صيد السمك فاتفق معها أن يترك مفتاحًا للشقّة عند البوّاب، وأن ينتظرها عند «بئر مسعود». فالمسافة بين العمارة وبينه لا تستغرق أكثر من ثلاث أو أربع دقائق سيرًا على الأقدام. وصلت إلى محطّة «سيدي جابر» في التاسعة إلاّ ربعًا، واستقلّت سيّارة أجرة أوصلتها إلى العمارة حيث وجدت ابنة البوّاب تنتظرها. حملت عنها الحقيبة، وارتفع بهما المصعد إلى الدور الثالث عشر. كانت ابنة البوّاب فتاة سمراء نحيلة ترتدي جلبابًا، وخفًّا حول قدميها العاريتين المرتعشتين من البرد، فأعطتها الشال الذي كانت ترتديه وساندويتشًا من الجبن الروميّ حملته معها لتتناوله إذا جاعت في الطريق، فأخذتهما منها البنت واختفت في لمح البصر كأنّها تخشى أن يراهما أحد فيستولي عليهما.

اغتسلت بسرعة وارتدت ثوبًا صوفيًّا وحذاءً للمشي ثمّ هبطت إلى الشارع. اجتازت طريق الكورنيش إلى الرّصيف الممتد بجوار الشاطئ. كانت السماء مكفهرّة، والبحر رماديّ اللّون. طيور النورس البيضاء تسقط نفسها بين الأمواج ثمّ تندفع بعيدًا على متن الرّيح لتعود طائرة مرّة أخرى فوق المياه. على الجدار جلس أحد الباعة أمام صينيّة من الخشب مرفوعة على حامل وضع فيها قراطيس من الفول السوداني

واللّبّ، كأنّه ظلّ في مكانه هذا منذ موسم الصيف، ولم ينتبه إلى أنّ المنطقة خلت من المصطافين. ساقاه تتدلّيان أمام الجدار مثل فرعي شجرة جافّة، وعيناه المطفأتان تحملقان في الفراغ من بين التجاعيد.

لمحته واقفًا على الصخرة الممتدّة داخل البحر تضربها الأمواج من كلّ الجهات، ويتطاير من حولها الرّذاذ. شعره كالعرف يتطاير في الرّيح. يرتدي سترة جلديّة مبطّنة بالصوف لونها كالبن المحروق. بالقرب منه طبليّة صغيرة من الخشب أحضرها معه ليجلس عليها عندما يشعر بالإرهاق من طول الوقوف، وسلّة صغيرة وضع فيها جمبري الطُعم تفحُّ منها رائحة عفونة.

تقدّمت فوق الصخور بخطوة حريصة خوفًا من أن تنزلق قدمها في أحد الجحور أو فوق الطحلب الأملس، الذي يغطّيها في بعض الأماكن حيث تكوّنت برك من المياه. توقّفت على مسافة قصيرة منه لتملأ عينيها بمنظر البحر، والأمواج، وبالسحب الداكنة المثقلة بنذر المطر والرّعد. بالطيور البيضاء تحلّق حوله صارخة لعلّها تشاركه في الصيد. بالأمواج تندفع من فتحات الصخور وتصعد في البئر كأنّها ستغرق الأرض. تشعر بالرذاذ يسقط عليها باردًا منعشًا فتستنشق الهواء بأنفاس عميقة، كأنّها تريد أن تختزنه ليطهر ما تراكم في جسدها من سموم وغازات. تتأمّل قوامه المنتصب على الحافّة البارزة تعلو عند آخر الصخرة فوق المياه المضطربة تتقدّم وتتقهقر. كأنّها لا تريد أن تكفّ عن حركة الهجوم والارتداد. يقف وحده في الكون العريض. جزءًا من الطبيعة، متآلفًا معها يتحدّى جبروتها لينتزع منها ما تريد أن تحتفظ به في الأعماق. أصابعه القويّة المربّعة عند الأطراف تلتفّ حول مقبض السنّارة التي تبدو متوتّرة، شاحبة، كأنّها تعاني من جهد

فوق الاحتمال، فأحسّت برغبة جامحة في أن تدفّئها في صدرها تحت الثياب.

أدار البكرة دورات سريعة فتقوّست البوصة الطويلة كأنّها تنوء بالحمل الذي ترفعه. عضلات كتفه وذراعه مشدودة إليها، كأنّها أصبحت جزءًا منها لا تنفصل عنها، إلى الخيط اللاّمع يحاول أن ينتزع الصّيد من أعماق البحر. كأنّه اشتبك في صراع مع خصم أقوى منه. في لحظة تتخيّله وهو يتمزّق أمامها، ويقع من على حافّة الصخرة ليختفي تحت الأمواج، لكنّه يظل يقاوم بالكبرياء الصاعد في قامته، بحبّات العرق اللاّمعة تنهمر على جبينه فيمسحها بكمّ القميص القديم الذي كان خلعه ولفّه حول كتفيه.

شدّ على البكرة ثمّ أرخاها. تصوّرت السنّارة مغروسة في الفمّ الأحمر يطلق صرخات بلا صوت. دفع الطبليّة إلى الخلف بكعب حذائه، ومال بجذعه. لمحت قوامه الفارع يتقوّس ورأسه ينثني إلى الوراء. تبعثرت خصلات شعره مع دفعات الرّيح الهوجاء. قدماه تتشبّثان بالأرض كأنّه يخشى أن يجرّه الصيد إلى قاع البحر، أخذ يظهر ويختفي تحت سطح الماء.

تقهقهر خطوات أخرى إلى الخلف، وفجأة خرجت السمكة الكبيرة من بين الأمواج بقفزة هائلة. جسمها الفضيّ القوي منتفخ كأنّها تخفي حملاً في أحشائها. رقصت في الهواء رقصة مجنونة في محاولة للتخلّص من السنّارة المغروسة في حلقها. ورفرفت من حولها طيور النورس صارخة بأعلى صوتها. شعره يتطاير حول رأسه، وضحكاته الظافرة يرتدّ صداها من جدار البئر.

أمسك بالسمكة بين يديه. انتزع السنّارة من فمها فتعلّقت بها قطعة من حلقها. انتابتها نشوة متوحّشة، نشوة الانتصار التي تصيب الصيّاد عندما يقتنص صيده، ثمّ أحسّت في جسمها بقشعريرة باردة. رفعت عينيها إلى السماء فاصطدمت نظراتها بالسّحب الداكنة تزحف بسرعة نحو الشاطئ، ثمّ تبطئ، وتستقرّ. تتبّعته يقترب منها بخطوات بطيئة حاملاً السمكة التي اصطادها بين يديه. لمحت وميض أسنانه في الوجه الذي لفحته أشعّة الشمس طوال الأيّام الماضية. بدا لها أنّه يتألّم ويخفي ألمه خلف قناع، أو أنّ الألم اختلط في جسمه بفرحة اللّقاء. في هذه المساحات الممتدّة للكون أصبحا وحدهما. الرّعشة تخترق عظامها، ثمّ بعد لحظة راحت وعاد إليها شعورها بسعادة وجودها إلى جواره. توقّف أمامها قائلاً:

«هذه هديّة منّي إليك».

لمست السمكة بأطراف أصابعها. كانت باردة كالموت الذي سرى منذ لحظة في أوصالها. وضع يده حول ذراعها. لمح سواد عينيها الذي عاد إليه البريق. ارتجفت أعماقه بالأمل يعود إليه كلّما أحسّ بها قريبة منه. أخذ يدندن بأغنية تعلّمها في المدرسة وهو طفل. كان صوته جميلاً فنسيت الأحاسيس التي انتابتها.

اجتازا الكورنيش وسارا في شارع السوق أمام المطاعم التي أغلقت أبوابها. ابتاعا خبزًا ساخنًا من الفرن، وبصلاً أخضر، وليمونًا، وحزمًا من الفجل، والبقدونس، والجرجير، من امرأة جالسة على الرّصيف أخفت يديها تحت شالها الأسود، وتركتهما يختاران من بين الأكوام المرصوصة فوق سبت من الجريد مغطّى بالخيش. ثمّ استقلاّ المصعد

حتى الدور الثالث عشر في العمارة الخالية من سكّانها.

اختلطت ضحكاتهما بالموسيقى المنطلقة من جهاز للتسجيل كان وضعه في الصالة الواسعة المطلّة واجهتها الزجاجيّة على البحر. قاما بشوي قطع السمك على الأسياخ بعد أن غمستها في اللّيمون، والشطّة، والكمّون، وقليل من الزيت. فرشّت طبقًا من الصيني الأبيض بالبقدونس ورصّت قطع السمك عليه. التهماها مع الخبز الطازج، والبصل الأخضر، والجرجير، واللّيمون المخلّل الذي ابتاعه من الطرشجي في السّوق، وشربا زجاجة من النبيذ الأبيض الإيطالي أحضرتها معها في إحدى سفرياتها.

أكلت، وشربت ،حتى أحسّت أنّها عاجزة عن التنفّس، فكّت الحزام الذي كانت ترتديه. صعدت الشطّة حتى منابت الشعر في رأسها مثل طوابير النمل الصغير. استغرقت في عينيه العسليّتين الفائضتين بالحبّ. تردّد صوت أمواج البحر في أذنيهما. قبّلته على شفتيه فيهما طعم الماء المالح والرّياح الطازجة. شعرت بالحياة تتدفّق في جسمه. أو ربّما كان هو الحبّ ينتفض، ويشتعل قرب النهاية ليترك وراءه ذكرى نبضاته. قبّلته ببطء كأنّها ترتشف منه قبل أن يفلت إلى الأبد من بين لمساتها. احتضنته كأنّه سيبقى بين ذراعيها إلى نهاية العمر. . كأنّه سيتركها ويمضي في اللّحظة التالية. أدركت بحسّها أنّها أيّامهما الأخيرة. لم تعرف متى أدركت هذه الحقيقة. ربّما عندما لمحت حذاءه يرقد على الأرض تحت السرير كأنّه تركه على الشاطئ ليقفز إلى البحر. . . أو وهو مقبل عليها يحمل السمكة التي اصطادها. رأت شيئًا وراء الابتسامة، نظرة فيها استجداء. . كأنّه يعتذر عن حاله، عن ذلك الإنسان المسمّى «يسري أمين الجندي». أو ومضة الشعلة

قبل أن تطفئها الرّيح.

أخذها بين أحضانه. أعطاها من الحبّ ما لم تكن تتصوّر أنّه قادر على إعطائه. كان كالممثّل الذي يعطي أقصى ما عنده قبل أن يعلن عن اعتزاله. صعدت معه إلى قمّة اللّذّة وتوقّفت عندها طويلاً. رأت عرقه يسقط على الوسادة غزيرًا، والتجاعيد تختفي من حول عينيه، ثمّ نام نوم الذين عرفوا أجمل ما في العمر.

لكن في الصباح استيقظت على صرخاته. أخرج زجاجة صغيرة وحقنة من درج «الكومودينو». طلب منها أن تسحب محتوياته في الحقنة، وأن تفرغها في وريده. قال إنّه لم يعد يطيق الآلام. وأن الأطبّاء يئسوا من شفائه حتى بالأدوية الجديدة التي أحضرها معه من الخارج. لكنّها رفضت. أخذت معها الزجاجة الصغيرة وهبطت لتبحث عن صيدليّة تبتاع منها عقارًا يسكت آلامه ريثما تبحث له عن طبيب. بحثت طويلاً.. وفي هذا الوقت المبكر من النّهار لم تجد صيدليّة مفتوحة. اضطرّت إلى السير حتى منتصف «شارع خالد بن الوليد». ولمّا عادت كان قد اختفى من البيت.

ترك وراءه ملابسه وأدوات الصيد ومبايعة للشقّة موثقة باسمها في الشهر العقاري وأخرى بالفدادين التّسعة التي ورثها عن أبيه. بحثت عنه في كلّ مكان. على الشاطئ. في المستشفيات، وفي أقسام البوليس. ظلّت تطوف الشوارع إلى ساعة متأخّرة من اللّيل. سألت في أغلب فنادق المدينة. ولمّا عادت رقدت على سريرها بملابسها وحذائها دون أن يجيئها النّوم، فهبطت تبحث عنه من جديد.

لمّا يئست من البحث في المدينة قرّرت أن تعود إلى القاهرة،

وتواصل محاولاتها للعثور عليه. فضبطت المنبّه على السادسة صباحًا. عندما دقّ الجرس انتفضت جالسة في السرير. أضاءت المصباح إلى جوارها فألقى بضوئه الأصفر الباهت على الأغطية، التي أزاحتها بسرعة وقامت. خلعت جلباب النّوم وألقت به على الأرض في ركن الحمّام. أخذت دشًّا ساخنًا. جفّفت نفسها بسرعة وعلّقت المنشفة خلف الباب. ارتدت بلوزة قرمزيّة اللّون، وجوبه سوداء، وحذاءً متينًا. حملت معها حقيبتها الصغيرة وهبطت على السّلالم ببطء. في كلّ خطوة كان يهيأ لها أنّها تسمع خطواته، أو أنفاسه، فكادت أن تعود. عندما وصلت أسفل العمارة انطلقت من الباب الحديديّ بوثبة سريعة وأخذت تجري في الشارع الخالي من النّاس.

استقلّت الأوتوبيس الصحراويّ من محطّة الرّمل. لمحت العمّال في محلّ «دنيس» يفتحون النوافذ المطلّة على الميدان ويزيلون عنها التراب بفوطة صفراء. توقّف أحدهم لحظة طويلة وأخذ يحملق ناحيتها وهي جالسة في الأوتوبيس، فأحسّت بالخوف دون أن تعرف لماذا. لكن بعد قليل أسلمت نفسها لحركة العجلات تعلو وتهبط فوق الطريق، وللمناظر تتلقّفها من بين جفونها نصف المغلقة، من دون أن تسجّل في ذهنها شيئًا ممّا يمرّ إلى جوارها.

تنبّهت عند مداخل الجيزة إلى الهرم الأكبر يتربّع فوق الهضبة الرّمليّة. بدت لها الحياة ثقيلة، ينسحق تحتها الإنسان. في خيالها ترى بحرًا رماديّ اللّون يحيط بها من كلّ جانب، وهي تجتازه وحدها سائرة في مسافات تبدو بلا نهاية. وفي لحظة تتخيّله وهو يعود إليها. يدخل إلى حجرة النّوم، ويجلس على المقعد. يخلع حذاءه، ويضعه تحت السّرير. يرتدي خفًّا ويذهب إلى المطبخ ويأخذ في تنظيف

موقد الغاز الذي انسدّت بعض عيونه. أو ترى نفسها صغيرة جالسة معه على المنضدة، وهما يأكلان الباذنجان، والفلفل الرّوميّ، أو وهي تعرض عليه الدفتر الذي ترسم فيه الرقصات، أو واقفة إلى جواره في ميدان «الكونكورد» بعد أن وصلا في أوّل زيارة لهما إلى باريس. . أو تسمع خطواته الحافية فوق البلاط، وصوته يدندن أغنية قديمة «لعبد الوهاب».

وصلت إلى العمارة أمام حديقة الأورمان. همّت بدخول المصعد، ثمّ تراجعت وذهبت لتفتح صندوق البريد. وجدت عددًا من المظاريف فحصتها بسرعة. دقّ قلبها. هذا هو خطّه على مظروف أصفر صغير. فتحته بأصابع عرقلها الارتعاش. في الداخل ورقة واحدة مطويّة سطّر عليها بعض الكلمات:

«حبيبتي. الحلّ الوحيد هو أن أختفي من حياتك حتّى تطيري إلى أبعد الآفاق» ـ «يسري»

*

الجزء الثالث

(١٢)

تسرّب النهار بضوئه الشاحب من شقوق الشيش. أحسّ به يخترق جفونه فانقلب ناحية الجدار. صرخت سرية البوليس في الضاحية الصامتة. ظلّ ساكنًا مغلقًا جفونه على أمل أن يأتيه النّوم من جديد، لكنّ الألم الذي أصبح يعاني منه في الشهور الأخيرة أخذ يشتدّ عليه.

بالأمس ذهب إلى مستشفى «الحداثة» لإجراء بعض الفحوصات تحت إشراف طبيب معروف متخصّص في المسالك البوليّة. طلب منه أن يرقد على سرير الكشف وأخذ يحرّك عمودًا قصيرًا على بطنه ويتابع ما يظهر على شاشة الجهاز الموجود أمامه. سمع صوت الطبيب يتردّد في أذنيه برنين معدنيّ بارد.

«عندك تضخّم في غدّة البروستات. لكنّي أرى أنّك لست في حاجة إلى عمليّة الآن. سأكتب لك بعض الأدوية، وأشير عليك بتحليل يجب إجراؤه كلّ ستّة شهور قبل الفحص الدوريّ للبروستات».

تنبّه إلى أنّ الجزء الأسفل من جسمه ما زال عاريًا فرفع سرواله وبنطاله، وأغلق السوستة بحركة سريعة ثمّ قام وربط الحزام قبل أن يدسّ قدميه في الحذاء. لمح عوينات الطبيب تلمع في الضوء الكهربيّ. إطارها من الصلب الرّفيع، ونّني العين الذي يحملق فيه من وراء زجاجها في لون الرّصاص الداكن. أحسّ بقشعريرة. على الجدار صورة امرأة شابّة ترتدي لباس البحر وسرّتها عارية تعلن عن

عقار الفياغرا. وأعلاها لافتة إطارها مذهّب وبطانتها من الساتان الأبيض كتبت عليها كلمة الله جلّ جلاله بدوائر من الترتر الأسود.

قام من السرير مزيحًا الغطاء الصوفيّ الناعم. التقط جريدة الأهرام الموضوعة قرب مدخل الصالة على رفّ الشمّاعة وتوجّه إلى الحمّام. جلس على المرحاض يقرأ أرقام سوق المال، وأسعار العملات ثمّ انتقل إلى أخبار الرئاسة. دعك أسنانه وغسل وجهه بماء من صنبور المياه البارد. حرص على هذه العادة منذ أن سمع أنّ المياه الباردة تؤخّر زحف التجاعيد. مشّط شعره في المرآة، وارتدى الرّوب ثمّ توجّه إلى حجرة المعيشة. فتح النّافذة وخرج إلى الشرفة الواسعة المطلّة على نادي الجزيرة. كان الجوّ صافيًا، وزهور الرّبيع تلمع فوق قطرات الندى. وقف يستنشق هواء الصباح ثمّ عاد إلى حجرة المعيشة، وأخذ يقلّب في بعض الأوراق ثمّ جمعها في ملفّ ووضعها في الحقيبة الجلديّة مع نظّارة الشمس والمفكّرة وبعض الأوراق الأخرى.

كانت السّاعة تقترب من الثامنة والنصف عندما خرج من باب العمارة. فتح السائق باب السيّارة. لمح الوجه الأسمر الجامد يطلّ عليه من أسفل الكاب الكحليّ المطرّز بشارة المركز في شكل زهرة اللّوتس. فوق الأذنين شاب شعره الأكرت. خطر في باله أنّ الزمن يجري. إنّه ضاق بالعمل المتواصل. تردّد لحظة، ثمّ قال:

«لن أركب معك اليوم يا «جابر». اذهب إلى المكتب وأبلغ «عبير» أنّني لن أحضر اليوم، وأن تلغي جميع مواعيدي. سأذهب إلى النادي. يمكنها الاتّصال بي هناك إذا رأت أنّ هناك ضرورة لذلك».

سار فوق الرَّصيف تحت الأشجار العالية. لمح شاحنات العسكر

تقف في صفّ قرب المبنى الضخم للسفارة. دخل النادي مخترقًا الباب الجانبي الصغير. انتفض حارس الأمن واقفًا كأنّه فوجئ به سائرًا على قدميه. حيّاه رافعًا يده للحاجب في ذبذبة عسكريّة سكنت بعد لحظات.

اختار منضدة جزء منها في الشمس، وجزء في الظل، تطلّ على المساحة الخضراء لملاعب «الكروكيه». مدّ ساقيه أمامه وأخذ يتأمّل تحرّكات البستاني العجوز ووجهه الأسمر المتغضّن تحت العمّة الكبيرة وهو يميل على حوض من زهور القرنفل. حمل إليه النسيم رائحة الروث مختلطة بعطر الزهور كلّما قلب الرّجل التراب بسكّينه.

سمع صوت امرأة يتردّد إلى جواره:

«أرجو المعذرة. هل أجد عندك قدّاحة، أو كبريتاً؟»

التفت. صدمه بريق عينيها. اختطفه قبل أن يفيق من تأمّلاته، أو ينطق بشيء. لمح الرّعشة في فتحتي الأنف الحادّ البارز. انجذب إليها، واحتاط منها. قال لنفسه «سريعة الانفعال، حسّاسة». تحرّك في أعماقه الأمل، وانتابه إحساس غامض بأنّ هناك سبيلاً للإفلات من الرتابة. ألوان الحديقة تبدّلت. أصبحت زاهية. ورائحة الرّوث اختفت وكذلك شاحنات العسكر الذين يطلّون من أعلى الجدار وفي عيونهم شبق. بقيت هي وحدها تنظر إليه، في عينيها البريق الذي اختطفه، وبين شفتيها السيجارة المطفأة.

لم يكن معه قدّاحة أو كبريت. كان قد أقلع عن التدخين منذ سنة، فأحسّ بالندم. قرأت في وجهه التردّد إزاء طلبها. فهزّت كتفيها وقالت:

«لا تبال. لا أدخّن إلاّ نادراً».

قال:

«سأبحث لك عن كبريت».

تلفّت حوله باحثاً عن النادل الذي لم يكن ظهر في هذا الوقت المبكر وليس في النادي إلاّ مجموعة من الرّجال كبار السنّ ساروا فوق الممرّ، يمارسون رياضة الصباح ويتحادثون بأصوات عالية حول التعديل الوزاريّ المرتقب. سمع أحدهم يقول: «أنا كنت في نيويورك منذ أسبوع. كان «علي عرفان» هناك، واستدعوه على عجل، وأنتم تعرفون أنّه متّصل.. قال لي إنّ مسألة التعديل نوقشت لكنّها لم تحسم».

سار في اتّجاه مبنى الإدارة. رأى أحد حرّاس الأمن واقفًا في الشمس قرب المطعم، فسأله وكان أن أخرج من جيبه علبة كبريت قائلاً:

«إبقها معك يا سعادة البك. معي علبة ثانية».

عاد أدراجه وقد دبّ فيه النشاط. أحسّت بخطوات تقترب فرفعت رأسها. في وجهه جدّيّة من أرسل في مهمّة صعبة نجح في القيام بها. بين أصابعه علبة كبريت صفراء اللّون طبعت عليها نجمة حمراء، ومفتاح أسود. تسمّرت عليها نظراتها لحظة وهو يستخرج منها عود ثقاب ويشعله بحركة مدرّبة. شكرته وعادت إلى فروخ الورق الأبيض الكبير الموضوع أمامها فوق مفرش المنضدة. أمسكت بقلم الرّصاص في يدها اليسرى وأخذت ترسم عليه خطوطًا سريعة. عاد إلى جلسته والتفت بعيدًا حتى لا تشعر أنّه يريد أن يقحم نفسه عليها. ظلّ يتتبّعها من ركن عينيه. لمح على فرخ الورق ما يوحي بامرأتين في وضع راقص. تشابكت أيديهما كأنّهما يتشاجران، بينما توقّف على بعد

منهما رجل وعلى وجهه ابتسامة متعالية.

ظلّت مستغرقة فيما تفعل. توقّفت سحب الدخان من التحليق حول رأسها. وبعد قليل نحّت فرخ الورق جانبًا والتفتت إلى غيره. لكن قبل أن تفعل به شيئًا رفعت رأسها وتفقّدت ما يدور حولها. أمسكت بعلبة السجائر وضعتها على المنضدة إلى جوارها. سمعته يقول في نبرة ضاحكة:

«كبريت؟»

التفتت إليه. ضحكت ضحكة صغيرة فيها خجل، ونظرت في وجهه. عيناه تبدوان سوداوين أو بنيّتين بحسب ظلال الشجر، التي تتحرّك أعلى رأسه لتحجب الشمس أو تتركها تتسلّل من بين الفروع. على شفتيه ابتسامة مراوغة جعلتها تتساءل. أخرجت سيجارة من العلبة، وقالت:

««عندي رغبة للتدخين اليوم».

وضعت السيجارة في فمها فقام واتّجه ناحيتها. سمعت صوت احتكاك، وانبثق اللهب محميًّا بين يديه. مالت نحوه فسقط شعرها على وجهها زحفت عليه خطوط الشَّيب ولمع في ثناياه بريق. أزاحته بحركة من رأسها وأخذت نَفَسًا أطلقت دخانه. جاءته رائحة جسمها بلا عطر. رائحة مميّزة خاصّة بها أثارت فيه رعشة من الشبق. زاد شوقه لاكتشافها. شوق غريب فيه إحساس بالخطر. انتصب في المقعد الذي احتلّه إلى جوارها. أنزل ساقه من فوق الساق وثبّت قدميه على الأرض كأنّه قرّر أن ينصرف. لكنّه في تلك اللّحظة لمح اللّهب الصغير احتلّ ننيّ العين الأسود. استغرق فيه فنسي قراره. ثم انتبه إلى

شيء آخر. إلى الطريقة التي ترفع بها رأسها عندما تنظر في وجهه.

«يبدو لي كأنّني رأيتك من قبل. هل لي أن أسألك ما الذي تفعلينه في الحياة؟»

لمحت طرف السيف يطلّ من غمده منذرًا بألاّ تقترب منه. لكن كان بينها وبين الصدف عشق قديم فلم تتردّد. أليست الصدف هي التي فتحت الباب لها في حياتها؟ لمحته وهو يتأمّلها بنظرات فيها إعجاب، إعجاب فيه دربة من عرف النساء منذ زمن، ويثير فيها إحساسًا بالرضا عن نفسها. لا تخشى شيئًا. الربيع أتى ومعه جاءت رغبات لم تعد تمارسها منذ زمن. لكن هذا الفم، والابتسامة التي تعلو شفتيه بين الحين والآخر تثيران فيها الحرص.

سقطت أشعّة الشمس عليهما من بين أوراق الشجر. رفع يده ليحمي عينيه من ضوئها القويّ. لمحت التجاعيد التي أخذت تتزاحم حولها. ربّما تجاوز سنّ الستين منذ زمن. لكن الزمن يضعف الجسد وينضج التجربة. ثم ما هي هذه الفحولة التي كثيرًا ما يتشدّق بها الرجل. القلب والجسد شيء واحد والحبّ ليس إلاّ لمسات فيها دفء. وأصابعه توحي بأنّها مارست العمل اليدويّ، وبأنّ النعومة الظاهرة فيها جاءته متأخّرة كأنّ حياته سارت في طريق ثم تبدّلت. ترى هل ترمز هذه التغيّرات إلى نوع الرجل؟ هل هي نعومة من فقد أشواكه وتصالح مع ما يدور من حوله. عقلها أصبح يجادل قلبها في كلّ موقف. لماذا أثار فضولها ولماذا أثار كلّ هذا الحذر؟ فتحت حقيبتها وأسقطت فيها القلم ثم جمعت أوراقها، وهي تفكّر في الخطوة القادمة. هل تردّ عليه وتواصل الحوار، أم تنصرف لحالها.

احتار إزاء صمتها، ولكي يخفي حيرته انشغل بمطاردة نحلة أخذت تدور حول رأسه. أحسّ بالحرج. نظر إلى ساعته وقال:

«خذي علبة الكبريت هذه فلا بدّ أن أنصرف لأذهب إلى مكتبي. الساعة قاربت العاشرة».

مدّ يده بعلبة الكبريت تبرز من بين أصابعه صفراء اللّون وعليها مفتاح أسود. تسمّرت عليها نظراتها. وفي لحظة سريعة رأت حياتها كلّها. أغلقت جفونها كأنّها شعرت بالتعب. لمح رعشة خفيفة تجتاز جسمها. سألها:

«مالك؟ أرجو ألاّ أكون ضايقتك في شيء».

قالت:

«لا . . . أشعر بدوار بسيط. هبطت من المنزل مبكرًا. كنت مشغولة بفكرة واكتشفت الآن أنّني لم أتناول طعامًا منذ الأمس. ربّما لو شربت كوبًا من الشاي وأكلت شيئًا! . . .»

التفت حوله. أشار إلى النادل الجالس على مسافة منهما تحت خصّ مغطّى بزهور الجهنّميّة الحمراء، فقام، وجاءهما مسرعًا.

«نعم، يا سعادة الباشا».

«نظر إليها قائلاً:

«ماذا تريدين؟»

«شاي بدون سكّر، أو لبن، ساندويتش خبز محمّص بالجبن الروميّ».

«وأنا! . . أعطني قدحًا من القهوة على الريحة».

انتظر حتّى رشفت من الشاي، وأخذت قضمتين من الساندويتش، ثم قال:

«لم تجيبيني على سؤالي. ماذا تفعلين في الحياة؟»

ظلّت صامتة للحظات. أطلّ عليهما غراب من فوق الشجر. عيناه الصغيرتان الماكرتان فيهما بريق ساحر. أحسّ بالضيق. ابتسم ليخفي ضيقه. لم تعجبها ابتسامته. أحسّت فيها بالزيف كأنّه تعوّد الابتسام ليخفي شيئًا.

سألته:

«لماذا تبتسم؟»

«يبدو أنّك تتهرّبين من السؤال».

«أنا... أتهرّب؟... ولماذا؟ لم أتعوّد التهرّب من شيء. لست مثلك».

بدا عليه أنّه فوجئ بكلامها. علت ضحكتها برنين متعدّد الطبقات كالموسيقى التي تعلو وتهبط.

قالت:

«ألست صاحب تجربة؟ حاول أن تعرف وحدك!»

«مغنّية، أو عازفة كمان، أو عود. شيء يتعلّق بالموسيقى».

«صاحب تجربة صحيح. لم تبعد كثيرًا عن الحقيقة. أنا رئيسة فرقة رقص توقيعي حديث».

قال:

«تذكّرت. رأيت صورتك في «النيوزويك»».

«لا. لم تظهر في «النيوزويك». أمثال هؤلاء لا يحبّون فنّي».

«لماذا؟»

رفعت كتفيها، كأنّ الأمر لا يهمّها.

«لهم ناسهم».
«لكنّك مشهورة. أليس كذلك؟»

لم تعلّق. فاستطرد:
«هل ترقصين في الأوبرا؟»
«لا. لا يحبّ المسؤولون عن الأوبرا نوع الرقصات التي أقوم بتصميمها».
«لماذا؟»
«لأنّها تعبّر عمّا يريدون إخفاءه».
«آه.. الآن عرفت. أذاعوا عن فرقتك فيلمًا في القناة الرابعة للتليفزيون البريطاني».

قالت بسرعة:
«وأنت ماذا تفعل؟»
«أنا رئيس مؤسّسة أبو الهول للصحافة والنشر».

لم يبد عليها أنّها سمعت عنه. فأحسّ بشيء من الضيق. إنّها امرأة جميلة لكنّها ليست مثل الأخريات. يشعر أنّها قويّة، وفيها أشواك. سئم الفراشات اللاّتي تنجذبن نحوه. تعامله بعدم اكتراث. ونظراتها نافذة. فيشعر بشيء من الارتباك إزاءها. تعود به إلى سنين مضت حاول أن يدفنها. لمحها وهي تتفحّصه في فضول. على خدّها حسنة كالنجمة الوحيدة تدور في فلك فمها الممتلئ.

وقف على قدميه، وقال:
«الآن لا بدّ أن أنصرف. ولكن أمل أن نلتقي مرّة ثانية. سأتناول إفطاري هنا في الغد باكرًا. إذا أردت يمكن أن نلتقي. لن أطلب منك

رقم تليفونك».

توجّه نحو الباب، وبعد أن ابتعد عنها مسافة استدار ولوّح بيده قبل أن يستأنف طريقه.

ظلّت جالسة حيث هي دون حركة كأنّها سرحت في المساحات الخضراء الممتدّة أمامها. تهادت إليها أصوات رجال ونساء جلسوا في دائرة على بعد خطوتين كانوا يتحدّثون ويضحكون بأصوات عالية. سمعت صوتًا نسائيًا يقول:

«نعم هو بالتأكيد. لا يمكن أن أخطئه. إنّه لم يحضر إلى النادي منذ سنين. له جلساته الخاصّة التي لا يحضرها إلاّ الخلصاء جدًّا». وتلا الصوت ضحكة ممطوطة ثم امرأة أخرى تسأل:

«ترى.. من هي!». ثم لم تسمع باقي الكلام، فالأصوات انخفضت فجأة.

فتحت حقيبتها، وأخرجت القلم. بسطت فرخًا كبيرًا من الورق. اصطدمت يدها بعلبة الكبريت التي تركها لها. حملقت فيها طويلاً.. صفراء اللون، طبع عليها نجم أحمر، ومفتاح أسود كبير.

(١٣)

أصبحا يلتقيان كلّ يوم جمعة بعيدًا عن النادي. كان يريد أن يتفادى العيون المستطلعة ترمقهما من طرف خفيّ. اقترح عليها أن يلتقيا في أماكن متفرّقة على أطراف المدينة بعيدًا عن ضوضائها وعن كتل الحجر والإسمنت. كانت تحبّ المساحات الخضراء فوافقت على ما عرضه عليها. شيء لم تعرف كنهه كان يدفعها إلى الاقتراب من هذا الرجل. كان لديها الإحساس بأنّ الجنس لم يكن الدافع الذي يحرّك اهتمامه. حتّى إذا كان عنصرًا يحرّكه. وهي كذلك كانت تبحث عن معرفة شيء تحرّك فيها كالغريزة الغامضة لم تصعد إلى مراتب الوعي.

سألها عن اسمها فقالت اسمي «عزّة» وتوقّفت، فقطّب جبينه، وصمت. لم يسألها أين تسكن، ولم يسألها عن أهلها. ولمّا سألته قال اسمي «إبراهيم»، وابتسم تلك الابتسامة المراوغة التي تعوّدت أن تراها على شفتيه عندما يتكلّم عن نفسه. لم تسأل شيئًا آخر، ولم تلمح من بعيد أو قريب إلى الدبلة التي كان يرتديها على البنصر الأيسر، وينتفض وميضها في الشمس أو تحت المصباح الخافت المنتصب فوق منضدة المطعم.

لم يتعدّ التعارف بينهما هذا التبادل للاسمين. انتقلا بعده إلى الحديث الذي بدأ بينهما في اللقاء الأوّل، ولم ينقطع مع مرور الأيّام. لكن لمّا نطقت اسمها كرّره بصوت منخفض كأنّه معجب به، أو كأنّه

ذو صدى في نفسه. لمحت ظلاً سريعًا في عينيه اختفى بعد لحظة. ثم أصبحت هي تنطق اسمه بطريقة خاصّة فيها ألفة، وكأنّه ذو صدى هو أيضًا في نفسها. تملّكها الشعور بأنّ علاقتهما ليست جديدة رغم أنّ اللقاء بينهما لم يتمّ من قبل.

لم يندهشا إزاء هذا الإحساس، فهو شيء يحدث في الحياة، وإن كان نادرًا. لم يحتاجا إلى الخوض في التفاصيل التي يهتمّ بها الناس عادة مثل عائلة كلّ منهما، أو ما إذا كانا متزوّجين أم لا، أو الأقارب، أو نوع السيّارات التي يحبّانها، أو الصداقة التي تربط كلاًّ منهما بالشلل الحاكمة. كانت كلّ هذه الأشياء جزءًا من حياته، ولكنّه هذه المرّة لم يكن مهتمًّا بها كأنّها أيقظت فيه أشياء أخرى. كأنّه كان يريد أن يتخلّص منها ولو مؤقّتًا ليحيا في هذه العلاقة التي أعادته إلى زمن كان يحنّ إليه، إلى حياة غير حياته.

كانا يتحدّثان عن الرقصات الجديدة التي تفكّر في تصميمها. عن الحياة والأقنعة التي يختفي الناس من خلفها، عن الطفولة وأحلامها، عن الرغبات الحقيقيّة التي يدفنونها في أغوارهم.

❊

كان مكتبه في الدور العاشر من المؤسّسة، يطلّ على فندق «الامبراطور». يذهب إلى العمل كلّ يوم في الساعة التاسعة إلاّ ربعًا. يجلس خلف مكتبه ويضغط على زرٍّ أحمر مثبّت في حزامه فتدخل عليه سكرتيرته في الساعة التاسعة، ويبدأ نشاطه. كان يمكن ضبط الساعة على تحرّكاته. لكن بالتدريج زحفت الفوضى إلى مواعيده ولاحظ عليه الموظّفون أنّه أصبح يترك مكتبه مبكرًا، ولا يعود في

المساء كما تعوّد أن يفعل.

في أحد أيّام الخريف دخلت عليه سكرتيرته. نقرت على الباب بخفّة ثم فتحته. كان يجلس خلف المكتب وعيناه مثبّتتان على الجدار أمامه. لم يسمع نقرها ففوجئ بها أمامه وهي تصوّب إليه نظرات متسائلة من بين رموشها المثقلة بالماسكرا. كانت تحمل علبة سيجار وضعتها فوق المكتب ثم مالت عليه تعيد ترتيب الأشياء فوقه كأنّما تعيد ترتيب أشياء في بيتها. كانت ترتدي بلوزة خفيفة تكشف عن صدرها. لمح مقلتيها كالمياه الخضراء الساكنة، وجاء عطرها النفّاذ، فعطس. أخرج منديلاً من الورق وعطس فيه عدّة مرّات، ثم قال:

«أخشى عليك من الأنفلونزا في هذا الجوّ المتقلّب. الأفضل أن ترتدي ملابس أثقل من البلوزة الرفيعة التي ترتدينها».

ابتسمت كاشفةً عن صفٍّ من الأسنان البيضاء اللاّمعة، وقالت:

«أنا مواظبة على «السونا»، وهي تمنحني مناعة كاملة. أنصحك بأن تجرّبها. بفضلها أستطيع أن أتجوّل عارية دون أن أُصاب بشيء».

قاطعها قبل أن تسترسل:

«ما هي مواعيد اليوم؟»

فتحت مفكّرة صغيرة كانت تضعها في جيب الجوبة.

«أبلغت أعضاء اللجنة الاستشاريّة بأنّك تريد تأجيل اجتماعها إلى الأسبوع القادم. لكن لديك موعدًا لتناول طعام الغداء مع رئيس مجلس إدارة شركة «مورجان ريتشموند» للتوثيق العلميّ. قمت بحجز مائدة في المطعم الإيطاليّ بفندق «شيراتون» الجزيرة. وفي الساعة التاسعة مساءً ستصل طائرة مدام «نهاد».

وقفت تحملق فيه بنظرة مستطلعة كأنّها تنتظر شيئًا. لمح مقلتيها كالزجاج الملوّن كأنّها ترتدي عدسات لاصقة. قال «شكرًا يا عبير» وصمت، فاستدارت وسارت نحو الباب. قرأ شيئًا كالاحتجاج الصّامت في ظهرها، وفي الاهتزاز المتوتّر لردفيها، واستنشق دفعة قويّة من عطرها ألقت بها ناحيته قبل أن تنصرف. أخرج منديلاً ثانيًا من الورق مسح به على أنفه وشفتيه، وقام إلى الحمّام وهو يعطس من جديد عطسات متتالية. لا بدّ أن يطلب منها التوقّف عن استخدام هذا العطر الذي يسبّب له حساسية. وقف أمام المرحاض يبول. أخذ يفحص عضوه باهتمام كأنّه يطمئنّ على حاله. أغلق سوستة البنطال، وتطلّع في ملامحه في المرآة المعلّقة على الحوض. بدت متعبة في الضوء الباهر للمصباح. هذه المرآة تظهر تجاعيده. سيطلب من «عبير» تغييرها. لم يعد يشعر بأيّ رغبة في العمل. ما الذي جرى له. لو كان يستطيع تأجيل الموعد مع «الخواجة» أو حتّى إلغاءه. لكنّ الجلسة بينهما اليوم ستكون حاسمة.

عاد إلى حجرة المكتب. وقف أمام الواجهة الزجاجيّة العريضة، يطلّ على المدينة تمتدّ تحت بصره. وصل إلى أعلى المراتب، إلى ما لا يصل إليه إلاّ القليلون. أصبح من النخبة المحدودة العدد. لكنّ المدينة تبدو له باهتة، كتلاً من الطوب والحجر والإسمنت. هنا وهناك شجرة أو مساحة خضراء صغيرة تصارع هذا الزحف المصمت. على أسطح المنازل بقايا أثاث، أو علب، أو أكوام من أشياء مهملة ألقيت فوقها، أو ملابس معلّقة على حبال تضفي بعض ألوان الحياة على المدينة التي خنقوا أنفاسها. في الماضي عندما كان يطلّ عليها من أعلى كان يتملّكه إحساس بالزهوّ، لكن الآن تبدّد الزهوّ.

ترك النافذة، وجلس على الكنبة المصنوعة من الجلد الطريّ. الكنبة في مكتب «نهاد» أكثر صلابة منها. في يوم من الأيّام كان يحبّ الجلوس عليها، لكنّه الآن يفضّل هذه الكنبة عليها. أصبحت غرفته الدور العاشر. غرفة ضخمة تكاد تحتلّ الدور كلّه. هبطت هي للدور الثامن. سنّة الحياة.. لا تكفّ الأشياء فيها عن التغيّر. ترى ماذا فعلت في رحلتها إلى «باريس»؟ لم يعد يهمّه أمرها كثيرًا. الأشياء ساءت بينهما في السنين الماضية. ما الذي كانت تنتظره منه؟ أن يظلّ مرؤوسًا لها بعد أن لهث وراءه، واستخدمت أنوثتها لتجذبه إليها. أرادت أن تستغلّ قدراته، وكان من الطبيعي أن يرفض وضع التابع، أن يسعى إلى ما كان يصبو إليه. إذا جاءته فرصته عن طريق امرأة ما المانع. كلّ منّا ينال ما يستحقّه.

في ذلك اليوم طلبته سكرتيرته الخاصّة على التليفون، فصعد إليها حاملاً الأوراق الخاصّة بالموضوع الذي أرادت أن يعرضه عليها. عندما دخل من باب مكتبها لم ترفع رأسها. ظلّت تقرأ في الملفّ الموضوع أمامها. جلس على الكنبة، وأخذ يتأمّلها. بدا عليها الإرهاق كأنّها سهرت إلى ساعة متأخّرة من الليل. شعرها الأشقر مضموم حول رأسها كاشفًا عن عنقها المنحوت مثل عمود من الرخام. ملامحها النحيلة تنمّ عن زهد تنفيه شفتاها الممتلئتان، وعيناها يطلّ منهما شبق كسول.

عندما انتهت رفعت رأسها، والتفتت إليه قائلة:

«هات الأوراق التي معك يا «إبراهيم»».

قام من على الكنبة ووقف إلى جوارها. مدّ يده بالملفّ الذي كان

يحمله، فمسّت ذراعها العارية الممدودة فوق المكتب. أشّرت على بعض الأوراق بما تريده دون أن تعلّق عليها. ثم سألته عن المشروع الخاص بإصدار مجلّة للأطفال. انهمكا في الكلام، وبعد أن مرَّ بعض الوقت نظرت إلى ساعتها وانتفضت واقفة، قائلة:

«لا بدّ أن أنصرف».

أسرعت خارجة من حجرتها إلى المصعد فتبعها وهبط معها حتّى الدور الأرضيّ ليكمل معها الحديث الذي بدآه.. ثم سارا معًا حتّى سيّارتها التي أوقفها السائق قرب الباب الخاصّ التي تعوّدت أن تخرج منه. سألها متى ستأتي في الصباح ليستكملا النقاش. ظلّت صامتة كأنّها لم تسمعه. نادت على السائق وصرفته قائلة إنّها ستقود السيّارة بنفسها، ثم فتحت باب السيّارة، وجلست خلف عجلة القيادة. رفعت عينيها إليه. قالت في صوت اضطربت نبراته:

«سأسافر إلى الإسكندريّة الآن. لماذا لا تأتي معي؟»

فوجئ. لم يتحرّك من مكانه، أو يردّ عليها. لمح في عينيها ظلاًّ من الحزن حلّ محلّه شيء آخر كالغضب القاتم. فتعكّرت فيهما الزرقة. توجّس ممّا رآه فيهما، فهي الآن الناهية الآمرة في المؤسّسة يمكنها أن ترفعه عاليًا، أو تهبط به حيث بدأ بالعمل. منذ أن مات زوجها أخذت بناصية الأمور بين يديها، ولم تسمح لأحد بأن يقترب منها. فما هي هذه الدعوة للسفر معها؟ لم يتعوّد على التعامل مع امرأة من نوعها.

أخرجت رأسها من النافذة وخاطبته قائلة:

«ما الذي تنتظره؟ اركب إلى جواري. أنا مستعجلة وليس عندي وقت».

نطقت الكلمات بصوت هامس فيه لسعة كالكرباج. فوجد نفسه جالسًا إلى جوارها، والسيّارة تنطلق بسرعة لتشقّ طريقها بين السيّارات. لم يعد إلى وعيه تمامًا إلاّ عندما وصلا إلى بداية طريق الإسكندريّة، أفاق على صوت السيّارة تنهب الإسفلت بهدير خافت. فبدأ ينظر حوله، ويتأمّل المزارع الخضراء والمباني التي بدت تنتشر على الجانبين فوق الرمل. وبالتدريج هدأ الاضطراب الذي أحسّ به عندما فاجأته. بدأ يشعر بشيء كالسكرة تستولي عليه، كأنّ السيّارة تطير به إلى حلم ينتظره عند آخر طريق الإسفلت الأسود، بينما تجلس إلى جواره هذه المرأة التي تبدو مثل إلَهة إغريقيّة من الرّخام، بعينيها الزرقاوين ودوران جسدها الأبيض.

هبطا من السيّارة أمام فندق «سيسيل». تركتها للمنادي ليركنها في الموقف المخصّص للسيّارات، وصعدت بخطوات سريعة حتّى الاستقبال، وهو إلى جوارها شاعرًا أنّه أصبح مسلوب الإرادة، وأنّ عليه أن يتركها تفعل ما تشاء. وجد نوعًا من اللذّة في هذا الاستسلام لمغامرة يمكن أن تقوده إلى عالم لم تطأه قدماه من قبل.

حجزت غرفتين تطلاّن على الميناء القديمة، وذهب هو يبتاع حقيبة وبعض الملابس. عاد إلى الفندق. صعد إلى حجرته ووضع الملابس في الدولاب. أخذ حمّامًا ساخنًا وارتدى قميصًا وبزّة وحذاءً جديدًا. كان يمشّط شعره في المرآة عندما دقّ جرس التليفون. قالت إنّها ستهبط إلى بهو الفندق بعد نصف ساعة حتّى يذهبا لتناول بعض الطعام، فهي لم تأكل منذ الصباح، والساعة قاربت الرابعة بعد الظهر.

تناولا غداءهما في مطعم يطلّ على البحر، على المساحات الزرقاء

التي لم يرها منذ أن غادر المدينة عائدًا إلى القاهرة، وفي ذهنه أنّه لن يعود إليها ثانية. وجبة من الأرزّ المطبوخ بالحيوانات البحريّة، وجنبري مشوي بالزيت والليمون، وسلاطات متنوّعة، وخبز ساخن خارج للتوّ من الفرن. شربا زجاجة من النبيذ الأبيض، قالت له إنّه من مقاطعة «بوردو» في فرنسا. ثم ختما غداءهما بطبقين من الفراولة والقشدة وكأسين صغيرين من الكونياك، وقدحين من القهوة، فأحسّ أنّ جميع مسام جسمه تفتّحت للحياة. إنّه يسبح كالسحابة في الفراغ، كأنّه جزء من الكون أو زورق في البحر يتهادى فوق الأمواج ببطء.

عادا إلى الفندق سائرين على الأقدام. لا يتذكّر الحديث الذي دار بينهما. لكنّه تذكّر أنّهما ضحكا كثيرًا، وأنّها كانت تميل عليه، وتلتصق به بين الحين والآخر، فيشعر بثديها، وتذكّر أنّها توقّفت فجأة عند إحدى النواصي، وقالت:

«لأوّل مرّة في حياتي أصبحت أشعر بالوحدة، وأخافها يا إبراهيم».

فلمّا سألها لماذا، هزّت كتفيها، واستأنفت سيرها دون أن تردّ عليه.

وصلا إلى الفندق وصعد كلٌّ منهما إلى غرفته. قالت له إنّها ستتّصل به بعد أن تأخذ قسطًا من الراحة. في الغرفة خلع ملابسه ورقد على السرير. حاول أن ينام دون جدوى. كان يحسّ بالتوتّر، بأشياء تنتظره.. أو بأنّ هذه الرحلة ربّما تكون مجرّد نزوة من جانبها سيعود كلٌّ منهما إلى وضعه. فالناس يقولون عنها إنّها غريبة الأطوار تعشق السيطرة على الرجال، والتلاعب بهم وفق مزاجها.

رقد على السرير يتأمّل السقف العالي المنقوش في منتصفه. هل

الصغيرة الملوّنة التي تصعد فيه بانفعال المتفرّج. تتفجّر عند سطحه مثل الرغبات أخذت تصعد في جسمه. مثل الخيالات المدفونة في الأوعية اخترقت الحدود الفاصلة لتجوب دون عوائق في ذهنه كأنّه أصبح في مدينة بعثت فيها. في خياله كائنات سحريّة.. خليط من الظلال الملوّنة والصور الغامضة اتّخذت أشكالاً غريبة أدهشته. كأنّها كانت مختزنة في أعماقه مدفونة في قمقم فتحته يد خفيّة.

يرتشف من كأسه، ومع كلّ رشفة يغمره مهرجان من الألوان والأشكال تشبه الرسوم المجرّدة لفنّان أطلق العنان لجنونه ولم يعد يكترث بما يقال عنه. وجوه الناس الجالسين في الصالة غامضة لا يرى منها إلاّ أجزاء صغيرة أو تفاصيل تتفرّق وتلتئم في أشكال متغيّرة. كأنّه في عالم خرافيّ مزدحم بالكائنات الغريبة الجذّابة، والمنفرة في آن واحد، فتتولّد عنده رغبة التوغّل فيه دون توقّف. كأنّه في رحلة ممتعة إلى اللاّمعقول، تسحبه إلى الهاوية التي لا يوجد بعدها شيء، كالموت ننجذب إليه في لحظة لنعرف ما لم نصل إليه في حياتنا.

لمح لسان امرأة يبرز من بين شفتيها الحمراوين ثم ينسحب مسرعًا مثل لسان سحلية تصطاد ذبابة في قيظ الظهيرة. مالت المرأة نحوه في حركة تنمّ عن السّكرة. ربّما هو الذبابة التي تسعى إلى اصطيادها. لمح أذنها التي ظهرت من تحت الشعر. بيضاء محفورة بدقّة يتدلّى منها قرط أخضر يشبه عين الحيّة تتفرّس في وجهه. على بعد خطوات نهدان يهتزّان على دقّات الطبول كأنّهما سيقعان من فتحة الثوب المشقوق حتّى السرّة، ينحني عليهما شارب أسود مبروم برز فجأة في ضوء الشمعة مثل العقرب يستعدّ لغرس أنيابه في اللحم. قام صاحبه وسار نحوه كأنّه أحسّ أنّه يتتبّعه فضاق به، وقرّر أن يلدغه حيث كان

يجلس فاستدار بعيدًا عنه. لكنّ الرجل انحنى بخطوات متعثّرة في اتّجاه دورة المياه واختفى خلف بابها المنزوي في ركن مظلم.

رقص معها المرّة بعد المرّة دون أن يشعر بالتعب كأنّه كان يرقص طول عمره. لم يكن يدرك كيف تتحرّك أجزاء جسمه أو قدماه وهي تخطو أو تقفز فوق المساحة الخشبيّة المربّعة التي كان ينتقل فوقها. رقص حتّى لم يعد يشعر بأيّ شيء سوى نشوة الحركة الحرّة لجسمه، الذي ظلّ مسجونًا كل تلك السنوات في مقعد المكتب، وإحساسه بأن لا أحد يراقب حركاته المنطلقة في المساحة المعتمة التي لا تضيئها سوى ومضات ملوّنة لا تظهر أكثر من أنف، أو يد، أو جزء من ساق عارية تطلّ من الثوب في لحظة. انهمك الرّاقصون والرّاقصات في الحركة المنفلتة المجنونة لأجسادهم مثل الزار الذي يلجأ إليه العوام لمطاردة الأرواح الشرّيرة والعفاريت من حياتهم.

حوله كانت تتمايل الأجسام، تصطدم به، تبتعد عنه ثم تصطدم به من جديد لتدفعه نحوها. فجسمها هي هو القريب، يتبعه أينما ذهب، منجذبًا إليه. جسمها هي هو العالم الذي يتحرّك معه يأتي إليه أو ينفصل عنه في حركة من القبول أو الرفض لا تنتهي. يبثّ فيه شوقه متوتّرًا. فيدور حوله كالعنكبوت يغزل نسيج إغرائه ليقضي على آخر نبضات التردّد. يخاطبه بلغة فيستسلم.

عندما تشعر بالتعب تهمس في أذنه. يشعر برعشة شفتيها قرب رأسه. يعودان إلى مائدتهما في الركن. تضع ذراعها حوله وتسند رأسها على كتفه. ثم بعد قليل يعودان إلى الحلبة. يشقّان طريقهما بصعوبة وسط الزحام. يضع ذراعه حول خصرها ويتحرّكان في رقصة

بطيئة كأنّهما جسم واحد. يتلمّس الرعشة الدافئة تحت ثوبها، ويتجاهل تلك العين الباردة في رأسه التي تراقب ما يحدث.

عادا خلال الممرّ الطويل إلى الشارع. لمح السيّارة الرماديّة اللّون قابعة في الموقف فارتعش. أحسّ كأنّ الموت ينتظره في الجسم الطويل المدرّع. سألته:

«أتشعر بالبرد؟»

قال: «نعم».

فتحت الباب وجلست خلف عجلة القيادة، وأخذ مكانه إلى جوارها. ظلّت ساكنة كأنّها لم تقرّر إلى أين تريد أن تذهب. مالت على جانب وأبعدت ساقها من على المقعد. مدّت يدها تحت ثوبها وشدّت على شيء. ثم مالت على الجانب الثاني، وقامت بالحركة نفسها ثم هبطت بالسروال من حول جسمها. أمسكت بيده وقادتها حتّى أسفل بطنها. أحسّ بنعومة جلدها تحت أصابعه، وشعر العانة يلمس أطرافها. همست:

«منذ الآن وصاعدًا سأدفئك بحبّي».

انطلقت السيّارة في سباق مجنون كأنّها اتّخذت قرارًا للمستقبل، وتريد أن تضع بينها وبين الماضي أكبر مسافة يمكنها قطعها. عيناه تحملقان في شريط الإسفلت الأسود الذي بلّله الندى ورذاذ البحر، فلمع بوميض خافت في ضوء الفجر. يسمع همهمة المحرّك ودقّات قلبه تنبض في أذنيه، ويلمح الشريان ينتفض في عنقها. على جانب الطريق بعيدًا عن البحر يتحرّك حرّاس الأمن الذين يبدون كالأشباح المتوارية في أبواب البيوت والعمارات، وهم يحرّكون أقدامهم، أو

يمدّون أيديهم إلى راكية نار أشعلوها لتدفئة أجسامهم. على الجانب الآخر تتسابق الأمواج نحو الشاطئ فوق بحر رماديّ اللّون، فعاودته الرعشة ثم هبّت الريح فجأة وانشقّت السحب لتسطع الشمس في مساحة من الفضاء الأزرق.

توقّفت أمام الباب الحديديّ لإحدى «الفِلَل». صعد معها إلى الدور الثاني سائرًا وراءها. وجد نفسه في حجرة نوم فسيحة الأرجاء. لم تنتظر. خلعت ملابسها ورقدت على الأرض فوق غطاء من الصوف أخرجته من الدولاب. توجّه إلى النافذة وفتحها فسقطت أشعّة الشمس الأولى على جسمها، فخلع ملابسه وأسقط نفسه إلى جوارها.

كانت الساعة قد تعدّت منتصف النهار عندما تركته يفلت من بين أحضانها. أطلّ من النافذة على السماء الزرقاء، وعلى شجرة عالية كانت تميل بأغصانها فتتحرّك ظلالها. على مسافة منهما لمح فتاة تنشر الغسيل على شرفة البيت المجاور. أخذت ترمقهما بنظرة متلصّصة مستطلعة من تحت الحجاب الملفوف حول رأسها. أدركت أنّه تنبّه إليها فأخفت نفسها خلف غطاء السرير الذي علّقته على حبل الغسيل. التقط نظرة خاطفة في عينيها قبل أن يختفي وجهها، مزيجًا من الخوف، والفضول والشبق. انقلب على جانبه موليًا ظهره إليها ورفع غطاءً فوق جسمه العاري. تأمّل المرأة الراقدة إلى جواره.. يرتفع صدرها ويهبط بحركة بطيئة. شعرها الذهبيّ مبعثر فوق الوسادة وعلى وجهها شيء كالرضاء الهادئ، كأنّها حقّقت ما كانت تسعى إليه. تملّكه إحساس بالضيق وبأنّه لن يوجد في حياته بعد الآن شيء سيدخل على قلبه الدفء.

(١٤)

ضغط على مفتاح الأنتركوم فجاءه صوت السكرتيرة تردّ عليه بلهفة من طال انتظارها. قالت:

«نعم يا دكتور».

احتفظت براء الدكتور في فمها لحظة طويلة، كأنّها تستعذب طعمها قبل أن تطلقها من بين شفتيها.

«سأذهب إلى فندق «شيراتون الجزيرة» الآن! اطلبي من السائق أن ينتظرني بالسيّارة «الهوندا» عند الباب بعد خمس دقائق».

كانت الشوارع مزدحمة فزحفت السيّارة خلالها ببطء. وجه «الخواجة» الكشر يتراءى أمامه فازداد الإحساس بالتوتّر الذي استولى عليه. عندما التقى به أوّل مرّة كانت «نهاد» لا تزال تباشر مسؤوليّاتها كرئيسة لمجلس الإدارة. مع ذلك كرّس الرجل جزءًا كبيرًا من وقته للاجتماع، والاحتفاء به رغم تأكيده المستمرّ بأنّ القرار النهائيّ يتوقّف على رأي الدكتورة «نهاد الجبري». ربّما أدرك الرجل بفطنته أنّه سيصبح في المستقبل القريب المتحكّم في نشاط المؤسّسة.

بعد أن انتهيا من المناقشات، قدّم له دعوة رسميّة لزيارة مقرّ «مركز مورجوان ريتشموند للتوثيق العلميّ»، ولقضاء بعض الأيّام في بيته على مشارف مدينة «سان فرانسيسكو». مبنى واسع الأرجاء من

طابقين ناصع البياض أقيم على سفح الجبل، وسط مساحات ممتدّة من الحدائق والأشجار.

في الصباح كانا يجلسان على الشرفة لتناول الإفطار. تحت أقدامهما تمتدّ السهول الخضراء تصل حتّى المحيط الأزرق المتلألىء في الشمس. يرتشفان عصير الفواكه الذي وضع فيه قليل من «الروم» لزوم الانتعاش. «صديقي إبراهيم»، يقولها الرجل بضحكة متقطّعة جافّة ثم يستطرد في الكلام، هل هناك أشياء غيّرت، وستغيّر وجه العالم. الطاقة سواء كانت ثرموهيدروجينيّة، أو شمسيّة. العقول الالكترونيّة، ووسائل الإعلام الحديثة. وأخيرًا، ولكن ليس آخرًا العلوم الإنجابيّة، والهندسة الوراثيّة، ووسائل التحكّم في الإنجاب أو التلقيح الصناعي. فالمرأة تستطيع الآن أن تكون سيّدة جسمها، أن تتحرّر من قيود الرجال والأطفال لتعطي نفسها للحياة، وتزاحم الرجل».

ينظر إليه بعينيه الرّماديّتين اللّتين تسبح فيهما شوائب سوداء. ينفث دخان سيجاره الطويل ويتأمّله وهو يصعد في الهواء كأنّه راضٍ عن نفسه وعمّا قاله. زوجته امرأة شقراء بشرتها ورديّة، ناعمة كالأطفال. سألها إن كانت تستحمّ في اللّبن مثل الملكة «كليوباترا» فضحكت في سعادة وهي تصفّق بيديها مثل الأطفال. قالت:

«أترى أنّني أشبه «كليوباترا»؟! واندرفول!»

كانت مهتمّة بأصص الورد، وبجمعيّة لتعليم أطفال المهاجرين اللّغة الإنكليزيّة، كما أنها تلعب التنس بمهارة. لعب معها ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة هزمته هزيمة ساحقة. بدا عليه الإحباط، فقالت وهي تبتسم:

«لا تحزن. أخذت منك الأشواط الستة، وأخذت أنت «اللاف»».

عندما ابتعدا عن الملاعب سائرين في الحديقة سمحت له بأن يسند ظهرها إلى شجرة، ويقبّلها. حاول أن يضع يده على ثديها تحت القميص، فهمست:

«قد يرانا زوجي من النافذة. ليس الآن». وأفلتت من بين ذراعيه. الذكريات تعود إليه وهو جالس في السيّارة. أحسّ بأنّ مزاجه ليس على ما يرام. قرّر أن يختصر الوقت الذي سيقضيه مع الرجل، ولحسن حظّه بعد أن شربا القهوة استأذن ضيفه قائلاً إنّ لديه موعدًا آخر في الخامسة، وإنّه يريد أن ينال قسطًا من الراحة قبل أن يتوجّه إليه.

كانت الساعة تقترب من الثالثة عندما انتهى من الغداء. أدرك أنّ الطرق ستكون مزدحمة في هذا الوقت، ومن الأفضل ألاّ يعود إلى البيت وإلاّ تأخّر عن موعد هبوط الطائرة في المطار. قرّر أن يبحث عن مكان في الفندق يرتاح فيه بعض الوقت. سار في البهو وجلس في إحدى القاعات قرب الفسقيّة لعلّ خرير المياه، وخلوّ المكان من الناس، يبدِّد التوتّر الجاثم عليه. لكن صورة «الخواجة» أبت أن تبارحه. يراه وهو يرفع الملعقة بالحساء من الوعاء الصيني الموضوع أمامه إلى شفتيه بحركة منتظمة. تكرّرت زياراته إلى مصر في الفترة الأخيرة، وأصبح يتصرّف معه بطريقة مختلفة عنها في بداية تعرّفه به. هذه المرّة وهما يتناولان طعامهما وصف اقتراحه بأن يعطي عقد الصيانة إلى «شركة تومسون» الفرنسيّة بالحمق. صعدت الدماء إلى رأسه، وأصيب بصداع ورغبة في القيء. تحامل على نفسه حتّى لا يظهر الضيق الشديد الذي تملّكه، وبلع قرصين من المهدّئ الذي

أصبح يحمله معه دائمًا في الجيب الداخليّ لسترته.

ترى ما هو الموعد الذي سيذهب إليه؟ ربّما يتّصل بمؤسّسات أخرى ليقارن بين إمكانيّاتها، والشروط التي يمكن أن تقبلها، وليبحث فرص التعاقد معها. سحقًا للرجل ولكلّ ما يمثّله. يحتاج إليه، ويكرهه في الوقت نفسه. فلينس كلّ هذه التكهّنات التي لن تقوده إلى شيء غير حرق الأعصاب. ما زال أمامه وقت قبل أن يتّجه إلى المطار. قام من جلسته. هذه القاعة الخالية من الناس تجعله يسرح مع هذه الأفكار بدلاً من أن يطردها. هبط على السلّم الورديّ، وسار في البهو من جديد فاصطدم بشاب يرتدي سترة «بلو جينز»، ويعلّق فوق كتفه الحقيبة السوداء التي يحملها المصوّرون الصحافيّون أثناء أسفارهم. كانت تصاحبه امرأة شابّة عيناها مكحّلتان، وشعرها ملفوف في طرحة بيضاء مطرّزة بخيوط ذهبيّة اللّون. قال للشاب: «اكسيوزمي»، وابتسم ناحيتهما في ودّ فأجاب بلكنة أميركيّة «ذاتس أوكي مستر»، واستمرّ في الكلام معها دون أن يلتفت إليه فأحسّ بالغيظ. التفت حوله باحثاً عن البار. ربّما إذا تناول كأسًا من الويسكي هدأت أعصابه. المطار ليس فيه بار، ولا حتّى مكان مريح للانتظار. لكنّ الطبيب قال له ألاّ يجمع بين المهدّئات والمشروبات الروحيّة. شقّ طريقه بين فوج من السيّاح رؤوسهم بيضاء وأطقم الأسنان الصناعيّة تطلّ مع ابتساماتهم. سمع امرأة منهم تقول «المصريّون حملوا الأحجار ورفعوها إلى أعلى بالأحبال. لكن اليهود هم العقل الهندسيّ الذي بنى الأهرامات».

خرج إلى حيث كانت تقف سيّارته. قرّر أن يصرف السائق وأن

يقود السيّارة بنفسه إلى المطار حتّى يفعل شيئًا يشغله عن التفكير الذي لا طائل من ورائه. في المرّة السابقة عندما ذهب لاستقبالها في المطار حدث بينهما شجار. أبلغها أنّ أحد أعضاء اللّجنة الاستشاريّة قدّم كتابًا سمّاه «أسرار عن خمسة رجال حكموا مصر في القرن العشرين». وصف الكتاب بأنّه دراسة سوسيولوجيّة ونفسيّة ممتعة سيكون لها رواج، وأنّه أرسل الكتاب للمطبعة مع مقدّمة وصفها بأنّها «حرّاقة» كتبها هو في ثلاثة أيّام. سألته لماذا لم ينتظر عودتها ليعرض عليها الكتاب ويأخذ رأيها في نشر أشياء لها حساسيّة. ارتفع صوتهما أثناء النقاش.. لمح وجه السائق وهو ينظر إليهما في المرآة.

سار على مهل إلى استراحة كبار الزوّار. ثم توقّف وعاد أدراجه. سيشعر بالملل في الصالة التي تكون عادة خالية من الناس. الأفضل أن ينتظرها عند باب الخروج ويتسلّى بالفرجة على حركة المطار. ثم أنّه لن يجد أحدًا من المهمّين هناك. المرّة القادمة سيرسل إليها مدير العلاقات العامّة بدلاً من أن يتكبّد عناء هذا المشوار السخيف. قبل أن يموت زوجها كانت امرأة مختلفة تمامًا. كانت كالوردة الوحيدة الموضوعة في إناء. فيها جمال واستسلام. تطلب الأشياء بابتسامة فيها رجاء. تتنهّد، وتغلق عينيها، ثم تفتحهما، وترمش في عيني الواقف أمامها. مدير العلاقات العامّة كان يقول عنها إنّها تضاجع الرجال وهم وقوف في صفٍّ. رجل كالخنزير لا يسلم أحد من لسانه، يمسح به على شفتيه الحمراوين المبلّلتين باللّعاب أثناء الكلام، وينقل السبحة الفضيّة المزوّدة بشراشيب خضراء من يد إلى يد لتستأنف سيرها بين الأصابع السميكة البيضاء. كفّ عن قول مثل هذا الكلام أمامه، عندما أصبح واضحًا أنّها ترتكن إليه بشكل متزايد

في إدارة شؤون المؤسّسة التي ترأستها بعد وفاة زوجها في حادثة سيّارة كان يقودها وهو مخمور.

قرأ عن الحادثة في الصباح وهو يتناول إفطاره فأدرك أنّ هذه قد تكون فرصته التي انتظرها. في اللحظات الأولى أحسّ بصدمة ولكن سرعان ما أفاق، وأخذ يفكّر في الاحتمالات. حرص على أن يسير في الصفّ الأوّل للجنازة الكبيرة التي سار فيها عدد من الوزراء. وفي الصوان وقف يتلقّى التعازي مع الأهل والأقرباء. عندما قرب العزاء من نهايته جلس قرب الباب صامتاً لا يتحدّث مع أحد. كان ذهنه مشغولاً فيما يمكن أن يحدث له. فالمقرّبون إليها كثيرون وهو ليس من بينهم. تنهّد عدّة مرّات فالتفت إليه الرجل الجالس إلى جواره وقال: «إنّا لله، وإنّا إليه راجعون». فهزّ رأسه مؤيّدًا كلامه، وعاد إلى ما كان يفكّر فيه.

بعدها بعشرة أيّام، أو ربّما أقلّ، دقّ جرس التليفون في مكتبه. سمع صوتًا أنثويًّا طروبًا يتردّد في أذنه.

«صباح الخير يا دكتور إبراهيم. أنا «نهاد الجبري». أرجو أن تحضر إلى منزلي بعد باكر صباحًا في الساعة الثامنة والنصف، ومعك التقارير الخاصّة برئيس مجلس الإدارة. إنّها موجودة في الخزانة على يمين مكتبه. سأرسل إليك الشفرة مع السائق في ظرف مغلق. وسأبلغ السكرتيرة بأنّني في حاجة إلى بعض الأوراق من الخزانة وأنّ عليها أن تفتح المكتب هذا المساء وتنتظرك ما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف. طلبت منها أيضًا أن تتركك في المكتب وحدك لتقوم بفرز هذه الأوراق قبل أن تحملها إليّ، وأن تغلق المكتب عندما تنتهي من هذه المهمّة. لا أريد أن يعرف أحد شيئًا ممّا طلبته منها ومنك. أريدك

أن تقرأ جميع هذه الأوراق جيّدًا، وأن تعدّ ملاحظاتك عليها. وبالطبع لا داعي لأن أنبّهك إلى أنّه لا أحد غيري وغير السكرتيرة يعرف أنّني كلّفتك بهذه المهمّة. سأرسل إليك سائقي ومعه المفتاح. على أن يأتي إليك بعد باكر في الساعة الثامنة صباحًا بالسيّارة ليحضرك معه إلى منزلي».

ظلّت السمّاعة في يده وهو سارح فيما قالته قبل أن يتنبّه إلى أنّها أغلقت الخطّ. إنّها تكاد لا تعرفه ومع ذلك طلبته دون غيره. أحسّ بالغبطة. ثم حلّ محلّ الغبطة شعور بالتوجّس. لماذا هو بالذات؟ لم يكن من المقرّبين إلى زوجها. طلبت منه أن يطّلع على الأوراق الخاصّة برئيس مجلس الإدارة. كيف تضع ثقتها في شخص لم تلتق به إلاّ عرضًا في حفلة أو حفلتين أقامتهما في بيتها ودعت فيها مسؤولي الإدارات مع بعض الضيوف الأجانب الذين كان يتعامل معهم زوجها؟ الأوراق التي سيطّلع عليها تعتبر سرّيّة. ترى هل اطّلعت عليها قبل أن تكلّفه بهذه المهمّة؟.. لا بدّ أنّها تحتفظ لنفسها بصورة منها، وتعرف ما فيها، وإلاّ لما أقدمت على مثل هذه الخطوة.

سار يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا ثم جلس من جديد يفكّر. ترى هل سيكون وحده معها في هذا اللّقاء؟ ربّما عقدت لقاءات أخرى مع عدد من المسؤولين في الشركة. أو أنّها تمتحنه. لا يبدو عليها أنّها بهذا الذكاء والفطنة. ثم من يعلم هل تنوي أن تحلّ محلّ زوجها في رئاسة الشركة بوصفها مالكة لأكثر من سبعين في المائة من رأسمالها؟ على أيّة حال عليه أن يستبشر بهذه الدعوة.

وقف وتقدّم من المرآة يتفحّص نفسه. إنّه من أكفأ المسؤولين في

الشركة. صعد إلى منصبه كمدير لإدارة المعلومات والنشر بالجهد المثابر. ثم إنّه لا يفتقد إلى الوسامة وهذا مهمّ مع امرأة مثلها. حسنًا فعل عندما خاطبها مستخدمًا الدرجة العلميّة التي حصلت عليها. يا افندم فيه خضوع، وحضرتك توحي بالمخاطبة الرسميّة وتحافظ على المسافة القائمة بينهما. ترى كيف حصلت على الدكتوراه؟ سمع أنّها في الأدب المقارن. كان زوجها صاحب نفوذ وعلاقات مع السلطات العليا. كان رئيسًا للمخابرات العامّة قبل أن ينتقل إلى مجال الإعلام ويؤسّس شركته الخاصّة التي أصبحت كبرى الشركات في هذا المجال. لكن.. قال بعض المقرّبين إليها إنّها ذكيّة، ومجتهدة، وإنّه ليس صحيحًا أنّ أحد الأساتذة المعروفين في آداب جامعة القاهرة أعدّ لها الرسالة، التي تقدّمت بها عن «أبي العلاء المعرّي ودانتي».

عندما صعد السلالم إلى بيتها، فتحت له امرأة شابّة كانت ترتدي مريلة زرقاء اللّون، ومنديلاً حول رأسها. حاجباها مرسومتان بالقلم الأسود وعلى شفتيها طلاء ورديّ. قادته إلى حجرة كبيرة تسلّلت إليها أشعّة الشمس من حديقة المنزل. لمح فيها فسقيّة، وتلاًّ صغيرًا نمت فوقه أنواع من الصبّار، والنباتات الشوكيّة. الحديقة واسعة الأرجاء مغطّاة بالحشيش الأخضر، وأحواض الزهور «الكريزانثموم»، والورد، والقرنفل.

اختار لنفسه مقعدًا إلى جوار النافذة ليطلّ عليها. انسحبت الخادمة، وبعد قليل سمع صوت باب منزلق وهو يفتح على الناحية الأخرى من الحجرة، فالتفت. رآها تتقدّم نحوه، بخطوة نشيطة. كانت ترتدي بنطالاً بنيّ اللّون وبلوزة زرقاء مغلقة بأزرار فضّيـة. بعد أن شربا القهوة على الريحة، كانت قد أحضرتها الخادمة، تناولت منه الملفّات

التي حملها في حقيبة أنيقة من الجلد ابتاعها من محلّ «ريفولي». لاحظ أصابعها وهي تقلّب فيها، خالية من الطلاء الفضّيّ الذي اعتادته، والأظافر مقصوصة قرب اللّحم. وجهها خالٍ من المساحيق. عندما يتحدّثان يشعر بنظراتها تستقرّ على وجهه. لم يبد عليها الحزن لكنّها لم تضحك، أو تبتسم، إلاّ مرّة واحدة عند انتهاء اللّقاء. ودّعته عند باب الحجرة، ثم عادت إليها كأنّها تريد أن تقرأ في التقرير، والملفّات التي طلبت منه أن يتركها عندها.

اقترب من أحد المقاعد الموزّعة في صالة وصول المسافرين. لمح كلمات مكتوبة على البلاستيك الأخضر بحروف بيضاء «طظ فيك» فتوجّه إلى غيره وجلس. أخذ يبحث في الجدول الكهربائيّ المتحرّك عن موعد وصول الطائرة التي ينتظر قدومها من باريس. في بند الملاحظات قرأ «تأخير، موعد الوصول ستةّ مساء!» تأمّل الجالس أمامه. رجل في مقتبل العمر يلفّ رأسه بتلفيحة من الصوف. أخرج جواز سفره من جيب الجلباب، وأخذ يفحصه في تأنٍّ، ثم دسّه في جيبه من جديد. إلى جواره شاب زحف شعره الأكرت على جبينه وكاد يلتحم بحاجبيه السوداوين. كان يرتدي سترة في لون النبيذ. إلى جواره وضع راديو ارتفعت منه موسيقى راقصة. التفت إلى الرجل الجالس معه وقال: «يا عم مدكور ما تنساش المرّة دي تشوفلي حاجة كده اعملها عند الطلاينة». غمغم الرجل بكلمات غير مفهومة، ثم مالت التلفيحة التي تحيط برأسه إلى جانب، وأخذ يشخر. حملق الشاب فيه لحظة ثم أخرج منديلاً من جيب السترة وأخذ يزيل التراب من على حذائه. مرّت أمامه امرأة سمراء نحيلة الجسم ترتدي مريلة برتقاليّة اللّون وشبشب زنوبة وتجرّ وراءها مسّاحة ربطت فيها قطعة

من الخيش المبلّلة بالمياه. نظرة عينيها مطفأة، وملامحها فيها استسلام كأنّها فقدت الاهتمام بكلّ ما يدور حولها. تجرّها فوق الأرض بخطوة بطيئة فيها إعياء كأنّها تعيد توزيع أعقاب السجائر، وقطع ورق السلوفان، والأكياس الصغيرة الراقدة فوق بلاط الصالة.

تحرّكت لوحة الإعلانات فالتفت إليها. انتقلت طائرة مصر للطيران من السطر السابع إلى الرابع. نظر إلى ساعته، وتثاءب. تذكّر «الخواجة» الذي تركه منذ ساعات. إنّه السبب الأوّل في المشاكل التي دبّت بينه وبين «نهاد». في ذلك الصباح كان جالسًا في مكتبه. كانت قد حلّت محلّ زوجها في رئاسة المؤسّسة وعيّنته نائبًا لها. سمع نقرًا وعندما رفع رأسه لمح مديرة مكتبها تقف عند الباب. قالت:

«يا دكتور «إبراهيم» صباح الخير. الدكتورة رئيسة مجلس الإدارة ترجو منك أن تتفضّل عندها. تريدك في أمر عاجل».

تملّكه إحساس بالضيق. منذ متى ترسل في طلبه عن طريق مديرة مكتبها. لماذا لم تتحدّث إليه مباشرة في التليفون كما تفعل عادة. قال:

«سأذهب إلى مكتبها عندما أنتهي من التقرير الموجود أمامي. بعد عشر دقائق أو ربع ساعة على أكثر تقدير».

تأمّلته لحظة دون أن تتحرّك من مكانها. ثم كأنّها غيّرت رأيها، انسحبت مغلقة الباب وراءها بصوت مسموع. مدّ يده ليمسك بالقلم فاصطدم كوعه بكوب من اليانسون وضعه على المكتب فانسكب السائل الأصفر على بنطاله. انتقل بسرعة إلى الحمّام ليزيله بالماء قبل أن تثبت البقعة. انتظر حتّى مرّ أكثر من ربع الساعة ثم خرج من

حجرته وتوجّه إلى الجناح الذي خصّصته لنفسها. كان مكتبها عند طرف المبنى. حجرة متوسّطة الحجم، أنيقة وبسيطة، تطلّ على شرفة واسعة مزروعة بالنباتات الخضراء، والزهور التي اختارتها بنفسها. كانت منهمكة في قراءة أحد الملفّات الموضوعة أمامها. وجهها شاحب خالٍ من كلّ آثار الزينة حتّى من الكحل البسيط الذي كانت تضعه في عينيها عندما تسهر في اللّيل للانتهاء من عملها. حول شفتيها زحفت التجاعيد الرفيعة. بدا له كأنّها كبرت فجأة. مدّت يدها إلى سمّاعة التليفون ثم سحبتها، وأزاحت الملفّ قليلاً من أمامها. شبكت يديها فوق المكتب والتفتت إليه. عيناها تتفحّصانه في فضول كأنّها اكتشفت فيه ما لم تره من قبل.

قالت دون مقدّمات:

«اجلس يا «إبراهيم»».

جلس مادًّا ساقيه الطويلتين فوق البساط الصينيّ الزاهي الألوان.

«يا «إبراهيم». بلغني أنّك وافقت على المشروع الذي تقدّم به مركز «مورجان ريتشموند»، وأنّه سيدخل في مرحلة التنفيذ بعد شهر على الأكثر. هل هذا صحيح؟»

«نعم صحيح».

«لماذا لم تعرضه عليّ قبل أن تتّفق مع المركز؟»

«هل نسيت أنّ عندي منك تفويضًا؟»

«لم أنس. لكن ألم نتّفق على أن نتشاور في المسائل المهمّة؟»

«يا حبيبتي. ليس هذا أوّل إجراء أتّخذه دون أن أعرضه عليك، فلماذا هذا الاعتراض الآن؟ أنا أتحمّل عنك أعباء كثيرة لأريحك منها».

زاد الشحوب في وجهها. خفضت عينيها وأخذت تعبث بالأوراق الموضوعة أمامها، ثم رفعت نظرتها إليه وقالت:

«لأنّك أصبحت تبيح لنفسك ما لا أرضى عنه. والمسائل التي تتصرّف فيها زادت عن حدّها. يبدو أنّك تريد أن تلغي دوري في المؤسّسة. أنت نسيت أنّني مازلت رئيسة مجلس الإدارة».

«كيف تقولين هذا الكلام. أنا أتحمّل عنك كلّ الأعمال السخيفة. أمّا المسائل المهمّة فهي تعرض جميعًا عليك».

ضغطت على شفتيها بحركة فيها سخرية.

«لماذا إذن لم تعرض عليّ الاتفاقيّة المعقودة مع «مركز مورجان ريتشموند للتوثيق العلمي». هناك عشرات من المسائل لم تعد تعرضها عليّ. أصبحت تتصرّف وحدك بمقتضى التفويض الذي أعطيته لك».

«لا أعرف من الذي أثارك ضدّ هذه الاتفاقيّة بالذات. أنا واثق أنّ المؤسّسة ستجني من ورائها مزايا، ومكاسب عديدة».

«لم يثرني أحد، ولا أقبل منك مثل هذا الكلام. أنت تستغلّ علاقتنا لتصعد على حسابي. هذه هي الحقيقة التي تريد أن تصرفني عن إدراكها، وأنا الملامة. لكن ليس هذا هو المكان المناسب لتصفية هذا الموضوع بيننا».

توقّفت لحظة، وضغطت على رأسها بيديها كأنّها أحسّت بصداع مفاجئ. أخذت نَفَسًا عميقًا، ثم استطردت:

«لنعد إلى الاتفاقيّة التي وصلت إليها مع ذلك الرجل القميء الذي أصبحت أكرهه. إنّها تخضعنا تمامًا لـ«مركز مورجان ريتشموند» وتضعنا في وضع التابع له مقابل مشاركته في رأس المال».

«إنّها ستتيح لنا الحصول على وسائل تكنولوجيّة لم تكن في متناول يدنا. كيف تريدين أن نقف في وجه المنافسة الأجنبيّة إذا لم نستوعب العلم والتكنولوجيا الجديدة في عالم النشر والطباعة والإعلام والتوثيق».

«سيعطوننا القشور ويحرموننا من المعرفة الحقيقيّة التي تسمح لنا أن نطوّر أنفسنا فعلاً. وحتّى هذه القشور ستستخدم لا لخدمتنا نحن، ولكن لتنفيذ ما يحتاجون هم إليه ولجلب المكاسب الأساسيّة لهم. أنا لا أفهم. ألم تقرأ العقد؟ هل تضحك عليّ أنا أم على نفسك».

«الدنيا تغيّرت يا «نهاد»، لا بدّ أن نتعامل مع الواقع».

«نعم. تغيّرت بالطبع. ولكن ليست وسيلة التعامل مع المتغيّرات هي الاستسلام الكامل لما حدث. المشكلة ليست في التغيير وإنّما في موقفك منه. أنت الذي تغيّرت، أو ربّما لم أفطن إليك منذ البداية. . . كنت».

قاطعها بصوت علت نبراته:

«ما هو المطلوب؟»

أغلقت الملفّ وحملقت إلى عصفورة توقّفت على عتبة النافذة.

قالت:

«أنا متعبة الآن. أريد منك أن تتركني وحدي».

*

لمحها وهي تخطو نحوه في الممرّ الطويل. جسمها ملفوف في المعطف الواسع الذي تركته مفتوحًا. الحقيبة المعلّقة من كتفها تتأرجح مع خطواتها. اجتازت الشرطيّ الذي يرتدي سترته القاتمة التي تبرز من كمّيها يداه الكبيرتان. عند أسفل ساقيه يرتدي جترًا

أبيض متّسخًا يعلو فوق الحذاء الميري الأسود. تطلّع إليها بنظرة نهمة كأنّها فريسة.

خرجت إلى الرصيف بخطوة سريعة، كأنّها تريد أن تفلت منه، فأسرع هو ليلحق بها مناديًا:

«نهاد».

التفتت إليه، فقال:

«الحمد لله على السلامة».

ردّت بصوت خالٍ من الانفعال:

«الله يسلّمك. بحثت عنك في صالة كبار الزوّار».

قال:

«أين حقائبك؟»

«تركتها مع أحد الحمّالين».

لاحظ أنّ وجهها فيه سمرة برونزيّة كأنّها تعرّضت للشمس في أعلى الجبال.

«أرجو أن تكوني استفدت صحّيًا من الرحلة».

مرّ ظلٌّ سريع فوق وجهها. لم تعلّق. تناول منها الجريدة الإنكليزيّة التي كانت تحملها معها. تصفّح عناوينها بسرعة. «امرأة شابّة تلقي بزوجها من الشرفة في شهر العسل». ثلاثة ملايين في إثيوبيا «مهدّدون بالجوع». الرئيس بوش يقول «أميركا لا بدّ أن تدافع عن حقوق الإنسان في كلّ مكان». طواها، وأعادها إليها.

وصل الحمّال يدفع العربة اليدويّة أمامه.. سبقه إلى السيّارة وفتح الصندوق الخلفيّ ليضع الحمّال الحقائب. بعد أن انتهى ألقى ناحيته

نظرة جانبيّة خاطفة وهو يخرج محفظته. أخرج ورقة بعشرين جنيهًا وأعطاها له، فأضاءت أساريره ابتسامة عريضة، وقال:

«الله يطوّل في عمرك ويخلّيك لينا يا سعادة الباشا».

قالت في نبرة ساخرة:

«لماذا كلّ هذا الكرم يا سي «إبراهيم»؟»

قال:

«إنّهم بؤساء». ثم أدار المحرِّك.

حملقت أمامها. ملامحها جامدة تحت القبّعة. خطر في بالها أنّ هذا هو آخر المطاف. لم يعد بينهما سوى الصمت البارد أو السخرية. سألها:

«هل نذهب إلى بيت المعادي أم إلى شقّة الزمالك».

قالت:

«إلى بيت المعادي طبعًا».

عندما وصلا صعدت إلى الطابق الأعلى دون أن تقول شيئًا. حملت معها حقيبة واحدة وطلبت من الشغّالة أن تصعد بالحقائب الأخرى إلى غرفتها، أن تصنع لها كوبًا من الجنزبيل، وأن تعدّ لها حمّامًا ساخنًا. لمح بعض الخطابات على رفّ الشمّاعة فالتقطها وسار بها إلى حجرة المكتب. جلس على المقعد ووضع الخطابات على منضدة صغيرة إلى جواره. أسند رأسه على ظهر المقعد وأغلق عينيه. حاول أن ينام قليلاً ليتغلّب على الإرهاق الذي أحسّ به، لكن النوم ظلّ يهرب منه، ففتح عينيه وأمسك بالخطابات. أخرج من بينها مظروفًا أصفر اللّون مزركشًا عند الأطراف برسوم غريبة، وأخذ يقلّبه. انزلق الخطاب من بين أصابعه، واستقرّ على البساط قرب قدميه. قام وتوجّه

إلى الجانب الآخر من الحجرة. فتح ضلفة مزيّنة بالحشوات العربيّة، وتفقّد الزجاجات المرصوصة أمامه. أخرج من بينها قنّينة من الكريستال. نزع منها السدّادة الزجاجيّة وأفرغ منها معيارين من الويسكي في أحد الكؤوس الموضوعة على منضدة متحرّكة. ترك الكأس وتوجّه إلى المطبخ. عاد حاملاً علبة فضّيّة استخرج منها ثلاث مكعّبات من الثلج أسقطها في كأس الويسكي.

عاد إلى مقعده وأخذ يرتشف رشفات سريعة من الويسكي. لمح المظروف الذي سقط منه قرب قدميه فانحنى والتقطه من فوق البساط، ثم توجّه إلى المكتب الكبير المنتصب في ركن الحجرة. بحث عن فتّاحة الورق وجدها في الدرج الأعلى. سلاحها من النحاس الأصفر وعلى مقبضها حفرت صورة بندقيّة وإلى جوارها كلمة الله. فتح المظروف وأخرج منها ورقة مطويّة تفوح منها رائحة مسك. عاد إلى مقعده. أضاء مصباحًا يطلّ من الجدار فوق رأسه وأخذ يقرأ:

«بسم الله الرحمن الرحيم

تحيّة مباركة وبعد،

وافق فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الباسط محمد شعلان على مقابلتكم يوم الخميس القادم الموافق ٢١ شعبان سنة ١٤١٩ هـ بعد صلاة المغرب مباشرة بالمنزل رقم ١٧ حارة الفيّومي المتفرّعة من شارع الميمون بالقلعة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سكرتير فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الباسط محمد شعلان

مصطفى الساعاتي

تحريرًا في ١٠ شعبان سنة ١٤١٩ هـ».

أعاد الخطاب داخل المظروف، وأخذ رشفة طويلة من الويسكي. الحجرة تغطّ في الظلام ما عدا دائرة صغيرة مضاءة تحت المصباح. خشب المكتبة يلمع ببريق خفيّ. دار بعينيه على رفوف المكتبة: مجلّدات باللّون الأحمر القاني ومطبوع عليها بالحروف الذهبيّة. أحسّ بها تربض على صدره مثل الأحلام. ضاعت مع الزمن ولم يبق سوى ثقل الإحباط. رفع كأسه إليها وأفرغه من محتوياته في رشفة واحدة. قام وملأ كأسه من جديد. هذا الصمت العميق كالواحة وسط الضجيج الذي لا يتوقّف. سئم تبادل الكلمات، والألفاظ. سئم ضياع المعاني قبل أن تنتقل. لم يعد هناك شيء بينه وبينها، أو ربّما كان هذا هو الحال منذ البداية. منذ اليوم الذي رقدت على سريرها شاحبة. ذهب معها إلى الطبيب. خاف أن يتركها تذهب وحدها. جلس في صالة الانتظار وأخفى وجهه خلف مجلّة «المواجهة». تملّكه شعور بالإثم. في حلقه طعم مرّ، وفي قلبه دقّات فقدت انتظامها. طلب كوبًا من الماء، وابتلع قرصين من الدواء المهدّئ. على حافة الكوب بقايا صبغة حمراء تركتها شفتا امرأة. ربّما هي المرأة الجالسة أمامه تنتظر دورها. ترتدي جوبة قصيرة كاشفة عن لحم فخذيها المكتنز. تلقي ناحيته بابتسامة غامضة وتشعل سيجارتها من سيجارة سابقة. ترى ما الذي تبحث عنه؟ أهي مثله يؤرقها نبض الأشياء الضائعة. ملأت المنفضة بالأعقاب. همّ بتوجيه الكلام إليها ليسألها منذ متى تنتظر. لكن في تلك اللّحظة أشارت إليها الممرّضة فقامت وسارت وراءها.

كان معه كتاب عن الميكروفيلم واستخداماته. حاول أن يقرأ فيه لكن عقله ظلّ يسرح. تتوالى السنون لكن الصور باقية محفورة في

ذهنه: المطر، والحجرة يقف فيها وحده.. وصوت الريح يصرخ في أذنيه وعينا الطفلة تحملقان فيه بنظرة ثابتة. جسمه يرتعش. الجوّ بارد لكن العرق ينهمر على جسمه. يسيل خيوطًا رفيعة تلتصق بجلده. استقلّ سيّارة أجرة بالنفر. حوله الليل وأضواء متفرّقة، ودخان السجائر، والنائمون مالت رؤوسهم على ناحية، وصوت المذياع يحشرج بأغنية لأمّ كلثوم «حبّ إيه اللّي انت جاي تقول عليه».

فتح الباب الداخليّ فتنبّه. الممرّضة تقف أمامه بمعطفها الأبيض وشفتيها الحمراوين. تلقي إليه بنظرة متسائلة وتقول «اتفضّل يمكنك أن تدخل الآن. الدكتورة ناهد أفاقت وأخذت قسطًا من الراحة».

وجدها راقدة على السرير تحملق أمامها. سألها إن كانت تتألّم فقالت لا، وأغلقت عينيها كأنّها لا تريد أن تتكلّم مع أحد. دخل الطبيب وأمسك بمعصمها، ثم ترك يدها، وابتسم. كان حليق الوجه، دقيق الملامح، على عجل من أمره. يرتدي معطفًا أبيض يصل أعلى الركبتين وسلسلة من الذهب حول عنقه. رفع قميصها وضغط بسرعة على بطنها، ثم موجّهًا كلامه إليه، قال:

«يمكنك أن تأخذها إلى البيت الآن»، ثم خرج.

مات الكلام بينهما منذ ذلك اليوم أو ربّما قبله. وضع يده على مسند المقعد ووقف. شعر بالجدران تميل ثم تدور حوله. اجتاز الحجرة. جسمه يترنّح وقدماه تصطدمان بأرجل منضدة صغيرة لم ينتبه إلى وجودها، فسقطت آنية على الأرض. سمع صوتًا كالانفجار الصغير وتبعثرت قطع من الصيني حوله. بحث عن مفتاح الكهرباء إلى أن وجده. رأى المساحات تتّسع أمامه في الضوء القويّ. خرج

إلى الصالة. لمح السلّم الصاعد إلى أعلى فخطر في باله أن يذهب إليها ثم تراجع. أحسّ بحلقه جافًّا فتوجّه إلى المطبخ وشرب كوبًا من الماء المثلج. اجتاز الصالة ملقيًا نظرة ثانية على السلّم. اخترق الباب المنزلق إلى حجرة المعيشة. استلقى على الأريكة قرب البيان واضعًا وسادة تحت رأسه. ضغط على مفتاح النور فالتفّ حوله الظلام الدامس.

(١٥)

وقفت «نهاد الجبري» أمام باب المنزل رقم ١٧. سمعت رنين الجرس الموسيقيّ يتردّد في الداخل. انفتح الباب وظهر أمامها رجل تحيط بوجهه لحية سوداء شعرها ناعم. في عينيه الصغيرتين شيء يشتعل كأنّه رأى ملكوت الله في المنام، واختاره به. خفضت نظراتها أمام البريق القويّ، فلمحت أصابع قدمه الكبيرة تطلّ من تحت الجلباب الأبيض.

كادت تقول أنا الدكتورة ثم استبدلتها «بالأخت» وأضافت «نهاد الجبري». لم يقل شيئًا. أفسح لها مكانًا لكي تدخل، ثم أغلق الباب وراءها. وجدت نفسها في صالة ضخمة بيضاويّة الشكل. حول الجدران وسائد وشلت، وعلى الأرض بساط وقطع من صوف الخراف. النوافذ العالية مغلقة ترتفع في شكل قوس. زجاجها ملوّن، مقسّم إلى أجزاء بأسلاك من النحاس فلا يتسرّب منها إلاّ شعاع ضعيف من الضوء الأصفر. من السقف تتدلّى نجفة كبيرة مزوّدة بالشموع فينعكس لهبها الرّاقص على الجدران حولها.

فتح الرجل بابًا من الخشب واختفى، فوجدت نفسها واقفة وحدها. رفعت وجهها وحملقت في السقف كأنّها تبحث عن منفذ، فاصطدمت نظراتها بالقبّة العالية المزدانة بنقوش ذهبيّة وزرقاء تتخلّلها كتابة بالحروف الفارسيّة السوداء. حاولت أن تقرأ بعض الكلمات،

لكن المحاولة أصابتها بالدوار.

مرَّ بعض الوقت وهي واقفة. الصمت مطبق كأنّه لا يوجد أحد في البيت، والجدران السميكة تحول دون وصول أصوات من الحارة. بدأت تشعر بالتعب وبألم في بطن قدميها من الوقوف فبحثت عن مكان تجلس فيه. هبطت بجسمها على إحدى الشلت فارتفعت «الجوبة» التي كانت ترتديها كاشفة عن ساقيها. شدّت عليها فانزلقت إلى أسفل ثم ارتفعت من جديد. أسندت كفّها على الأرض، وقامت. تملّكتها رغبة ملحّة في التدخين فأخذت تذرع الصالة بخطوات متوتّرة. أسقط نعل حذائها قطعة من طين على صوف الخراف الأبيض فجثمت على ركبتيها والتقطتها. بحثت دون جدوى عن سلّة أو إناء يمكن أن تسقطها فيها. فتحت حقيبتها وأخرجت منها منديلاً من الورق لفّت فيه قطعة الطين وأعادته إلى حقيبتها. انتابتها رغبة في البكاء. زحف عليها إحساس باليأس، بأنّها لا تساوي شيئًا. لا أحد يحتاج إليها. سلّمت له كلّ شيء ثم تركها دون أن يبالي بها. في صباح اليوم التالي لوصولها خرج من البيت مغلقًا الباب بعنف وراءه. وعندما ذهبت إلى مكتبها في المؤسّسة لم تجد له أثرًا. أخذت دموعها تنهمر واختلطت بالمدار الأزرق للحروف المكتوبة على الورق.

ما الذي كانت تبكيه. هو أم نفسها؟ تركها بعد أن أخذ منها كلّ ما عندها. عندما تنظر في المرآة ترى الخصلات البيضاء الزاحفة على شعرها. أصبحت تخفيها بالصبغة. . فما أقبح الشيب في الشّعر الأصفر.

عندما مات زوجها جاءتها الفرصة لتطير خارج القفص. لكنّها

عادت إليه بنفسها. من أجل ماذا!؟ الحبّ... الجنس... ظنّت أنّها لا تستطيع أن تستغني عن الرجل.. أن تعيش وحدها. أوهام.

عندما انصرف الذين جاؤوا لتعزيتها، جلست في حجرة المعيشة تشرب أقداحًا من الشاي الصينيّ المعطّر وتفكّر في حياتها المقبلة. أصابعها الرفيعة تعبث بالشريط حول شعرها. فكّته وألقت به على الأرض كأنّها تتخلّص من القيود التي عاشتها في حياتها السابقة. ملأتها سعادة غامرة. أخيرًا حرّة. أخيرًا وحدها تستطيع أن تقرّر كلّ شيء في حياتها. عاد إليها ملمس أصابع أمّها على رأسها تمشّط شعرها، وتحكم ربط الشريط من حوله. تستأنس خصلاته الثائرة. قال لها زوجها قبل أن يموت إنّ أوّل ما جذب انتباهه هو الشريط الملوّن الذي كانت تربط به شعرها الأشقر الجميل. كانت لا تزال طالبة في كليّة الآداب تمرّ على أبيها وهو جالس أمام باب المخزن الكبير الذي كان يضع فيه الخشب، فلا يلتفت إليها كأنّها لا وجود لها. يظلّ سارحًا أو منهمكًا في الحديث مع أحد الزبائن الذين جاؤوا ليبتاعوا منه لفّات من السلك الشائك، أو زوايا الحديد، أو شكائر إسمنت، أو مواسير، أو خشب. تحسّ أنّها ضئيلة لا قيمة لها. وأمّها كذلك كانت ممسوحة الشخصيّة أمامه. أمّا هي، ففي الكليّة كانت هدّافة فريق كرة السلّة، وصوتها يرتفع برنينه في فرقة التمثيل. لكن في البيت هي لا شيء، فتزوّجت هربًا من جوّه الكئيب، من إحساسها أنّها يمكن أن تنطفئ إلى الأبد، أن تصبح مثل أمّها.

أهمّ ما أعجبها فيه عندما تقدّم لها كان إعجابه بها. كان ثريًّا وصاحب مركز مرموق في جهاز كبير له سطوة. وكان الجميع يحسبون حسابه.

ظلّ ثراؤه يتضخّم، وتحوّلت هي بالتدريج إلى زوجة بلا وظيفة في الحياة غير انتظاره، أو حضور الحفلات التي كان يرتادها. أصبحت دكتورة بلا عمل.

أفرغت قدح الشاي الصينيّ وقامت. الآن جاءت فرصتها. تطلّعت إلى أشعة الشمس تسلّطت على النافذة ملقية ألوانها على خزّان المياه الزجاجيّ الذي يسبح فيه السمك. صعدت السلالم قافزة فوقها وتوجّهت إلى الحمّام. غطست في حوض المياه الساخنة بشعور من اللذّة العارمة. كأنّ أحاسيسها استيقظت. ارتدت برنسًا، وأخذت تجفّف شعرها «بالسيشوار» ثم وقفت أمام الدولاب وأخرجت منه بنطالاً بنيّ اللّون، وبلوزة زرقاء تغلق حتّى العنق بأزرار فضّيّة. فحصت وجهها في المرآة ومسحت عليه بقطعة من القطن مبلّلة. منذ الآن فصاعدًا لا مساحيق، ولا دهانات. حياة جديدة تنفتح أمامها. أصبحت على قمّة المؤسّسة التي تركها. نادت على الشغّالة التي استيقظت من نومها عندما أحسّت بحركاتها في البيت. طلبت منها أن تصنع لها قدحًا كبيرًا من القهوة. وجلست ترتشف منه وهي تعيد قراءة برقيّات التعزية. كلّها متشابهة ما عدا برقيّة واحدة تقول «لا أعرف إن كنت في حاجة إلى كلمة عزاء منّي أو من غيري. فكلمات العزاء لا تعني شيئًا. لكنّك ستجدين في المؤسّسة من هم على استعداد لبذل أيّ جهد تحتاجين إليه. ولا يوجد جرح لا يشفيه الزمن».

أعادت قراءة البرقيّة من جديد. ربّما لعبت هذه الكلمات دورًا في اختيارها له. رأته من قبل في بعض المناسبات. قليل الكلام. يضع بينه وبين الآخرين مسافة. وسيم إلى حدٍّ كبير، في عينيه نظرة مستطلعة.

مسحت جفونها بحرص حتّى لا تزيل الكحل الذي وضعته حول عينيها في الصباح. الآن تدرك أنّه طوال الوقت كان يسعى إلى جرّ البساط من تحت قدميها، إلى سحب السلطات منها مستغلاًّ العلاقة التي قامت بينهما. فطوال سنين الزواج لم يعرف معنى الحبّ أو اللذّة الجنسيّة. كان زوجها سلطويًّا، لا علاقة له بها إلاّ في الفراش فكرهته. لكنّها ظلّت وفيّة له، رغم كلّ الإشاعات التي أطلقها المحيطون بهما. وعندما مات كانت كمن أطلق سراحها فانطلقت تبحث عن تعويض لما ظنّت أنّه فاتها. عرف هو كيف يلعب على أوتارها. فأقدمت عليه برغبة عارمة أفقدتها اتّزانها.

عادت إليها صورتها عندما رأست أوّل اجتماع لمجلس إدارة الشركة. جلست مرتدية ثوبًا أسود، رافعة شعرها عن عنقها. لم يكن اللّون الأسود الذي ارتدته في هذا اليوم تعبيرًا عن حزنها، وإنّما لأنّه كان يظهر لون شعرها الأشقر، وزرقة عينيها. سعيدة محتفلة بنفسها. تضحك من أعماقها كما لم تضحك أبدًا من قبل. تشعر بدفء الشمس تسقط على ظهرها، وبعيونهم متّجهة إليها. ما عدا عينيه هو تطلّ منها نظرة توحي بأنّه يدرك أحاسيسها، ويشاطرها السعادة التي تظهرها. أمّا الباقون فكانوا يمثّلون الحزن الذي يظنّون أنّه يليق في مواجهة امرأة فقدت زوجها، ويشعرون بالحيرة إزاء الانطلاق الذي ظهر عليها. تتفرّس في وجوههم التفّت حول المنضدة. يتصرّفون كأنّ جثّة المرحوم زوجها ترقد أمامهم ملفوفة بالحرير الأبيض. عيونهم الزجاجيّة تقطر أسى يبدو لها مضحكًا. لولا الملامة لأطلقت زغرودة حتّى يفرّوا من أمامها.

كان يجلس على مسافة قريبة منها. تلاقت نظراتهما لحظة. في نظرته شعلة صغيرة راقصة كأنّه يشاركها أحاسيسها. بعدها مال فوق الورقة الموضوعة أمامه وأخذ يقرأ. أصابعه الممسكة بالسيجارة فيها آثار خشونة قديمة هذّبتها السنون التي قضاها جالسًا خلف مكتب.

زحفت عليها رائحة بخّور، مسك، اختلطت برائحة أخرى كالبنج أو اللّيزول. روائح ترتبط في عقلها بالإثم. لم يكن أمامها خيار. بعد أن تخلّصت من الجنين أخذت تتعاطى المهدّئات وامتدّت إليها أصابع غليظة تعبث بجسمها.

أحسّت بالدوار فانحنت بجسمها وجلست على شلتة فارتفع ثوبها كاشفًا عن ساقيها. شدّت على طرف الثوب بعصبيّة. كان يجب أن ترتدي جلبابًا طويلاً يتناسب مع المكان. إنّها مرهقة هذه الأيّام، والانتظار الطويل أرهقها أكثر. لم يعد أحد يهتمّ بها. حتّى هذا الشيخ الذي ستدفع له مئات الجنيهات تركها هكذا لتعاني الخوف الغامض الذي أخذ يسيطر عليها. تشعر وكأنّ شيئًا يدبّر لها. كان يجب ألاّ تأتي وحدها. أخذت الدموع تسقط من عينيها فسال الكحل على وجهها. مسحته بمنديل من الورق، وخلعت حذاءها فأحسّت بنعومة صوف الخراف تحت قدميها. سمعت صدى ضحكات تتردّد في مكان ما كأنّها تأتي من تحت القبّة ثم تلاشت فجأة. تملّكها شعور بجسمها يرتخي كأنّها أصبحت تحت تأثير مخدّر. حملقت في سجّادة صلاة معلّقة على الجدار فوق رأسها. حرّكت أصابع قدمها ثم رقدت بجسمها على الشلت، وفكّت الرباط من حول شعرها. وفي تلك اللّحظة لمحت وجهًا ملتحيًا ناعم الملامح تعلوه عمّة خضراء يميل

عليها. رائحة طيب تتسلّل إلى أنفها من جلبابه المزركش. رائحة جعلتها عاجزة عن الحركة. عيناه مثل قطعتين من الجمر الأسود تتفرّسان في وجهها وتجعلانها تبكي في حرقة. ثم تحوّل بكاؤها إلى عويل. انشقّ الجدار عن الرجل الذي فتح لها الباب. ضربها بكفّ يده ثم قلبها على وجهها. أحسّت بشيء مدبّب يضغط عليها من الخلف عند إليتيها. وبعد ذلك لم تشعر بشيء.

عندما زارها «إبراهيم سالم» في المستشفى كانت راقدة على السرير تئنّ أنينًا خافتًا. كان وجهها شاحبًا من أثر المخدّر القوي الذي حقنها به الطبيب. ولمّا سأل الطبيب عن حالها قال إنّها مصابة بانهيار عصبيّ حادّ، ثم خفض صوته وقال: ومن آثار تهتّك في فتحة الشرج.

(١٦)

تتبّعت المياه ترتفع شفّافة خضراء في حوض الاستحمام. غمست فيها يدها وأخرجتها بسرعة. خلعت القميص والسروال الملتصقين بجسمها ثم المنديل الملفوف حول رأسها فتدفّق الشعر هابطًا على كتفيها ولمع في الضوء بوهجه الأحمر. خطت داخل الحوض بقدمها، ثم تبعتها بالقدم الأخرى وانزلقت في الماء بسرعة. أسلمت نفسها للمساتها الساخنة فوق جلدها، للإحساس بأنّ جسمها يتلاشى عنه تعب التدريبات المتواصلة التي مارستها منذ أن ذهبت في ذلك اليوم إلى صالة الرقص. أغلقت عينيها، فأحسّت كأنّها جنين في بطن أمّه لا يصل إليه صوت، أو ضوء، أو أيّ شيء يبدّد السكينة الملتفّة حولها.

فجأة، أحسّت كأنّ جسمها يحيطه سائل ثقيل يسدّ مسامه، وأنّها تختنق. رفعت ساقها في الهواء كأنّها بهذه الحركة تستطيع أن تحرّر جسمها من هذا الإحساس. لمحت قدمها تصعد من تحت الماء. قدم راقصة قويّة سمراء فيها شبق، وقدرة على العراك. أحسّت بدبيب النبض قويًّا تحت عضلات الساق. قفزت خارج الحوض وجفّفت نفسها بمنشفة كبيرة بيضاء. خرجت من باب الحمّام وتوجّهت إلى غرفة تبديل الملابس، تاركة بصمات قدميها المبلّلة على الأرضيّة البلاط. ارتدت جلبابًا من القطن الأبيض، وأوثقت العقد حول عنقها

فلمعت أحجاره السود تفصل ما بينها الجعارين الزرقاء. مشّطت شعرها في ضفيرة واحدة ألقتها خلف ظهرها، وخرجت إلى الصالة لتلتقط جريدة الصباح.

تردّدت طويلاً قبل أن توافق على استقباله في البيت. لم تكن تخشى شيئًا، لكن شقّتها كانت قد أصبحت ملاذها. لا تستقبل فيه إلاّ بعض الشباب والشابّات أعضاء فرقة الرقص عندما يطلبون التحدّث معها في أشياء تخصّ حياتهم. تعوّدت أن تبقى فيها وحدها. ترتدي جلبابها الأزرق القديم الذي تمزّق عند الكتف وتسير حافية القدمين، تجلس على الشرفة تحت الشمس، أو عندما يصعد القمر في اللّيل. تقرأ وترسم في حجرة المعيشة التي صنعتها بإزالة الجدار بين غرفة المكتب والصالة الكبيرة. تتخيّله جالسًا في المقعد يتصفّح مجلّة من المجلاّت التي جاءته في البريد. يرفع إليها رأسه، ويبتسم. أو ينحّي شعره من على أذنيه بتلك الحركة السريعة من يديه. أو يجلس إلى جوارها على المنضدة الصغيرة التي ما زالت تنتصب في ركنها ليصحّح لها إحدى الكلمات التي أخطأت في نطقها.

لمحت المنضدة في ركنها. أخرجت بعض الرسوم من درج المكتب وتوجّهت إليها. تحسّست خشب القرص بيدها كأنّها تربت عليه، وبسطت الأوراق. ثم تأهّبت للجلوس. وفي تلك اللّحظة دقّ جرس التليفون فتوجّهت إليه ورفعت السمّاعة. جاءها صوته ينطق الكلمات، كأنّ ثقلاً يضغط على صدره. قال:

«أنا «إبراهيم». يمكنني أن أمرّ عليك بعد نصف ساعة. فهل هذا مناسب؟»

كادت أن ترفض. لكن الثقل الرابض على صوته، وربّما الفضول تغلّبا على إحجامها. ما الذي وراء زيارته لها في البيت؟ إنّه يستطيع أن يراها في النادي، أو في أيّ مكان آخر فقد تعدّدت لقاءاتهما. قالت:

«أفضّل أن نخرج إلى مكان فيه مساحات مفتوحة. أن أستنشق هواءً نقيًّا بدلاً من هذه السحابة السوداء المعلّقة فوقنا. بعد ذلك يمكننا أن نقضي الأمسية عندي في البيت. انتظرني عند أسفل العمارة في السيّارة. سأكون جاهزة بعد ساعة».

أعادت السمّاعة إلى مكانها. ظلّت واقفة إلى جوار التليفون لحظة قبل أن تتّجه إلى الكنبة الطويلة وترقد عليها. تتبّعت الشغّالة تروح وتجيء. كمّها المرفوع يكشف عن الوشم المرسوم على ذراعها. إنّها عمّة الفتاة التي ترعى شؤون البيت لكنّها مختلفة عنها تمامًا. وجهها كالمنحوت في الحجر كأنّها لا ترى، ولا تسمع. تكاد لا تتكلّم. أحيانًا تحسّ بعينيها الصغيرتين تحملقان فيها وهي راقدة، فتعود إليها صورة الضابطة في العنبر تخترق الغيوم لتصل إليها. فكّرت عدّة مرّات في أن تستغني عنها لكنّها أشفقت على الفتاة، وعليها، فهي تقوم بأعمالها على وجه جيّد، ولا تترك لها أيّة فرصة للشكوى منها. عادت تجلس أمام المنضدة الصغيرة تعبث بالرسوم التي وضعتها فوقها. استنشقت رائحة «الجومالاكا» الهنديّ، المخلوطة بالغراء والدهان، و«السبرتو». تمسح على الخشب بأصابعها فتشعر بالراحة. لماذا تطاردها المخاوف رغم كلّ ما وصلت إليه؟ هذه المنضدة مثل السلوى تلجأ إليها. تذكّرها بمشوارها الطويل، وبنجاحها. كيف احتفظت برائحتها النفّاذة طوال هذه السنين؟ لماذا لم تضع منها؟ كأنّها شيء حيّ احتفظ بنبضاته.

السيّارة تسرع فوق الطريق الممتدّ إلى أهرامات سقارة. على يسارها الحقول الخضراء وأشجار النخيل. السماء فوق رأسها زرقاء صافية. فتحت النافذة لتستنشق الهواء يجيئها نقيًا. أخذت الريح تعبث بخصلات شعرها، وتطيّرها فأحكمتها بشال من الصوف الخفيف كانت ترتديه فوق كتفيها. يتأمّلها بين الحين والآخر من طرف عينيه. يبدو قلقًا، متوتّرًا، حول عينيه دائرتان من الزرقة القاتمة.

أوقف السيّارة تحت شجرة توت. كانت توجد مدرسة للبنات على مقربة منها، وفي تلك اللّحظة تدفّقت أفواج البنات من أبوابها. امتلأ الشارع بضحيج أصواتهنّ، بطوفان من المراييل، والضفائر، والأسنان والعيون اللاّمعة. على بعد خطوات وقفت عربة بطاطا كالخنفس الضخم المحمول على أربع عجلات. توقّف حولها جمع من البنات، وصرن يلوّحن بأيديهنّ في مظاهرة ضاحكة تستعجل نضج الثمار المختفية في الفرن الذي صعد منه الدخان الأسود. كانت «فاطمة» تعشق البطاطا الساخنة في فصل الشتاء. عاد إليه ملمسه يلسع الأصابع والشفاه. تتوقّف إلى جواره قرب العربة. يحتجّ قائلاً:

«لا أريد أن أبدأ يومي بأكل البطاطا فيتوقّف عقلي».

فتردّ قائلة:

«لكنّي أريد أن تتوقّف معدتك عن النشاط، فلم يعد لدينا نقود. والحلّ هو أن نملأها بالبطاطا».

ترتفع ضحكاتها مثل رنين الأجراس فتستدير الرؤوس الملتفّة حول العربة. يضغط على ذراعها منبّهًا. لكنّها تسترسل في الضحك. يحملق أمامه غير راضٍ عمّا يدور. يتفرّس في ملامح البائع السمراء، في أنفه

الأفطس الذي ازرقّ لونه من البرد، في الكوفيّة القديمة المتّسخة يلفّ بها رأسه. يمسك بالثمرة بين يديه ويشقّها بسكّين كاشفًا عن بطنها الأصفر يرتفع منها البخار. يقدِّمها إليها قائلاً:

«الحلاوة للحلوين يا ستّ فاطمة».

كان الناس في الحيّ يحبّونها. يتعاملون معها ببساطة فيها احترام. حتّى الصبية الذين كانوا يلعبون القمار «بالسبارس» على الناصية، أو يمسحون الأحذية في المقهى، حتّى القوّاد الذي كان يسكن في بدرون العمارة المنتصبة خلفهم. في الصباح يحيّيها شيخ الحارة وهو جالس يحتسي الشاي في المقهى، والمعلّم المنتصب خلف «النصبة»، والمأذون الذي يسكن الحيّ وفتح مكتبه في عمارتها.

تسير إلى جواره كأنّها لم تلاحظ عدم رضاه عن تصرّفاتها. تقلّب ثمرة البطاطا الساخنة بسرعة بين يديها. تعطيه نصفها ودون انتظار تغرس أسنانها في النصف الآخر، وتصرخ:

«ياي، نار، نار لسعت لساني يا «إبراهيم». الحقني».

لا تطيق الانتظار في أيّ شيء.. تقول:

«كل بسرعة يا «إبراهيم» مفيش وقت، ومدّ شويّة».

متعجّلة دائمًا كأنّها كانت تدرك أنّ الحياة لن تمهلها. تسهر على الكلمات طوال الليل، وفي الصباح تبتلع كوبًا من الشاي ثم تضع أشياءها في حقيبة من القماش وتفتح باب الشقّة. يسمعها وهي تقول:

«يا «إبراهيم» سأعود اليوم في الساعة السادسة».

تغلق الباب وراءها، لكن بعد قليل يسمع الدقّات. يفتح ليجدها واقفة أمامه ترفع الشعر الذي سقط على جبينها، وتنفخ متأوّهة:

«نسيت المفاتيح».

تبحث عنها في كلّ مكان، وأخيرًا تدسّ يدها في عمق الحقيبة. تقف جامدة وسط الحجرة، وتخرج المفاتيح من جوفها كالساحر يخرج أرنبًا من كيس أفرغه منذ لحظة. يحيطها بذراعيه، ويقبّلها ملحًّا. تصرخ بأعلى صوتها فيطلق سراحها خوفًا من أن يسمعها الجيران. تقترب منه بسرعة وتهمس في أذنه:

«ليس الآن يا «إبراهيم»، ليس الآن. وأعدك أن أتأخّر في النوم باكر صباحًا. أحبّك يا حبيبي أحبّك»، ثم تنطلق خارجة مرّة أخرى من باب الشقّة.

خرج من السيّارة ووقف في الشارع تحت الشمس يتابع البنات المتجمّعات حول عربة البطاطا. ظلّت هي جالسة. خلعت الشال وتركته على المقعد الخلفيّ ثم فتحت الباب وهبطت إلى الشارع. أخذت أنفاسًا عميقة وهي تتأمّل الحقول الخضراء الممتدّة أمامها. التفت إليها، وقال:

«يوجد مطعم قريب من هذا المكان اسمه «الدار»».

وقعت عيناه على العقد الذي ارتدته حول عنقها فظهر واضحًا أعلى الجلباب الأبيض. أسند ظهره على جانب السيّارة ورفع يديه إلى رأسه. سمعته يقول في صوت واهن متحشرج:

«أشعر بالدوار».

مدّ يده إلى كتفها كأنّه يطلب العون فلفّت ذراعها حوله. فتحت باب السيّارة وساعدته على الجلوس فوق المقعد. وضع رأسه على المسند الخلفيّ وأغلق عينيه. قالت:

«يستحسن أن نعود إلى البيت، سأقود السيّارة حتّى ترتاح. دعني أفكّ رباط العنق واخلع لك حذاءك».

فتح عينيه وحملق في وجهها. لمحت مقلتيه كأنّهما تطلاّن من خلف سحابة. أصابتها رعشة باردة اخترقت أعماقها لكنّها تمالكت نفسها. أدارت المحرّك وتقهقرت إلى الخلف بالسيّارة في إحدى الحواري ثم اتّجهت بها عائدة على الطريق الذي اجتازاه. تنظر إلى جوارها بين الحين والآخر. أصبح وجهه في لون القميص الأبيض الذي ارتداه. أغلقت النافذة المفتوحة إلى جواره. ضغطت على مفتاح المذياع وخفّضت الصوت حتّى انبعثت منه أنغام موسيقى خافتة. عندما وصلا أسفل العمارة فتح عينيه. مالت عليه وسألته:

«أما زلت تشعر بالتعب؟»

قال:

«لا.. أنا أحسن».

«هل تريد أن أوصلك إلى مكان ما.. أو إلى عيادة طبيب.. ربّما تفضّل الذهاب إلى بيتك».

قال:

«لا.. أريد أن أصعد معك إن لم يكن لديك مانع».

*

صبّ جرعة من الويسكي في كأسه، وأضاف إليها مكعّبين من الثلج. مدَّ يده بالزجاجة إلى كأسها، فقالت:

«لا، شكرًا. أنا لا أشرب الويسكي إلاّ نادرًا».

أخذ رشفة طويلة من كأسه وأعاده إلى المنضدة. ظلّ صامتًا ينظر

في الفراغ. أحسّ بغلالة سوداء تلتفّ حول ذهنه ثم أفاق. كأنّ الزمن لم يتغيّر. انبعثت من جديد أمامه. كأنّها لم تغب عنه. انبعثت بعينيها وشعرها يلمع كالنحاس الأحمر. بهذا العقد يتلألأ في ضوء المصباح. الآن لا يستطيع أن يهرب. جاء وقت الحساب. سمعها تهمس:

«أكمل كلامك. لا بدّ أن أعرف كلّ شيء».

أخرج منديلاً من السترة مسح به على وجهه. أسقط قطعة أخرى من الثلج في كأسه. تردَّد لحظة قبل أن يستأنف كلامه:

«كنت أخاف من الطريق الذي اختارته لنفسها. فأصحاب السلطة لم يكونوا راضين عن تصرّفاتها. لم تقبل منهم أن يسكتوا صوتها، ولم يكن من الممكن أن يقطعوا يديها، ولسانها. لذلك جاؤوا في تلك الليلة وألقوا القبض عليها. قالوا سنضعها في مكان أمين. أدخلوها في تخشيبة قسم «الأظاريتا» ثم نقلوها إلى سجن القناطر في القاهرة. مرّت ثلاث سنوات حصلت بعدها على الماجستير في فنّ أغلفة الكتب. وبعد ثلاث سنوات أخرى حصلت على الدكتوراه في اقتصاديّات النشر بعد أن التحقت بمؤسّسة «أبو الهول». لم أحاول أن أتّصل بها. فماذا كان يمكن أن أقول لها. في مرّة من المرّات قدت سيّارتي حتّى القناطر الخيريّة، وأوقفتها قرب بوّابة السجن. هبطت منها وهممت بالدخول، لكنّي تردّدت في آخر لحظة. أحسست أنّني لن أستطيع أن أواجهها. عدت إلى القاهرة دون أن أقوم بزيارتها. ما زلت أحلم بها أحيانًا. بالشابّ الذي رأيته سائرًا إلى جوارها وشعره يطير في الهواء، وهو منشغل بالتحدّث إليها. ومازلت أراه أحيانًا في

الحلم جالسًا على الكورنيش وبين يديه كتاب استغرق في قراءته، أو رافعًا طرفيْ بنطاله خائضًا معها مياه البحر عند الشاطئ، أو حاملاً كيسًا من اليوسفيّ يستخرج منه حبّة ويعطيها لها. أقترب منهما فتلقي بكيس اليوسفيّ في وجهي وتنصرف معه. وفي بعض اللّيالي ألمح نفسي واقفًا أمام بوّابة كبيرة على جانبيها جدار عالٍ. لا أعرف لماذا أقف في هذا المكان وحدي. وبعد قليل أدرك أنّني أنتظر خروجها».

صمت، ثم نظر حوله كأنّه أحسّ فجأة أنّه في مكان لم يألفه. سألته:

«لماذا توقّفت. أكمل. أريد أن أسمع منك القصّة حتّى نهايتها. لم تتكلّم على الطفلة التي تركتها.. أم تريد أن أواصل الكلام بدلاً منك!».

بدت ملامحه رماديّة اللّون، وأصبح وجهه عجوزاً حفر فيه الزمن خطوطه حول العينين، والأنف، والفم. انهار جسمه في المقعد كأنّه أصبح عاجزًا عن الاستقامة في جلسته. في الخارج صعدت الشمس وارتعشت أشعّتها على الأوراق الخضراء. خرجت إلى الشرفة وأسندت ذراعها على الحاجز. أسفل العمارة صبَّ البائع لبنه الأبيض من الكوز في الوعاء الذي أحضرته البنت الصغيرة التي تنتظره عند المدخل كلّ يوم، ثم ابتعد على درّاجته البخاريّة مطلقًا سحبًا من الدخان في الجوّ. استنشقت هواء الصباح النقيّ وأخذت تبسط ذراعيها، وساقيها، وتنحني إلى الأمام والخلف كأنّها تتخلّص من أثقال تكبّلها.

لم يلاحظ هو أنّها تركته. كان يحسّ بالإعياء الشديد كأنّ جسمه أفرغ تمامًا من كلّ طاقاته. أغلق عينيه وسقط في النوم.

بعد أن انتهت من تمريناتها، دخلت إلى حجرة المعيشة وعادت تحمل منضدة، ومقعدًا، وكتابًا عن الرقص ابتاعته منذ أيّام، ورزمة من الورق وعددًا من أقلام الرسم.

كانت الساعة قاربت على التاسعة عندما استيقظ. بحث عنها، لكنّه لم يجدها فظنّ أنّها غادرت الشقّة وتركته. وقف يصلح من هندامه أمام المرآة وذهب إلى الحمّام. غسل وجهه بالمياه الباردة، ومشّط شعره، وأحكم ربطة العنق التي كان قد خلعها في السيّارة. توجّه إلى باب الشقّة وهبط على السلالم ببطء مسندًا يده على الحاجز. أدار محرّك السيّارة، وضغط على مفتاح المذياع. جاءه صوت امرأة تقول: «ابتسمي في وجه زوجك عندما يستيقظ في الصباح حتّى تحيطيه بجوٍّ من السعادة في بداية اليوم». ثم تردّدت فقرة من الموسيقى الراقصة عادت بعدها تقول: «طبق اليوم أرانب بالزيتون الأخضر، وصلصة التوت».

ضغط على المفتاح فساد الصمت، كأنّ المرأة سقطت فجأة في هوّة وانتهت.

قاد سيّارته سائرًا في اتّجاه الطريق الصحراويّ. صور حياته تتوالى في سلسلة متّصلة طوال الطريق. فوجئ بوصوله عند الملاّحات دون أن ينتبه للمعالم المختلفة على الجانبين، وبعد قليل وجد نفسه في الإسكندريّة عند منتصف طريق الحرّيّـة.

أوقف سيّارته قرب محطّة ترام «الإبراهيميّة». أغلق أبوابها وسار بخطوات متمهّلة في الشارع الضيّق الطويل الممتدّ بين الحوانيت. بين الحين والحين كان يتوقّف، يقطّب جبينه وينظر من حوله ثم يستأنف

السير. محلّ الجزّار القديم اختفى، لكن بعد قليل اكتشف وجود محلّ جديد يعرض قطع اللّحم على رفٍّ طويل من الرخام خلف واجهة من الزجاج. قائمة الأسعار موضوعة في برواز مذهّب عند بداية الرفّ. وخلف البنك داخل المحلّ وقف رجلان أحدهما بدين والآخر قصير عريض المنكبين، مفتول العضلات كأنّه يمارس رياضة رفع الأثقال. كلٌّ منهما يرتدي معطفًا أبيض وقميصًا من الجرسيه مغلقًا. حول العنق تعلوه سلسلة ذهبيّة. لم يجد البار الذي كان يملكه «الخواجة كوستانطين». أصبح مكانه جواهرجي يعرض المشغولات الذهبيّة والفضّيّة، والغوايش، والخواتم، والأقراط للأذنين. رجل ملتحٍ يرتدي طاقيّة بيضاء مخرّمة، وكذلك استوديو التصوير الذي كان يملكه الأرمنيّ «أوهانيسيان» اختفى هو والصور التي كان يعرضها في «الفاترينة». تذكر الرجل الأصلع الرأس، القصير القامة، الذي كان يرتدي «بيريه» ومريلة ويهرول آخر النهار إلى صالة «البلياردو»، من دون أن يغيّر ملابس العمل. بدلاً منه أُقيم «بوتيكًا» مزدحمًا بالعطور، وأدوات التجميل، والساعات، وأجهزة الراديو والتسجيل، وبعض الملابس المهرّبة. لم يعثر على المقهى الكبير وصالة «البلياردو» الواسعة الملحقة به. تحوّلا إلى صالة لعرض السيّارات «الميتسوبيشي»، و«الهوندا». أحسّ بالضيق. كانت للحياة في تلك الأيّام نكهة رغم كلّ شيء. تذكّر يوم أن وقف تحت «التندة» ومسح نقاط المطر من على وجهها بمنديله. في عينيها السوداوين بريق، وفي وجهها وهج أحمر صعد إلى خدّيها البارزين.

عند المفارق بحث عن المقهى الذي كان يقبع أسفل العمارة فاختفى هو الآخر. اقترب من باب العمارة. مازالت الأكرة الحديديّة في

مكانها يطلّ منها رأس الأسد. عند نافذة الدور الأوّل أطلّت امرأة وجهها سمين أبيض وعلى شفتيها طلاء أحمر فاقع اللّون. كانت تستند إلى عتبة النافذة بمرفقيها، لتتبّع حركة الشارع. لمحت الوجه الغريب يتفحّص المدخل في تردّد. كان يرتدي سترة كحليّة اللّون لها أزرار من الفضّة، ويحمل في يده وردة. كادت أن تسأله عمّن يبحث! . لكنّه دخل من الباب الموارب بسرعة، واختفى في الداخل.

بعدها بأسبوع، استنشق سكّان العمارة رائحة عفنة أخذت تتسلّل إليهم في دفعات متصاعدة. بحثوا عن مصدرها في بئر السلّم، وفي المنور، وفي الأدوار المختلفة دون أن يعثروا على شيء يمكن أن يكون مصدرها. لكنّها ظلّت تتزايد يومًا بعد يوم إلى درجة مقلقة حتّى تنبّه السكّان في البيوت المجاورة. فأعادوا البحث من جديد، وأدركوا أنّ المصدر الأكيد هو العمارة رقم ٣ في شارع وردان. ولكن من أين تأتي؟ فجميع الشقق مسكونة، والناس فيها لم يجدوا شيئًا يفسّر الرائحة التي يعانون منها.

لكن، بعد أن مرَّ بعض الوقت، تنبّه أحد السكّان أنّ الرائحة تأتي من أعلى، وتسقط عليهم بقوّة كلّما تراكمت السحب، وسكن الجوّ. كأنّها تأتي من مكان ما في السماء الملبّدة بالغيوم القاتمة، المثقلة بالغازات السامّة. تشاور السكّان فيما بينهم فأدركوا أنّهم بحثوا عن المصدر في كلّ مكان ما عدا فوق السطح الذي أغلقه صاحب العمارة استعدادًا لبناء أدوار أخرى فوقه بعد أن كانت السلطات المحلّيّة في الحيّ اعترضت على التعلية، ثم طلبت منه أن يمهلها بعض الوقت حتّى تعيد التفكير في قرارها.

طلبوا منه المفتاح فرفض خوفًا من أن يقوم بعضهم بتخزين بعض حاجياته فوق السطح. لكن إزاء انتشار الرائحة وتفاقمها يومًا بعد يوم اقتنع بضرورة إعطائهم المفتاح ليصعدوا. وعندما فتحوا الباب المفضيّ إليه كانت الرائحة أقوى من قدرتهم على التحمّل فانسحب بعضهم، وانتظروا أسفل العمارة. لكنّ عددًا قليلاً منهم قاموا بتغطية وجوههم بالشيلان، والمناديل، وانتشروا بسرعة أمام الشقّتين الرّابضتين فوق السطح. وأمام الشقّة الموجودة على الناحية اليمنى وجدوا جثّة رجل يرقد بكامل ملابسه، كأنّه نام نومًا عميقًا لم يستيقظ منه. كانت الجثّة في حالة تحلّل أصابت العينين، والأنف، والشفتين والأذنين، وأجزاء أخرى. وكانت تزحف فوقها الديدان البيض الكبيرة والصغيرة، ويطير حولها أو يحطّ عليها عشرات من الذباب الأسود.

لاحظت المرأة الوحيدة التي تحاملت على نفسها، وصعدت فوق السطح أنّ الجثّة كانت مرتدية سترة كحليّة اللّون، أزرارها من الفضّة، وأنّ في يدها شيئًا يشبه حطب القطن. فتذكّرت الرجل الذي لمحته منذ أسبوعين أو أكثر وهو يدخل بسرعة من باب العمارة. لكنّها آثرت ألاّ تقول شيئًا خوفًا من أن يستجوبها البوليس في هذا الأمر.

دار التحقيق لمدّة شهور دون أن يصل رجال البوليس أو النيابة إلى شيء. لكن بعد أن مرّت الأسابيع نشرت جريدة سعوديّة اسمها «التقوى» خبر اختفاء شخصيّة هامّة كانت تشغل منصب رئيس مجلس إدارة مؤسّسة إعلاميّة كبرى، اسمها «أبو الهول»، ثم أخذت الصحف الأخرى تنشر بعض التفاصيل عن التحقيقات الخاصّة بهذه الحادثة إلى أن اتّضح دون شكّ أنّ الجثّة التي اكتشفت فوق سطح العمارة رقم ٣

شارع وردان بالإبراهيميّة، كانت جثّة الرجل المختفي الذي ظلّوا يبحثون عنه، وأنّ اسمه «إبراهيم مصطفى سالم».

تعدّدت التكهّنات حول سبب وجود جثّته في هذا المكان. لكن لا أحد استطاع أن يصل إلى تفسير مقنع لهذا الحادث الغريب، والفريد من نوعه. هكذا ظلّ هذا اللّغز قائمًا دون حلّ لينضمّ إلى مئات الأحداث التي لا يصل إلى سرّها رجال الأمن، أو يخفونها عن عمد لأسباب تتعلّق بالمصالح العليا للوطن.

خاتمة

بعد اختفاء يسري أمين الجندي من الشقّة التي اشتراها في الإسكندريّة بتسعة أشهر، كنت جالسًا في عيادتي بعد أن انتهيت من الكشف على المرضى واستعددت لمغادرتها، والعودة إلى البيت، دخلت إليّ الممرِّضة وقالت لي إنّ هناك امرأة موجودة بالخارج جاءها الطلق وهي خارجة من السوبرماركت، ولمحت اللاّفتة المعلّقة في أوّل شارعنا، فجاءت إليّ تطلب الرعاية التي تحتاج إليها.

أدخلتها في حجرة الكشف على الفور، ومنذ أوّل لحظة أحسست أنّها ليست امرأة عاديّة. كانت فيها جاذبيّة من نوع خاصّ. عيناها السوداوان فيهما بريق لم أرَ مثله من قبل. شعرها يشعّ منه وهج أحمر، رغم خصلات الشيب التي زحفت عليه. ومشيتها فيها ليونة وقوّة، رغم الجنين الذي كانت تحمله.

في تلك اللّيلة ولدت طفلة بدت لي مثل نموذج مصغّر لها. حملت الممرِّضة الطفلة إليها لتراها، ثم سألتها:

«ما هو رقم تليفون زوجك أو عنوانه حتّى نرسل إليه».

فحملقت في وجهها بتلك النظرة المباشرة التي لاحظتها عندما دخلت عليّ، وقالت:

«ليس لي زوج. اختفى منذ شهور، ولا أعرف كيف يمكن أن أعثر

عليه».

عادت إليّ الممرِّضة مهرولة لتخبرني بما سمعته، فذهبت إليها وسألتها:

«ماذا ستسمّين الطفلة الجميلة التي هي ابنتك»، فقالت:

«فاطمة عزّة الجندي».

أحسست أنّ الموضوع كلّه محاط بجوٍّ لم أتعوّد عليه. لكن شيئًا في شخصيّة هذه المرأة جعلني أتقبّل ما لم أكن أتقبله من قبل.

مع مرور الأيّام ربطت بيني وبينها صداقة عميقة استمرّت حتّى اليوم. وفي إحدى الأمسيات ونحن جالسان في بيتها حكت لي قصّتها. ولأنّها قصّة تستحقّ أن يعرفها غيري قرّرت أن أكتبها.. «فعزّة يسري الجندي» امرأة جعلتني أفكّر في الكثير من شؤون حياتنا، وأغيّر موقفي منها. كما جعلتني أتمنّى أن تصبح ابنتي مثلها.. امرأة قويّة لا تقبل الزيف، لديها قدرة حقيقيّة على الحبّ وعلى الإبداع في آن.

د. شريف حتاتة طبيب وكاتب مصري. انضمَّ إلى «الحركة الديموقراطيَّة للتحرُّر الوطنيّ» اليساريَّة سنة ١٩٤٦. وقضى خمس عشرة سنة في السجون والمنافي، ودرّس كأستاذ زائر في جامعة دْيوكْ في أميركا منهجاً خاصاً اسمه «التمرّد والإبداع».

«نبض الأشياء الضائعة» هي روايته السابعة بعد روايات «العين ذات الجفن المعدني» و«الهزيمة» و«الشبكة» و«قصة حب عصريّة» و«كريمة» و«الرئيسة».



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت